كتاب العربي

تاريخنا وبقايا صور

الدكتور شاكر مصطفى

الكتاب الخامس والعشرون
١٥ أكتوبر ١٩٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب العربي

مرآة العقل العربي

رئيس التحرير
الدكتور محمد الرميحي

هذه السلسلة

- تصدر عن مجلة العربي مؤقتاً فصلياً.
- تقدم مجموعة من المقالات والموضوعات لكاتب واحد أو موضوعاً واحداً تتناوله عدة أقلام مما سبق نشره في مجلة العربي.

عنوان المجلة :

ص.ب : ٧٤٨ - الصفاة
الرمز البريدي 13008 - الكويت
تلفون : ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٢٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقياً : "العربي" - الكويت - تلكس MITR.44041KT
تلفون فكسملي : ٢٤٢٤٣٧٥
المراسلات باسم رئيس التحرير

السعر :

الكويت ٣٠٠ فلس ، العراق ٤٠٠ فلس ، السعودية ٦ ريالات ، الأردن ٣٥٠ فلساً ، سوريا ١٥ ليرة ، لبنان ٥٠ ليرة ، مصر ٣٥ قرشاً ، السودان ٣٠ قرشاً ، المغرب ٦ دراهم ، قطر ٧ ريالات ، الامارات ٧ دراهم ، سلطنة عُمان ٤٠٠ بيسة ، اليمن الشمالي ٤ ريالات ، اليمن الجنوبي ٣٥٠ فلساً ، ليبيا ٥٠٠ درهم ، تونس ٥٠٠ مليم ، الجزائر ٥ دنانير ، البحرين ٤٠٠ فلس ، بريطانيا جنيه استرليني ونصف ، فرنسا ٢٥ فرنكاً ، أوربا جنيه استرليني ونصف ، أمريكا ٣ دولارات أو جنيه استرليني ونصف .

الاشتراكات :

في الوطن العربي : ٢,٥٠٠ د . ك أو ٧ دولارات .
باقي دول العالم : ٣ د . ك أو ٩ دولارات .

تاريخنا .. وبقايا صور

الدكتور شاكر مصطفى

● كتاب العربي ●
● سلسلة فصلية تصدرها مجلة العربي ●

الكتاب الخامس والعشرون
١٥ أكتوبر ١٩٨٩

الدكتور محمد الرميحي

وَيْلٌ للسُكونِيِّينَ !

ما أمتع أن تقرأ لشاكر مصطفى ! فبعض الكتاب عندي لهم طابع تخصصي ، فهذا فلسفي وذاك سياسي ، وآخر اجتماعي ، ورابع علمي ، وغيره تاريخي، أما حين تقرأ لشاكر مصطفى فتجده كل أولئك جميعا ، ليس ذاك فقط بل وفي أسلوبه من الطلاوة ما يذكرك بالماء البارد القراح في يوم قائظ .

إن الكتاب الموسوعيين في زمننا قلة ، ومن هؤلاء القلة كاتبنا هذا ، فعندما تقرأ له فأنت بالجديد مزود ، وعلى الطريف مطلع

وبالأسلوب السلس متمتع ، ولعل دراسة التاريخ قد أعطت كاتبنا ذاك البعد الذي سماه هو غبار الماضي (الذي لا يفارقه) ، ذاك البعد جعل عينيْ مؤلفنا تتشبتان على المستقبل ، وعندما يتناول قضايا العرب المعاصرة ، فإنه يجسد من التاريخ أمثلة وهو الى المستقبل طامح .

لقد قرأت موضوعات الكتاب موضوعاً موضوعاً ، وعلى الرغم من أنها كانت القراءة الثانية فإن متعة قراءتها لم تنطفيء .

حتى عنوان الكتاب كانت له قصة . فقد قلّبنا الاحتمالات - نحن والمؤلف - احتمالا وراء احتمال لاختيار هذا العنوان ، وأصر صاحبنا أن ندعو كتابه المقتطف من مجلة « العربي » بـ (تاريخنا وبقايا صور) . هل هو عنوان متشائم يحمل كما يحمل الفصل الأول احساس القلق والتشاؤم ، والكاتب يرى الأمم من خلفنا وعن يميننا ويسارنا تصل الى ما تريد ، أو تحاول جاهدة أن تصل ، ونحن « سكونيون » على حد تعبيره ؟

الكاتب ينقد ظواهرنا الاجتماعية والسياسية نقد القائل:هيا

هبوا وأفيقوا ، لا تمشوا ، بل اركضوا . ويأخذ الكاتب على عاتقه الإشارة الى الطريق الأسلم ، طريق المستقبل ، وهو المعرفة بالادارة ، والمعرفة بالسياسة ، والمعرفة بالتقنية ، فنحن مثقلون بالمعاناة ، وجزء منها أسبابه خاصة بنا ، وجزء من هذه المعاناة مفروض علينا كوننا من عالم ثالث وعرباً ومسلمين .

ربما يكون التفاؤل والتشاؤم مجدولين في ثنايا هذا الكتاب ، ليعبرا عن تجربة الكاتب الطويلة في مجالات شتى ، إلا أن مربط « فرس » الكاتب كما يذكر ، هو التخلف الثقافي والمعرفي الضارب أطنابه في وطننا العربي ، وعن طريق التغلب على هذا التخلف يظهر الفرج ، وهذا الطريق تتفرع حوله الاجتهادات ، فيصفها كاتبنا بأسلوبه المتميز بدقة وشفافية .

ويشركنا الكاتب في الفصل الثاني من الكتاب بجزء من غزير علمه التاريخي ، فينقل لنا صورا ، هي تاريخية بمعنى حدوثها ووقائعها ، ولكنها معاصرة بمعنى مضامينها وأهدافها ، فيربط وقائع التاريخ ـ خاصة العربي ـ بواقع الحال ، ويترك للقاريء شريطا من الصور للمقارنة بين الماضي والحاضر .

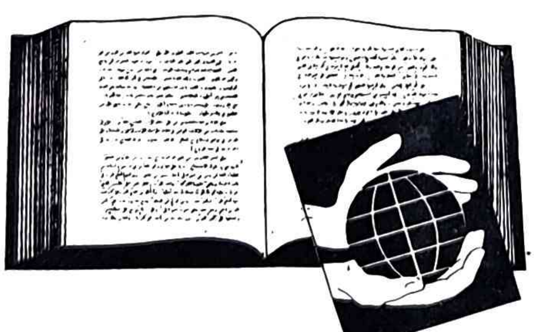
رسالة الكاتب هنا هي الأمل في المستقبل ، الأمـل في نهضة جديدة للعرب ، والأمل في جيل جديد . وتسود هذا الامل في بعض الاوقات روح تشاؤ مية ، وعندما يغترف كاتبنا من التاريخ فسرعان ما تنقلب هذه الروح الى روح تفاؤ ل ، ولكن المعضلات الفكرية التي يـطرقها شـاكر مصـطفى في هـذه المقتـطفـات من كتـابـاتـه لمجلة « العربي » ، ما زالت وستظل معضلات فكرية كأداء ، تـثير في كل من يتصفحها عن بصيرة مجمـوعة من التسـاؤ لات ليست اجابـاتها بالهينة ولا البسيطة . قضيتنا الرئيسة هنا أن الحوار والنقد في حالـة انحسار ، فتتطاير الكلمات والأفكار الجيدة دون أن تحدث ما يجب أن تحدثه في مجتمع ثقافي مستنير راغب في التطور . احدى المعضلات التي تؤ ثر في سياق ما يعرضه كاتبنا هنا هي : أنتجه الى (غـربنة العـالم النامي) ، أم الى (انماء التقنية عن طريق ثالث) ، أم نتجه ببساطة الى علاقة بالغرب صحية وصحيحة يجب أن نجتمع عليها أو نتفرق ؟

فكريا لم نستطع الاجابة القاطعة عن هذا السؤ ال . وأحسب أنه يزيد إلحاحـا علينا بعـد قراءتنـا لما تنـاوله المؤلف هنـا من هذه القضايا .

ثم يخطو شاكر مصطفى - كما نتوقع منه - خطوة اخرى فيحدثنا في الفصل الثالث - الاخير - عن شيء من الذكريات ، وهنا تتجلى مقدرة شاكر مصطفى في التعامل مع الكلمات والافكار بالاسلوب الذي وصفناه بالتميز ، فهو يجمع لك كل خبرته التاريخية في موقف عظيم فيعطيها موقفا ليس شخصيا ، ولكنه حضاري ، نتاج خبرة شخصية مر بها الكاتب ، وأسقطها بابداع على الذاكرة التاريخية للعرب ، فجاءت صورا جميلة تثير الدفء والحنين ، والتفكير العميق أيضا .

هذا هو الكاتب ، والكتاب بين يديك - عزيزي القاريء - حلقة اخرى في سلسلة تضيف الى ثقافتنا العربية جهدا آخر . □□

محمد الرميحي



تمهيد

بين يدي الكتاب

أكاد والكلمة تفلت مني على هذا السطر أو ذاك أن أعود فالتقطها ، وأنا أحس دبيب ابتعادها على الورق ، وخلودها ضدي على الرغم مني . الكلمة قيد ، إنها شاهد يؤطرني ، ويضع في كل حرف الحدود - كالسجن - لفكري وعلمي ، وأعترف أنني بعد كتابة الكلمة لا أقرؤها ولا أسمعها أبدا .

أحاول الهرب منها ما استطعت ، أنسى أنها شيء من كياني . فما بالك وهي تجتمع في كتاب واحد أحسب أنه المهرجان ! . وحين جمعت مجلة « العربي » بعض الخواطر التي مرت بي في السنوات السابقة ، وجدتني القلق الممزق بين خطين ، جذرا يوغل ، يوغل

في التراب ، وزهرة ماتنفك تشرئب نحو الشمس ، دنياي مليئة بغبار الماضي ، لايفارقني ولا أفارقه ، وعيوني رهينة بالمستقبل ، تروده كالأفق المفقود ، لاتريد الغفلة عنه . الماضي يثقل أجفاني وحروفي ، والمستقبل يجرني مرغما على ضبابيته ومجهوله ، لأتطلع إلى قلق مصيري فيه .

وليست السياسة عندي هذا الحديث الذي تتبادله مع جارك بعد أن تقلب الجريدة اليومية ظهرا وبطنا ، ولا التاريخ هذا الذي يحشونه ـ على الرغم منك ـ في دماغك من خبر الملوك والسنين . فإنا من هذا ومن تلك على الحدود البعيدة . وقد تروق لك هذه الحدود .

هل أنا راض بهذا القدر المحتوم ؟

لعلي لا أرفضه . وحسب هذا الكتاب أن يترك في جبهتك إشارة استفهام صغيرة تسأل : ماذا يريد أن يقول هذا الرجل ؟ .

الدكتور : شاكر مصطفى



الفصل الأوّل

شيء من السياسة

نحن في حالة حصار .. لا تحدٍّ

منذ فترة غير بعيدة . عرضت في نيويورك ولندن مسرحية موسيقية بلغ من نجاحها الساحق وشهرتها أن استمرت على خشبة المسرح ، عدة سنوات . عنوان المسرحية يكشف موضوعها : « اوقفوا العالم ! أريد أن انزل ! »

بطل المسرحية ملَّ العالم . قرف . يئس . أرهقته تحديات العصر ، ويريد أن يغادر المركبة التي وضع فيها مرغما .

فاذا اختار هجرها برضاه أفما جاءها مقودا برغمه ؟

راكبوا هذه الكرة السابحة في لا نهائية الفلك ، هل يستطيعون أن يقولوا هذه الكلمة ؟ هل يستطيعون ايقاف المركبة الأرضية والنزول ؟ الاستقالة منها والهرب ؟ المعرى منذ ألف سنة قال :

وهل يأبق الانسان من ملك ربه فيهرب من أرض له وسماء ؟!

اذا لم يكن من ايقاف ولا من نزول وهرب ، اذن فكل من عليها واقف ، شاء أم ابى ، امام تحديات الحياة والعصر . كل من عليها داخل في اللعبة البشرية الكبرى ، اللعبة ـ المأساة التي تسحق هذا العصر . .

العربي ـ العدد ٢٦٤ ـ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٠ م .

الأقوى والأضعف

صراع القوى العالمية ، تحدياتها ، وأبعاد هذا التحدي ، لم تكن في عصر من عصور التاريخ أشرس في الوحشية ، ولا أقوى في الوسائل ، ولا أوسع في المدى مما هي عليه اليوم . إنه عصر الرعب هذا العصر ، على مستوى الأفراد وعلى مستوى الشعوب سواء بسواء . إنه عصر انسحاق الأضعف حتى العظم ! قد تكون الحياة كلها ، في نهاية المطاف ، معركة الأقوى والأضعف . وقد يكون تاريخ المجتمعات البشرية كله ليس أكثر من ظفر وناب . حتى الذين لخصوا قصة البشرية في كلمات ، لخصوها كذلك ، من داروين في « تنازع البقاء » الى ماركس في « صراع الطبقات » الى توينبي في نظرية « التحدي » . . لكن هذا العصر بالذات عصر مختلف ، وأكاد اقول إنه عصر الفاجعة .

الفارق بينه وبين العصور السابقة ليس في نوع العملية الصراعية وليس في عملية التحدي الأبدية ، ولكن في الدرجة الرهيبة التي دفع اليها هذا التحدي ، وفي القوى والوسائل الإبليسية التي تستخدم فيه ، وفي السعة التي امتد معها الى الفضاء الكوني .

هل أنا الى التشاؤم الأسود أميل ؟

لقد كنت طوال عمري أكره السواد . أبغض الحرف المتجهم . ما تركت مرة عتمة الليل تستبد بي وتفترسني . اليأس ، التشاؤم ، الكوابيس ، العدمية ، هذه الأسرة السوداء ، مع فراخها والأعشاش تبيت دوما خارج الهيكل عندي ، ولكني مع ذلك ، وامام سؤال التحديات المطروح لم أملك الافلات من هذه الاسرة الشيطانية .

لم املك منعها من الخبب على عيوني ولا منعها من التحويم حولي .

فهل ثمة من يعذرني إن تسربت الى القلم هنا وهناك قطرات من المهل المحرق ؟ وهل ثمة من كاهن فكر . يشعل النار والنور ؟

ظهرنا الى الحائط

إني لا أرانا في حالة تحد فقط . التحدي يترك لك سلاح المناورة وارض التحرك . نحن في حالة حصار . ليس القفاز هو المرمى في وجوهنا فحسب ، إننا نحارب وظهرنا الى الحائط . القوى الكونية التي تقف على الطرف الآخر لا تتحدانا فقط . إنها تـزرع الحدود نـارا وقواعـد . وتلغم الأبواب وتنصب المجانيق وتدخل حتى في الانوف كجن الاساطير . إنها تضعنا بالرغم منا امام الاختيار المصيري . امام المنعطف الشكسبيري القدري .

« انكون او لا نكون ! . . تلك هي المسألة »!

بلى ! اعرف أن القارىء لهذه الكلمات ، في اطمئنان مقعـده ، سوف يـرميني باليـأس المرضي . أو بهلوسـة الرؤى ، فـان رحم ، اتهمني بالمبـالغة الشديدة ، ولكن أليس في عرس القرن الجديد من مكان لنذير ؟ وهل للرائد أن يكذب اهله ويتركهم على الخدر الغيبي وسنابك التتر تسد منابع الفجر ؟

دعـونا اولا نتفحص المعـطيات ونضـع التعاريف والحـدود . الاسلام المقصود بالتحدي ليس هو اولا الـدين الاسلامي . هـذه المؤسسة الحضـارية الضخمة التي يدين بها خمس سكان الدنيا هي التي تتحدى . وهي تتحدى ابناءها والآخرين . الايديولوجية الاسلاميـة بوصفهـا عقيدة وموقف حياة سجلت نفسها والى الابد ركنا هو أبرز أركان الفكر الديني للانسانية وايجابية تاريخية من أهم ايجابياته .

وليس الاسلام المقصود ثـانيا هـو ذلك التـراث الثقافي ـ الاجتمـاعي ـ الروحي للبلاد الاسلامية . إن اربعة عشر قرنا من الجهد الحضاري المتصل

(بمده وجزره على السواء) قد ضربت لذلك التراث الجذور ، وكشفت كتلته الغنية وجعلتها جزءاً أساسياً من تراث الانسانية الاكبر .

إنما موضوع التحدي هم المسلمون . هم الجماعة البشرية المسلمة التي تقوم الامة العربية في قلبها والطليعة وفي المحور الأبرز . والاسلام الحالي بهذا المعنى له ثلاث دوائر حضارية متداخلة الاطراف والحدود فيما بينها وغيرها : الدائرة العربية والدائرة الافريقية والدائرة الاسيوية (او الهندية ـ أو الصينية). إن هذه الدوائر كلها تقع ضمن ما اصطلح على تسميته « بالعالم الثالث » ، عالم « ايتام العصر » الذي يتميز :

أ ـ بمجتمعات قومية مكثفة البنية تحيا حياة وحدودية التركيب . قديمة البنى والعلاقات والتطبيق . عريقة التقاليد ، متفجرة التكاثر .

ب ـ بانتاجية تقليدية محدودة المردود ، مبعثرة الطاقة ماديا وبشريا تعطيها مستوى مسكينا من العيش من ملامحه الانخفاض والفقر .

جـ ـ وبتكوينات ثقافية تقليدية . بطيئة الايقاع الزمني . قلما تساعدها على التنمية او تفتح الافق لتثوير العلاقات الاجتماعية ـ الاقتصادية فيها او الاسهام في قوى العصر وفكره الرهيب ! وانتقل الى القرن الخامس عشر .

والعيون في الأرض

لقد أطل القرن بالفعل . هذا هلاله الأول في السماء ، لكني أشك في أن يكون العديد من المسلمين قد رفع عينيه الى السماء وأدرك ان قرنا جديدا قد أطل مع هذا الهلال على الاسلام . ولو قد رفع عينيه فاني اشك كرة اخرى في ان يكون فكر التفكير المصيري في معنى اطلالة هذا القرن الجديد على الاسلام ضمن اطار العصر . او ركض وراء ابعاد تحدياته . الجماهير المسلمة (والعربية في الموكب نفسه) عامتها بمئات الملايين في شغل بالراب على التراب . العيون كلها في الارض . ما من عين على السماء ولا على الأفق . « ألهاكم التكاثر حتى

زرتم المقابر . كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون . كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ».

وما على الوجه الوعظي اردد هذا النذير القرآني ، ولكن على الوجه المادي الحياتي ايضا . الكثيرون عن المستقبل والمصير في شغل او لا مبالاة او اتكالية يعيشون في الغيب خارج الزمن .والكثيرون تتنزل عليهم هذه المناسبة كما لو كانت مناسبة دينية احتفالية . صفة « الهجرة » التى تعطى للقرن تلبسه العمامة . تسبغ عليه طابع الغيبية والدين ، وتجر وراءه اصداء الصلوات ورؤى المآذن وحلقات الفقه وتكبير الحجيج ، كأنما التاريخ الهجري يجرى وحده في الزمان وكأنما القرن القادم سائر على وتيرة القرون الاولى وايقاعها . . او هو صفحة بقياس السابقات تضاف الى الحولية الأبدية المكرورة !

لو ازلنا هذا الانفصام في الصورة ، لو تذكرنا أننا في العقدين الأخيرين من القرن العشرين ، وان معظم القرن الخامس عشر سوف يقع في القرن الحادي والعشرين ، إذن لانكشفت التحديات تحسبها ركبا من الجن .

أول التحديات

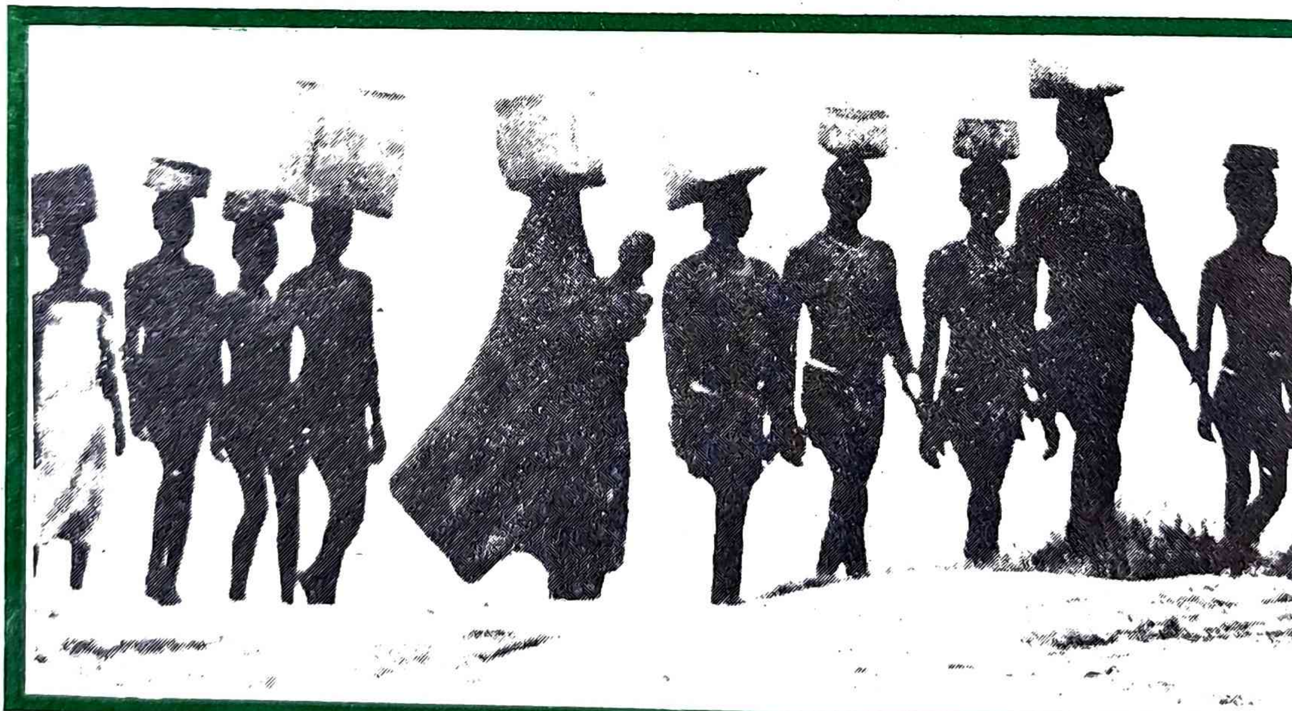
أول هذه التحديات :ـ طغيان الحضارة الغربية المتفاقم . هذا « الشر الابيض » كما يدعوه بعض ابنائها ، يكتسح كالفيضان « النوحي » كل الحدود .

الشرق الاشتراكي والغرب الرأسمالي الامبريالي كلاهما يشتركان في دفع هذا الطغيان الى نهاياته . لم يحدث في تاريخ الانسان كله أن وجدت حضارة بمثل هذه القوى الشيطانية ، وبمثل هذه العالمية من الطغيان . لسنا امام امبريالية حضارية تقليدية ولكن امام تنين حضاري كوني ، يتحرك باقدام المردة . يتحرك . يدوس النمل وحدود القصب التي تقيمها الجماعات الحضارية الأخرى دونه . . .

هذه الحضارة التي بدأت القيام منذ اربعة قرون بنهب القارات الثلاث

واستعبادها ما تزال تزداد نهبا واستعبادا وجبروتا من الجبروت . واذا كان ذهب امريكا المكتشفة وثروات آسيا وافريقيا المستعمرة ثلاث مائة سنة هي التي بنتها فالفائض الحضاري المتراكم في الغرب اليوم هو الذي يفرض التخلف فرضا على الآخرين ، ويفرض معه الاستعباد والتبعية الذيلية ! . . . من العبارات المعادة ما تتداوله اللقاءات بين « الشمال والجنوب » او بين « الدول المتقدمة والدول النامية » من أن الأغنياء يزدادون غنى بينما الفقراء يزدادون فقرا ! !

مصدر الجبروت في هذه الحضارة انها منذ اوائل الستينيات دخلت عصر ما بعد الثورة الصناعية الثانية ، عصر الثورة التقنية في قوة الانتاج . ومنذ السبعينيات ، مع الهبوط على القمر ، دخلت عصر الاكتشافات الثاني ، عصر الانسان الكوني والحضارة الكوكبية . ونحن في هذا متفرجون لا مشاركون ، على السكونية المبهوتة لا الايجاب المتصل بالعصر . إنها توظف التقنية المتقدمة والسيبيرنتية التطبيقية و « العقول » الالكترونية وغسل الأدمغة توظيفا متزايد السعة والتعقيد والقوة لدخول الكونين الاكبر والاصغر . ولفرض منطقها ومصالحها وعقائدها وغزوها الفكري والمادي . ونحن نعيش ، طائعين او



مرغمين ، عقابيل ذلك كله قهرا ونزف دماء وهزائم ايديولوجية وعدوانية سافرة . . سافرة حتى الاحتقار ! !

وان احد البديلين : الانفجار او كارثة الجوع الجماعي هو القادم في الافق قبل سنة ٢٠٠٠ .

ان القرن الحادي والعشرين سوف يكون متغيرا نوعيا عن الماضي كله ، وعن هذا الحاضر الذي نعيش ايضا . فالخطوط النهائية « للأتمتة » المعممة في الصناعة للثورة في الاعلام والاتصال ، والسيبيرنتية في الادارة والعمل ، والحاسبات الالكترونية المتطورة تدمر كل الأسس الحضارية الأولى لمصلحة تكوين حضاري جديد . إنها لن تؤدى إلى العصر السيبيرنتي - الالكتروني - الكوكبي فقط ، ولكن الى عصر الحضارة الواحدة التي تفترس الأخريات : حضارة الغرب . . . أهي تؤدي بنا ؟ بلى ! ولكن دون ان يكون لنا فيها من مكان ، سوى مكان العديد من الحضارات القديمة !

الويل للسكونيين

ثاني هذه التحديات : ايقاع العصر : ثورته الرهيبة السرعة والسعة في المعرفة وفي الانتاج والاستهلاك . العالم يعيش اليوم انقلابا كالزلزال في أسس الحياة والفكر والاتصال والتغير . في علاقات الفكر - الزمن ، والانتاج - الزمن والتغير - الزمن . . والويل للسكونيين !

بالارقام ، ان شئنا الارقام ، حسبوا ان كمية المعارف التي كشفها الانسان في السنوات الخمس عشرة الاخيرة تعدل ضعف ما عرفه وكشفه منذ بدء الحضارة حتى ذلك التاريخ . . والتسارع الرهيب الى ازدياد ، فالعلماء في الدول المتقدمة هم الذين سيكونون بعد عقدين او ثلاثة من السنين ، بروليتاريا المستقبل !

وبالأرقام ايضا قضى الانسان منذ وجد حتى ما قبل خمسة الاف سنة ليكتشف الكتابة . وقبل ٥٠٠ سنة فقط اكتشف المطبعة واخذ يطبع حوالي الف كتاب في السنة . . وفي سنة ١٩٦٠ كان المعدل ٧٠٠ كتاب في اليوم وفي سنة ١٩٦٥ وصل المعدل الف كتاب . . اما اليوم فالمعدل اليومي ٢١٠٠ كتاب .

واما في سنة ٢٠٠٠ فسوف يكون الالكترونيك قد حل محل الورق ! وليس هذا من قبيل الخيال العلمي ولكنه الواقع المقبل . ان الكتاب سوف يتحول الى معطيات « كومبيوترية » يرجع اليها القارىء وهو في منزله . لدى البنوك بالتيليماتيك !!

وبالارقام ايضا وايضا كانت اسرع وسائل النقل قبل الميلاد هي العجلة (٣٥ كم في الساعة . . وفي حوالي ١٨٩٠ وصلت السرعة بالقاطرة البخارية الى ١٢٠ كم س . في الستينيات من هذا القرن وصل الانسان بالصاروخيات الى سرعة ٦ - ٧ الاف كم س . ثم دار حول الارض في مركبات الفضاء بسرعة ٣٠ الف كم ساعي . وفي سنة ١٩٦٨ وصل القمر بسرعة ١٤٢ الف كم س ، أي أنه صار يلف الكرة الارضية كلها ويزيد في ساعة احدة . . اما اليوم فقد تجاوز هذا الرقم عدة اضعاف وراء الكواكب . . فالى اين ؟

في الانتاج . . كان انتاج الغرب يزيد سنويا ٥٪ منذ مطالع القرن حتى الحرب العالمية الثانية . ثم صار يزيد بعدها حتى سنة ١٩٦٥ ما يعادل ٧٪ ثم صار يزيد في السنوات العشر التالية ١٨٪ . . وهذا يعني ان الطفل الذي ولد سنة ١٩١٠ اضحى محاطا سنة ١٩٧٥ بمجتمع يساوي انتاجه ٤٠ مرة مما كان يوم ولادته !!

في الاستهلاك . . لنفترض ان الطاقة المستمدة من احراق ٣٣ مليون طن فحم هي ك فان الانسان منذ عصر السيد المسيح الى ما قبل ١٣٠ سنة لم يستهلك سوى نصف ك واحدة اما اليوم فانه يستهلك ما معدله ك كل عشر سنوات !! والبقية تأتي . .

ان العالم يسبح في مركبة يقودها الف شيطان وشيطان . واذا كان أجدادنا يقولون : ان الوقت كالسيف ان لم تقطعه قطعك . فان هذه الجملة النافذة لا تأخذ معناها قدر ما تأخذه اليوم . ان العالم لم يعد مسطحا ذا بعدين منذ تكورت الارض . . صار بثلاثة ابعاد . ولقد دخل منذ النسبية ثم منذ الحاسب الالكتروني عصر البعد الرابع : بعد الزمن . أليس الزمن بالتحدي العريض ؟

العالم الذي استيقظ

ثالث التحديات هذه اليقظة العالمية العرمة بكل مكان . العالم لم يعد لغرب وحده كما كان حتى الامس . ولا لنا وحدنا كما كان قبل قرون . . إنه اليوم ملك المجموعات المتزايدة من البشر التي ترفع صوتها في كل فج وتريد مكانا لها تحت الشمس . هيئة الامم التي كانت بعيد الحرب العالمية الثانية لا تزيد على خمس وأربعين دولة ، اضحت اليوم مائة واحدى وخمسين دولة تنتمي إلى مالا يقل عن اثنتي عشرة دائرة حضارية . أديان عديدة دخلت الساحة العالمية ، ايديولوجيات متضاربة نزلت ، جماليات غريبة . غسيل ادمغة ، زحام من الزحام يطرح المشاريع الحضارية الزنجية بجانب الصينية ، والهندية بجانب الامريكية ـ اللاتينية والرهان هو على اخراج الانوف فوق الفيضان الغربي ، هو على النجاة من الغرق ، من دوس الأرجل الراكضة نحو الغد . هذه القوى العالمية الفتية التي تختزن الكثير من الطاقات والحقد والتراث والتطلع تزحف بدورها في المسيرة وتترك بصماتها السلبية والايجابية ، على الخطوط .

رابع التحديات . هو التحدي الاكبر : التحدي الداخلي . اذا كانت التحديات الاخرى هي تحديات « الآخر » فهذا التحدي الذاتي هو الأصعب والأقسى .

تلك البنى (الاقتصادية ـ الاجتماعية الفكرية) التقليدية التي كانت حتى

الآن تحمينا وتمنحنا الاطمئنان السلبي قد بدأت تتصدع وتتفكك ، تتفتت تحت ضربات العصر ، التكوينات كلها تتحرك ، السكوني والغيبي والتراثي كله يهتز .

كـأنمـا زلـزلـة تحـتـه

لمـا بـه مـن رعـشـة واضـطـراب

ومعطيات العصر لا تترك تحت اقدامنا سوى الرمال . حتى « القواقع » الصلبة التي يهرب اليها « الزميتون » لم تعد درع المقاومة . إنها بدورها تنهار فتاتا من الفتات . لم تعد العزلة ممكنة بقدر ما الاستسلام لم يعد مقبولا . . . ولكن العصر ينفذ حتى صدر بيتك ويختطف منك اولادك . انه يسحب البساط الهانىء من تحتك وتحت جارك ويمنح اجيالنا اللاحقة معطيات اخرى وفكرا آخر ، وكما يسلب الغرب والشرق اموالنا وثرواتنا وارضنا وادمغتنا فهو يسلب الدرع الحضاري او يحاول سلبه او تفريغه من المحتوى .

التحدى الأكبر هو ضرورة التوافق مع العصر من خصوصيتنا الحضارية ، وهو الاحساس بايقاع الزمن المتسارع وادخاله على منظومة القيم وعلى اسلوب الانتاج . هو التنسيق الاضطراري مع حركة الانسانية وبالانقلاب الذاتي من الداخل ومن خلال الجذور .

واذا كان الشعور بضرورة التغير أو الثورة أو التطوير مما يتفق عليه الجميع (وانظر الكتب في ذلك والدعوات والمؤتمرات ونداء المصلحين والثوريين) واذا كان هذا الشعور علامة صحة ويقظة الا ان نقطة النقص فيه انه لا يحسب حساب « الزمن » ! الزمن ليس معنا . إنه يفر وبالسرعة المجنونة من بين الأصابع . السرعة المثلثة المطلوبة منا (سرعة اللحاق بالركب وسرعة العصر نفسه وسرعة السبق) ما تزال لدينا خارج المدركات الحسية !

* * *

لا تحدثني عن الثورة الاسلامية التي تقرع لها الاجراس اليوم . إنها ما تزال في حدود الافعال المنعكسة . ما تزال سياسية الطابع . فئة (العسكر يتاريا) التي تقودها هي في تركيبها الأعمق مؤسسة غربية ، واقصى مداها السقوط في الطائفية او في المحور الرجعي . كل الخوف العالمي الذي وزعه الاعلام الغربي - الشرقي منها هنا وهناك إنما كان محاولة للاطمئنان إلى أنها لن تصبح ثورة ثقافية - اجتماعية - اقتصادية جذرية . لن تكون ثورة في اتجاه العصر . ثورة حضارة تشق دربا آخر للانسانية .

لغة مثلثة

واذا عطفت الى موقعنا الصراعي نحن العرب وجدت أننا الشعب المأسوي الوحيد في هذا القرن العشرين . ما من امة على الارض تعاني ما نعاني في هذا العصر من تكالب القوى وحجم التحديات .

السبب ؟ السبب هو أن لعنة « العالم الثالث » هي بالنسبة الينا لعنة مثلثة . إننا نستغل بوصفنا من هذا العالم اليتيم ، ثم نهاجم بوصفنا مسلمين ، فهذه الايجابية التاريخية تحمل الكثير من الأخطار على الغرب ، ثم نحن نطرق أخيرا بالحصار القاتل لأننا عرب ونملك في الأبعاد الاستراتيجية العالمية الموقع المفصلي وموارد الطاقة وكتلة الاموال والخبرة البشرية المتنامية ، وكلها من « الذنوب » الخطرة التي لا تغتفر . .

في القرن الآتي مصيرنا هو الذي سيكون موضع الرهان لأن اللعب منذ الآن قائم عليه في العصر المقبل ، عصر العبيد الثاني ، أمامنا احد طريقين :

إما الخروج من الحصار وإما الموت تحت السنابك .

ما من أحد يستطيع الهرب . ما من احد يستطيع أن يقول :

« أوقفوا العالم اريد أن انزل »

ألم اقل إننا في حالة حصار ؟ □□

رَدْمُ الهوّةِ وَالخَيَارُ الصَّعبُ

قل أي نبوءة مستقبلية واسكت ، اذن تنهمر حلقة الأصدقاء جميعها حولك بالنبوءات وأحاديث النبوءات . المستقبل بما يحمل من مجهول ، مثير ، محير ، يمتلكنا ، ما من انسان لا يفكر فيه . لا يتوق لمعرفته ولو في دجل العرافين وثرثرة قارئة الفنجان .

على الرغم من أن « الرجم بالغيب » تجاوز على علم الله ، فالناس يحاولونه ، وهم يعلمون عبث المحاولة ، وقديماً كان الناس لا يأبهون للغد الدنيوي العاجل . الغد الأخروي الآجل هو الأهم . الدنيوي قبل الموت ، غيب مجهول مفتوح لارادة الله يطرح فيه جميع الاحتمالات على الأرض . أما الأخروي بعد الموت ، فمعلوم كله . انه يوم الحساب . والناس يعرفون انه يتفق كل الاتفاق مع أعمالهم في الدنيا ، فالعدل الإلهي لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

الآية في العصر الحاضر صارت معكوسة ، أضحى العالم « يخطط » ، يضع السناريوهات للمستقبل الدنيوي العاجل . نحن نضعه بأيدينا لبنة لبنة ، كما كنا دوما من قبل نضع دون أن ندري وبشكل فوضوي غير نظيم . وأما المستقبل الأخروي فهو المتروك الآن لله يدبر أمره كيف يشاء . المنظوران في الحالتين مختلفان يستندان الى أيديولوجيتين متناقضتين .

العربي ـ العدد ٣٤٢ ـ مايو (آيار) ١٩٨٧م .

أيديولوجية السكون والسلبية والهرب الى الماضي ، ودوران التاريخ في حلقة يرتبط آخرها بأولها ، والتحذير بترك الأمور لله : « لا تفكر ، الله يدبر » و :

دع المقادير تجري في أعنتها ولا تبيتن إلا خالي البال . .

وأيديولوجية الحركة والايجابية والإقدام على المستقبل ، وسير التاريخ في خط مستقيم يتقدم باستمرار ، والعمل على تغيير الشرط الانساني بواسطة الانسان نفسه .

وما التناقض هو الذي يهمنا هنا ، ولكن التواكل لم يعد يطعم خبزاً . وترك الأمور تجري في أعنتها غالباً ما ينتهي بالكوارث التي لا تعدم من يراها قادمة ويحسب حسابها بالفكر المنطقي وبالورق والقلم ! . . . . والناس اليوم ، ولو ظلوا على الانصراف لراحة البال وترك التفكير ، يتقبلون أيديولوجية التخطيط في مختلف نواحي الحياة . هذه الصيحة العالمية التي ترن في كل مكان كأجراس العيد ، ترتبط بالمنظور الآخر الى المستقبل ، منظور « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا » ! فالايمان يزداد يوماً بعد يوم بأن المستقبل أكثر شأناً من الحاضر (الذي لا وجود له في الواقع) ، ومن الماضي الطويل الذي يجره الانسان وراءه ليرى فيه كالمرآة مدى ابتعاده عن أيام الكهف الأولى وعن الوحش الكامن فيه . فهو يتجه لهذا وذاك أكثر شأناً وأخطر من أن يترك سدى ، وان التخطيط لما سوف يأتي سمة من سمات الفكر العلمي الحديث ، وشرط من شروط الحياة الحديثة .

أن نكون أو لا نكون

على أننا نمضي خطوات أخرى فنقول إن علم المستقبل قد أضحى مذهبا فكرياً كاملاً له مدارسه وعلماؤه ومهندسوه ومؤتمراته وكتبه ومخططاته . وخطوة

أخرى فنقول إن الوطن العربي على شفا انقلاب بنيوي جذري ، وخطوة ثالثة فنقول إن قضية التخطيط المستقبلي أضحت مسألة بقاء بكل معنى البقاء . « أن نكون أو لا نكون » هو الرهان العربي المقبل المتعلق بالتخطيط. ما يسمونه بالتحديات للوطن العربي ، بتنظيمها ، بتحديد قوتها ومدى خطرها ، بتوضيح أولياتها ، باعداده لمواجهتها هنا مجاله الأوسع . أعرف أن الوطن العربي اليوم ينزف اقتصادياً . لايخدعنا البترول ودخله . إننا منه أشبه بوارث يبيع قطعاً من الأراضي التي ورث لينفق . الانتاج الحقيقي « الزراعي والصناعي » ، يتضاءل . ونحن نستورد ٧٥٪ ـ ٨٠٪ من موادنا الغذائية في انتظار أن نصل لاستيراد ٩٠ أو ٩٥٪ منها عن قريب . وللخلاص لا بد من فهم معطيات النظام الاقتصادي العالمي المقبل المبني على التقنية الجديدة وإنشاء مجموعة اقتصادية عربية « ديناميكية » فعالة متجاوبة معه .

وأعرف أننا على التبعية السياسية نعتمد . كل أعمالنا ردود أفعال . وكل نظمنا تنظر ، قبل أي خطوة ، فيما إذا كانت الخطوة ترضي هذه الجهة أو تلك . وكلنا سجناء أفلاك تدور حول هذه الشمس السوداء أو تلك الحمراء . ودون الخلاص من هذه التبعية أهوال ، من بينها التعاون العربي الفعال والسيطرة على انتاج السلاح والاستناد الى قاعدة اقتصادية متينة .

وأعرف الى هذا وذاك أننا على الأمية الحضارية في مجال العلم والتقنية . لم تشرب جموعنا المباديء الأولى في هذا ولا تلك . ثورة العلم التي وصلت الى هندسة « الجينات » الوراثية بين ما وصلت ، وثورة التقنية التي أوصلت الانسان الى القمر والأفلاك ، والثورة في مجال المواد الجديدة ، وثورة « الألكترونيات » الدقيقة بما تبعها من ثورة المعلومات وثورة الاتصال ، كل هذه الثورات ما تزال تجري في كوكب آخر نحن غرباء عنه حتى الرثاء . القادة لا ينظرون الى تشجيع العلم والتقنية على أنهما قوام كل أمة في الغد ، ولكن على أنهما « ديكور » للدولة ، وإلا فلماذا لا نجد للبحث العلمي في بلادنا ما يزيد على ٠,٣٪ من الدخل القومي ونجد له ٣٪ ـ ٤٪ من الدخل أي عشرة أضعاف الى ١٢ ضعفاً في

أي أمة أخرى ؟ ولماذا ننفق ٥, ٥٪ - ٦٪ من دخلنا القومي على التسلح أي أكثر من ١٦ - ١٨ مرة مما ننفق على العلم ؟ .

وأعرف أخيراً - الى هذا - أن التنمية الشاملة إنما تبدأ بالتخطيط للخلاص . وأن هذا التخطيط يبدأ من الذات وينتهي بالذات .

عنـــد المنبـــع

لكني أريد أن أقف عند جذر هذه المتحولات كلها . عند المنبع وأقصد التخلف الثقافي . والتخطيط للخلاص من هذا التخلف . ها هنا في اعتقادي مربط العنز ومن هنا نبدأ .

ردم الهوة المتزايدة السعة والعمق إنما يبدأ بتغيير المفاهيم الأساسية التي يقوم عليها الفكر . عبثاً نصطنع « العلم » إن لم نؤمن مسبقاً انه الطريق . وإن المعرفة هي القوة كما يقول بيكون . وعبثاً نحاول الديمقراطية وما نزال ننتظر « الدكتاتور العادل » ، فلا يمكن اصطياد عصفور واحد وعلى العينين عصابة - كما يقول ماوتسي تونغ . وعبثاً نصرخ لاصلاح الاقتصاد وما يزال ثلاثة أرباع غذائنا اليومي مستورداً ، فإن الناس لا يتخلصون من البؤس بمجرد الهتاف للثورة - على حد قول ميرلو بونتي .

ولن ألح كثيراً في الوقوف عند عقبة العلم والتقنية ، إنهما الأساس في ثقافة الغد . والحديث عن العلم ومكانه الخطر في هذه الثقافة ، وعن التقنية ودورها في النقلة الحضارية ، دفع لأبواب مفتحة على مصاريعها .

إن ما نشهده اليوم من آلاء التراكم العالمي الهائل ، يضعنا بالرغم منا على أبواب عصر مختلف . لقد تغيرت صورة الكون بين لا نهايتيه الصغرى والكبرى . وانقلب التوازن العلمي والتقني القديم كماً ونوعاً وسرعة وبخاصة في « الألكترونيات » الدقيقة وتطبيقاتها ، وفي المضادات الحيوية وفي هندسة

المكونات الوراثية وفي تكييف الحياة العقلية بالعقاقير ، وفي أبحاث الذرة وتطبيقاتها ، وفي أبحاث الفضاء وتقنية الصواريخ ومركبات الفضاء وفي « الأتمتة » الذاتية ، وفي أبحاث الاتصال ، وفيما يسمى بثورة المعلومات . وامتد هذا الانقلاب كله الى ما وراء العلوم البحتة « والبيولوجية » والتطبيقية ليمس العلوم الاجتماعية والانسانية والاقتصادية . كل ذلك في مدى زمني لا يزيد على نصف قرن ! ولو افترضنا أن الانسان موجود منذ خمسين ألف سنة ، وقسمنا هذه الفترة الى أعمار متصلة كل منها خمسون سنة لكان كل هذا الذي تم من الثورة إنما تم في العمر رقم ١٠٠٠ ! ! أغريب بعد هذا أن نفكر بالمستقبل ونخطط له ؟

واذا كان الفكر المستقبلي علمياً بالضرورة . فإن هذه المقولة تعني الكثير . إنها تعني :

أولاً :

إن من يملك العلم في المستقبل ، أي يملك المعلومات وتقنية استخدامها يملك العالم .

ثانياً :

إن إقامة العلم كقوة حية نشطة في المجتمع هي جزء من مشكلة التحول من الأمية الحضارية الى التنمية الشاملة وذلك لا يكون بنقل العلم ولكن بنقل المنهج والطريقة .

ثالثـــاً :

إن تغير الثقافة العربية نوعياً ، شرط ضروري لقيام الحركة العلمية على قاعدة متينة واسعة من الفكر والفهم والاستيعاب للعصر .

رابعـــاً :

إن هذا التغير لا يكون إلا بثورة ثقافية ، أي بربط الثقافة العربية مع

العصر عن طريق العلم والتقنية . إن العلم ليس معرفة ولكنه أسلوب في الفكر ينقله من تجريد الطبيعة الى تجريبها ، ومن سكونية الوجود الى حركية الوجود ومن الغيبية الى السببية .

خامسـاً :

إن عملية كسب العالم ونقل التقنية لا تكفي . لأن هذين النشاطين ليسا ثابتين ولا كميين . إنهما في حركة دائمة متطورة التطور السريع الرهيب من جهة ، ويحتاجان الى توفر مجتمع علمي مواز يستطيع المتابعة لهما والمشاركة فيهما والإسهام في الابتكار من جهة أخرى .

سادسـاً :

إن نفقات كسب العلم ونقل التقنية ، والثورة الثقافية لمساندتهما ، تتجاوز القدرات المادية لأي دولة عربية ، وإن المستقبل للتكتلات البشرية الواسعة ، وان تغيير المسار الفكري العربي يفرض هنا التكتل المادي والبشري بغرض التوحد ، وإلا ظللنا على ترك مزاريبنا تصب في الأقنية الغربية وظللنا على الشرب من تلك الأقنية .

مقابل هذه التحديات المصيرية نلاحظ أن الهوة بين ثقافتنا التي نحيا وبين الثقافة العالمية تتسع بازدياد رهيب . قدر اتساع الهوة الاقتصادية بين الشمال والجنوب . الكتاب الاحصائي لليونسكو سنة ١٩٨٥ يكشف المؤشرات الخطرة . في البلدان النامية ـ وليست الأقطار العربية بأحسنها ـ هناك ١٢٥ باحثاً علمياً لكل مليون نسمة ، في حين تقدم البلاد الصناعية المتقدمة ثلاثة آلاف . وان نصيب البلدان النامية من عدد الباحثين العلميين لا يجاوز كثيراً ١٠٪ من المجموع ، وان ما تنفقه على البحوث والتنمية لا يشكل إلا ٦٪ من إجمالي ما ينفق عليها في المستوى العالمي ، أي أنه لا يجاوز ١٢,٥ مليار دولار من أصل ٢٠٨ مليارات دولار !

في حين تنفق الدول النامية على « أحقادها » الصغيرة التي تخلقها لها الدول الكبرى وتلهيها بها ١٥٠ ملياراً ثمناً للأسلحة القديمة ، ولإفراغ مخازن هذه الدول منها لاستقبال أسلحة أحدث .

إن اقتصاد الغد ، ومؤشراته ظاهرة في اقتصاد اليوم . وسوف يقوم كثقافة الغد سواء بسواء على التقنية الحديثة التي تتطلب انتاجاً كبيراً وأسواقاً كبيرة . اقتصاد الخمسينيات انتهى والتحدي لم يعد قضية علمية - ثقافية فقط ، ولا قضية سياسية ، ولكنه مسألة « بقاء » .

حاجـــات الغـــد

من هنا صار التفكير في المستقبل العربي ككل يفرض نفسه فرضاً ، وإذا لم نشأ أن ندخل في التخطيط الشامل اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً ، وفضلنا أن نتركه لأهله واختصاصييه ، فان ذلك لا يمنعنا من التفكير في الوسائل وفي الأسس الأولى للتحرك . المخططون لا يمكن أن ينطلقوا من فراغ ، ولا بد من التخطيط لوسائل الوصول بقدر التخطيط لأهداف الوصول .

كما لا بد من النظر في الأسباب والأهداف على ضوء التغيرات المستقبلية المتلاحقة وحاجات الغد . فهل ترانا نستطيع اقتراح بعض الخطوط ؟ قد يكون بعضها معادا نضعه لاكمال الصورة ، أما بعضها الآخر فمشتق من رؤية للغد مرعبة . وهل يجدي الرعب وحده ؟ إننا أمام أعمال جبارة أولية من ملامحها :

١) سد منابع الأمية : ليس بالمعنى الألفبائي ولكن بالمعنى الحضاري أيضاً . أمية الوطن العربي تضعه في أسفل السلم . إنه يكاد يكون آخر مناطق العالم تحرراً منها على الرغم من كل الجهود التي تبذل . وعلى الرغم من التزايد المادي في الإنفاق ، والتزايد الانتاجي في الأعداد المتعلمة ، تصل الأمية في الوطن العربي الى ٥٤,٦٪ في حين أنها في آسيا وأمريكا اللاتينية أكثر انخفاضاً .

فهل نأمل في تقدم الى الغد ، وقيود الأمة كتل من الرصاص في الأرجل ، والمحيط هو المحيط ؟

٢) اتخاذ جميع السبل لتكثيف الثروة البشرية العلمية وربطها لا بالأرض فقط ، ولكن بالثروة المادية للأرض وبالمشاكل الاقليمية المتوطنة . لا بد من اتساع القاعدة العلمية التقنية وبمختلف الدرجات قبل انتظار النبوغ في بعض ميادينها . ثروتنا البشرية مهدورة وما يتفتح منها هو العصافير المهاجرة

٣) دعم خبرات الترجمة وتقنية الترجمة ، بلى ، إنها لم تعد عملاً يقوم به كل من عرف القفز بين لغة وأخرى . لقد صارت علماً وقواعد وفروعاً وأنواعاً . وصار لكل علم لغة ، ولكل ترجمة (من فورية وأدبية وشعرية وطبية وفيزيائية وسياسية . . . .) مختصوها وتقنيتها ، والعاملون في الترجمة سيكونون جزءاً متمماً لعلماء المستقبل . إنك لا تستطيع الاعتماد على اللغة الأجنبية وحدها . لا يتفاعل الفكر معك بعمق ووضوح إلا في لغتك . لغتك أنت . الترجمة : هذا « العلم المهمل » يجب أن تدفع به جامعاتنا الى المقدمة بقوة ، تنظيماً وتقنية واختصاصاً . إنه الجسر الوحيد الى الابداع .

٤) الاتجاه الى تقنية المعلومات . لقد وصلت ثورة المعلومات الحد الذي لا بد معه من التعامل المباشر مع تقنياتها المتقدمة . وبلادنا تصنف ضمن البلاد الجائعة معلوماتيا . لم يعد الكتاب كافياً ولا المكتبة . « المعلومة » أضحت رأسمال الغد . وطرائق الحصول على المعلومات أضحت سبيل العلم الأول . نظم المعلومات هي العلم المساند لكل العلوم في المستقبل ، والعلم الذي يسد الفجوات القائمة بين العلوم . تقنية المعلومات تقيم الحوار والتواصل بين مختلف قطاعات العلوم في انسيابية كاملة وبلغات أرقى وأيسر . ومعالجة أقدر وأسرع ، وذاكرة أضخم وأذكى ، واتصال أوسع وأغنى . كل ذلك من أجل محاكاة بعض خصائص الذهن الانساني . وعمل بنوك المعلومات ، إنها تدرس خواص المعلومات ومتغيراتها والعوامل التي تحكم تدفقها ووسائل تجهيزها

للافادة القصوى منها ، كما تشمل انتاج المعلومات وبثها وتجميعها ومعالجتها التحليلية التركيبية وتنظيمها واختزانها واسترجاعها وتفسيرها ثم بثها من جديد . إنه علم لا يتصل بمختلف العلوم من طبيعية « وبيولوجية » وانسانية واجتماعية فحسب ، ولكنه يقوم أيضاً على الرياضيات والمنطق وعلم اللغة وعلم النفس وتقنية الحاسبات « الألكترونية » وبحوث العمليات وفنون الطباعة والاتصالات و . . . أخيراً علم المكتبات والادارة . العالم كله يتحول من المجتمع الصناعي الى المجتمع المعلوماتي ، أفلا يستحق هذا كله الإعداد له ؟

٥) الاتجاه الى تقنية سوف تأتينا عن طريق وسائل الاتصال . ولا بد من السيطرة على عمليات الاتصال والاعلام لتكوين القاعدة الثقافية التحتية الضرورية ، ولمساندة العملية العلمية . والرسالة الاعلامية هي النقطة المركزية في عملية الاعلام . ودورها في التنمية الثقافية إنما يحدده مقدار ما تحمل من المضمون الثقافي المستقبلي . والسيطرة على وسائل الاتصال من الأقمار الصناعية والشبكات الفضائية الى أنظمة البث الاذاعي والتلفازي « والكابلوفيزيوني » وما سوف يستحدث منها بالاضافة الى الوسائل التقليدية من صحيفة وكتاب ووكالات أنباء ومسارح وقاعات موسيقا ومحاضرة ومطابع . . . كل ذلك يقتضي وجود الأجهزة البشرية التقنية بجوارها ، ووجود الانتاج الجذاب الآسر الذي يبعد منافسة وسائل الاتصال الأخرى ، ويوقف تدفقها الوحيد الطرف حتى الآن . بدون هذه الأجهزة ، وذلك الانتاج ، تكون الثورة الثقافية النوعية التي نرجو عبثاً في عبث . ما نبنيه في سنة يهدمه السيل في لحظات ! . . . و

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه   إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم ؟

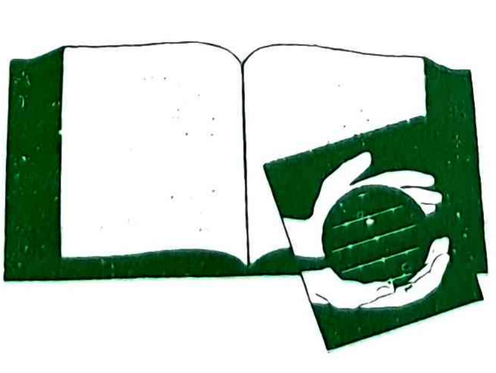
إنها تدور بالفعل !

لقد طال الحديث وما ذكرنا إلا بعض الخطوات الأولية الضرورية للبدء بأي تخطيط للغد . ولكنها ملامح نقتطفها على الطريق . ثورة العلم والتقنية

وضعتنا على الرغم منا أمام التحدي الجذري . الأرض كلها تنقلب تحت أرجلنا وتدور ونحن لا نشعر . هل تشعر بدوران الأرض ؟ ولكنها تدور بالفعل ، وتدور معها قوى العلم الدوران الرهيب . ولا سبيل إلا إدخال الرأس في هذا الدوران لنستطيع اجتياز عتبة القرن الواحد والعشرين ـ وهي جد قريبة ـ دون أن يصيبنا الدوار العاصف ونسقط على الهوامش البعيدة .

ليس من عودة الى عقلية التواكل القديم . فقد جعل الله لكل شيء سبباً . وقال : « وقُلِ اعْمَلُوا . . » ، كما قال : « فإذا عَزَمْتَ فتوكّلْ على الله » ، وقال : « نِعْمَ أَجْرُ العاملين الذين صَبَرُوا وعلى ربهم يتوكّلُون » . ولم يقل أبدا تواكلوا وأنا الكفيل بكم . ردم الهوة هو الخيار الوحيد ، وإن يكن الخيار الصعب . ولكن هل من سبيل غيره ؟

هل من سبيل ؟ □□



ثمن الحضارة الغربية

هذه المعجزة الغربية قامت من الأساس على دماء وأقوات الشعوب الأخرى !

قال له صاحبه وهو يحاوره :

ـ مازلت أذكر وأنا أناقش رسالتي للدكتوراة كيف احمرت آذان اثنين من أعضاء لجنة المناقشة وهما يرفضان أن أصف بالبربرية غزو الفرنجة الصليبيين للقدس وذبحهم سبعين ألفا فيها . « إنه كلام غير علمي » كذلك قالا ، وقلت : قبل أن أجيب ، أود أن أسأل ماذا تسمون أنتم في كتبكم العلمية بل والمدرسية أيضا فتح الهانز المغول وزعيمهم آتيلا لأوروبا ؟ والزحف الجرماني على الامبراطورية الرومانية ؟ وبماذا تنعتون أحيانا ، وفي كتب الصغار ، دخول العرب الى اسبانيا ؟ ومعركة بواتييه (بلاط الشهداء) ؟

من هذه المصادر تعلمت الكلمة . انتم في الغرب تعودتم زمنا طويلا أن تكتبوا التاريخ وحدكم وأن يقرأ الآخرون . بعد الآن سوف يكتب الآخرون بدورهم التاريخ ، ومن وجهات نظرهم أيضا وعليكم أن تقرأوا وجهاً في المرآة لما تروه بعد ، وسوف يحمل الآخرون هذه المرآة ، عفن الماضي كله ، سوف يوضع ذات يوم قريب في سلالكم بدل الزهور .

العربي العدد ٢٧٧ ـ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٨١م .

وقال لصاحبه : هب هذا الذي تقول كان حقا من الحق ، ولكن التاريخ إنما يكتبه الأقوياء ، ويكتبه المنتصرون ، وستظل الحضارة الغربية تغطى حتى جرائمها بهذا الذي منحته للانسان من الأبعاد الفكرية والكونية .

وقال له صاحبه : ولكن الثمن الذى دفع للوصول الى هذه الأبعاد كان رهيبا . هل تعرف فداحة هذا الثمن ؟ ولقد دفعه العالم كله . . عدا أوروبا نفسها ! إن الصورة الأخرى لهذه الحضارة الغربية لمّا تكتب بعد .

الوجه الآخر لهذه الميدالية الماسية لم يفتضح . التماعها الذي يخطف الأبصار لمّا يسمح بعد برؤية نزيف الدم والأشلاء على الجانب الآخر .

وقال لصاحبه : الآن أيقنت أن للمأسوف على نبالته دون كيشوت سلالة ماتزال تعيش وتحارب طواحين الهواء . أتريد أن أنسى آلاء هذه الحضارة وما قدمت للانسان ؟ هل تستطيع أن تشد عيني الى الماضي وأخطاء الماضي فلا أرى وصول الانسان الى القمر ؟

وقال له صاحبه : ما أردت أن أقول إلا أن لهذه الحقيقة وجها آخر مظلما ، كالوجه الآخر للقمر ، واننا شركاء أصيلون في بناء هذه الحضارة الغربية لا من خلال التراث فحسب ، ولكن من خلال جهودنا نحن أيضا ، نصيبنا فيها دفعناه من شراييننا . ويجب أن نعي هذه الحقيقة الوعي الكامل ، ألا نمل تكرارها . أن تكون الألف باء لأولادنا أيضا . لا يهمني تاريخ هذه الحضارة بحد ذاتها ، ولكن



تاريخها معنا وتاريخنا معها ، تاريخ العلاقات الوحشية التي أقامتها مع الشعوب المستضعفة والتي قامت بها « المعجزة الغربية الحاضرة . . » . .

أأحدثك حديث هذه « المعجزة » وذلك الثمن ؟

مرحلة الإبادة

إنها ملحمة تمت على ثلاث مراحل . وكل مرحلة منها كانت كارثة إنسانية ، جاءت أولا مرحلة الإبادة الجماعية والرقيق الأسود والتوسع الأخطبوطي ، ثم كانت مرحلة النهب العالمي ، وأخيرا جاءت المرحلة الأخيرة التي نعيش : مرحلة تنمية التخلف !

١ ـ مرحلة الإبادة والرقيق : بدأت الملحمة أول ما بدأت بأداتين أخذتها أوروبا الغربية عن العرب : البوصلة والبارود ، البوصلة صارت أساس السفينة الضخمة المتعددة الأشرعة وفتحت الباب للقوة البحرية والانتقال الى البعيد . والبارود صار أداة القتل عن بعد بامتياز ، ثم وضع كولومبوس لأشرعته التي أبحرت في بحر الظلمات ، وللاشرعة الغربية التي جاءت بعده قانون العمل : الزحف الى الغرب لتطويق الشرق ونهبه ! والشرق كان الغنى والذهب ، كان العراقة وكان « الآخر » المحسود ! ومايزال الانتقال الى البعيد والقتل عن بعد ونهب الآخر هي « أهداف » هذا الغرب الى اليوم : وفي سبيلها دمرت ثلاث قارات . أربعة قرون ظل يدمرها ثم يدمر . فأما الأولى فمسح عن وجهها كل من عليها من البشر،عريهم الأحمر المسلح بالقوس والنشاب كان يحرقه التقى الدموى لذوي العيون الزرق والبشرة البيضاء حملة البنادق في يد والكتاب المقدس في الأخرى . . . وأما القارة الثانية فاستعبد كل من عليها من البشر . انهم مجرد زنوج ! هل لهم من روح ؟ ذلك موضع شك . اذن فهم لا يستحقون أكثر من أن يكونوا قوافل من العبيد !! وأما القارة الثالثة فبشر بكثرة الدود

وتكالب الدود . لا يصلحون لغير الاستغلال والموت ، فليكونوا للاستغلال والموت !

وهكذا ذبح الغرب أربعين مليون انسان في الأولى ، واسترق مائة مليون عبد من الثانية ، وامتص دماء خمسمائة مليون في الثالثة . .

في القارة الأولى ـ أمريكا ـ نزل الأوروبي مفترسا ، كل جشع الدنيا في عينيه . السكان الأولون الذين أطلق عليهم الأوروبي اسم الهنود الحمر استقبلوه على أنه « الإلٰه الأبيض » . لكنهم سرعان ما أدركوا أنه شيطان النار ! وانه التنين المفترس ذو الرؤوس السبعة !

كانت أمريكا قبل كولومبوس دنيا كاملة من الحضارات : أنظمة للحكم وطبقات اجتماعية وملوك وجيوش وقلاع وأسوار وطرق وقصور ذهبية الأبواب ومدن تفتن الأعين ، وفنون تغالب الخيال في النحت والرسم ، وكتابة وحساب وهندسة ومعارف فلكية دقيقة وطب وعلاج ، وحرف وزراعة تتسلق السفوح وشبكات محيرة من أقنية الري . ومصوغات أسطورية الجمال وتعدين للذهب والفضة والنحاس وتاريخ من العلاقات الانسانية ومن الحروب والامبراطوريات ومراسم الاحتفال وطقوس الدين والكهنوت . الهندي الذي تقدمه لنا أفلام « الكاوبوي » والزحف نحو الغرب ، عينا وحشية حمراء وقسمات نحاسية متقلصة بالحقد وسكينا غادرة تشق الخيمة البدائية ، هذا الهندي هو كذبة الاعلام الأمريكي . إنه لم يكن موجودا إلا على الأطراف البعيدة لتلك الحضارات . الأرض الأمريكية من الشمال حتى أقصى الجنوب كانت تتوزعها حضارات الأزتيك ذات المدن الخرافية في المكسيك والمايا في كولومبيا والتانيو في جزر الانتيل ومملكة الانكا ، ربة الشموس الذهبية ، في البيرو والتوبيناما في البرازيل والفواراني في الباراغواي والاراوكانيين في شيلي، ولكل حضارة طريق .

عندما حل كولومبوس

وفجأة في القرن السادس عشر وقعت الكارثة بعد أن أطل عليها كولومبوس . . انطفأت هذه الحضارات كلها ، الواحدة اثر الأخرى بضربات شيطانية ماحقة . اختنقت بدماء أصحابها وذهبهم . جنون الذهب الذي أصاب الغزاة افترس الجنس الهندي وأباد حتى ظلال البيوت . . كورتيز ، دي كاسادا ، بيسارو ازيفيدو ، كاوفاخال ماردجيال الاندزو « عدو الجنس البشري » كما كان يحب أن يدعى . . . هي أسماء من الجحيم ستظل الى الأبد مجاورة لاسم جنكيز خان ! كتاب (تدمير الهنود) الذي صار يعرف باسم القصة السوداء « حكى فيه صاحبه (لاس كاساس) بعض جرائمهم المرعبة ، وقد ترجم الى مختلف اللغات ولكن دون أي صدى .

وذلت الفلول الباقية من الهنود ، انحلت اعمدتهم الفقرية أمام البارود الجبار والسنابك . ثم جاء الغزاة الى القارة الجديدة بالجدري وبالأمراض الزهرية أيضا فحصدت الهنود بالألوف . وسكن الأسى الأبدى قسمات أحفادهم المبعثرين حتى اليوم . بعد قرن وبعض القرن كان الهندي يكاد ينقرض في قارته الكبرى . وورث الأوروبي الأرض وما عليها .

من أجل استغلال هذه الأرض وقعت القارة الثانية : أفريقيا في الكارثة . تسلطت الأساطيل الأوروبية على الشواطيء الافريقية تصطاد منها الزنوج ، ليكونوا آلات الحرث والتعدين والخدمات في أمريكا . بدورها ، لم تكن افريقيا التي صاروا يدعونها بالسوداء ، بلد الطبل المبحوح في الغابة والوجه الملطخ بالأصباغ والتشنج الهستيري حول الرماح ، والليل يتلوى كأنه الثعابين العطشى . الزنجي وحش الغابة البدائي كذبة أخرى من أكاذيب الغرب . أفريقيا القرن السادس والسابع عشر كانت بلدا للحضارة الاسلامية والممالك الواسعة والثقافة والانتاج . بعد امبراطورية غانة الشاسعة التي كانت تقوم على قاعدة من الذهب هناك ، جاءت امبراطورية الماندنغو الاسلامية في مالي .

عاصمتها تمبكتو ، كانت تزدحم بالعلماء والمساجد والمواكب والقصور والثروات والذهب والنحاس ، وفي أراضيها القطن والزراعات وعلى طرقاتها القوافل . وجاءت كذلك امبراطورية سنغاي ، الدولة النيجيرية بملوكها وبجيشها المنظم وشبكات الري الزراعي والفنون المتقدمة والصيد ونظم الحرب والسلم والمجتمع .

وفعلت الأساطيل الأوروبية بهذه البنى الحضارية فعل الزلازل . لم تسلبها قواها الحية فقط ، لم تأكل كالأغوال ابناءها فترمي تسعة أعشارهم في البحر موتى وترمي الباقي للسياط وراء البحر ، ولكنها أيضا خلخلت بناها الاجتماعية حتى الأعماق واصابتها بالركود التقني وشوهت نظامها الانتاجي ، ودمرت العلاقات الاقتصادية فيها . وحولتها من الانتاج الى اصطياد البشر ، بعضهم لبعض والى القتال الوحشي . بينما صارت النخاسة ، بالمقابل ، تجارة أوروبية كبرى من أربح التجارات ، لها الأساطيل القوية والشركات الضخمة ، ولها الصيادون والأسواق ، ومرافيء التصدير في ليفربول وبوردو ولشبونة ، ونزفت القارة الأفريقية . نزفت حتى الموت .

الذهب الأمريكي الافريقي والدم الهندي الزنجي كانا نهري الطاقة المجانية والخرافية للغرب الأوروبي . ولم يسمحا فقط ببناء قوته البحرية والاقتصادية الضخمة ، ولكنهما سمحا له أيضا بأن يمد علاقات الاخطبوط الى شواطيء آسيا كلها ، وان يقيم عليها بالقوة نقاط الدخول ومراكز الاتصال والامتصاص . . وحين انتهت هذه المرحلة ، بعد حوالي قرنين ، كانت أوروبا سيدة البحار والنظام التجاري في العالم كله . .

مرحلة النهب العالمي

٢ ـ وجاءت بعد ذلك مرحلة النهب العالمي . إنهم يسمونها مرحلة الاستعمار من قبيل تسمية الأضداد . هل نحن في حاجة لأن نصوغ أهجية

جديدة في فضح الاستعمار بعد كل الذي عرفته الشعوب من الآلة الجهنمية ؟ كان التنين الغربي قد بلغ من القوة الدرجة التي لم يعد في العالم من قوة تقف في وجهه ، وقد تزايد جشعه في الوقت نفسه أضعاف ما تزايدت قوته ، لم تعد من ثروة تشبعه ، وبينما كان ينشر على موائده الأوروبية أفكار التقدم والحرية والاخوة والمساواة ، كان نظام التحرك الاستعماري يتوطد ، ويتوطد معه نظام النهب العالمي .

ثالوث المبشر ـ الجندي ـ التاجر ، كان أداة التحرك . يدخل المبشر ليتعرف الى الأرض ويلحق به الجندي ليدمر كل مقاومة ، ثم يصل التاجر (ممثلا بالشركات الكبرى) لتبدأ عملية « ضخ » الخيرات الى أوروبا . تكرر ذلك في كل مكان ، في الصين كما في موزامبيق وغانة وفي شواطيء الشام كما في الجزائر والخليج .

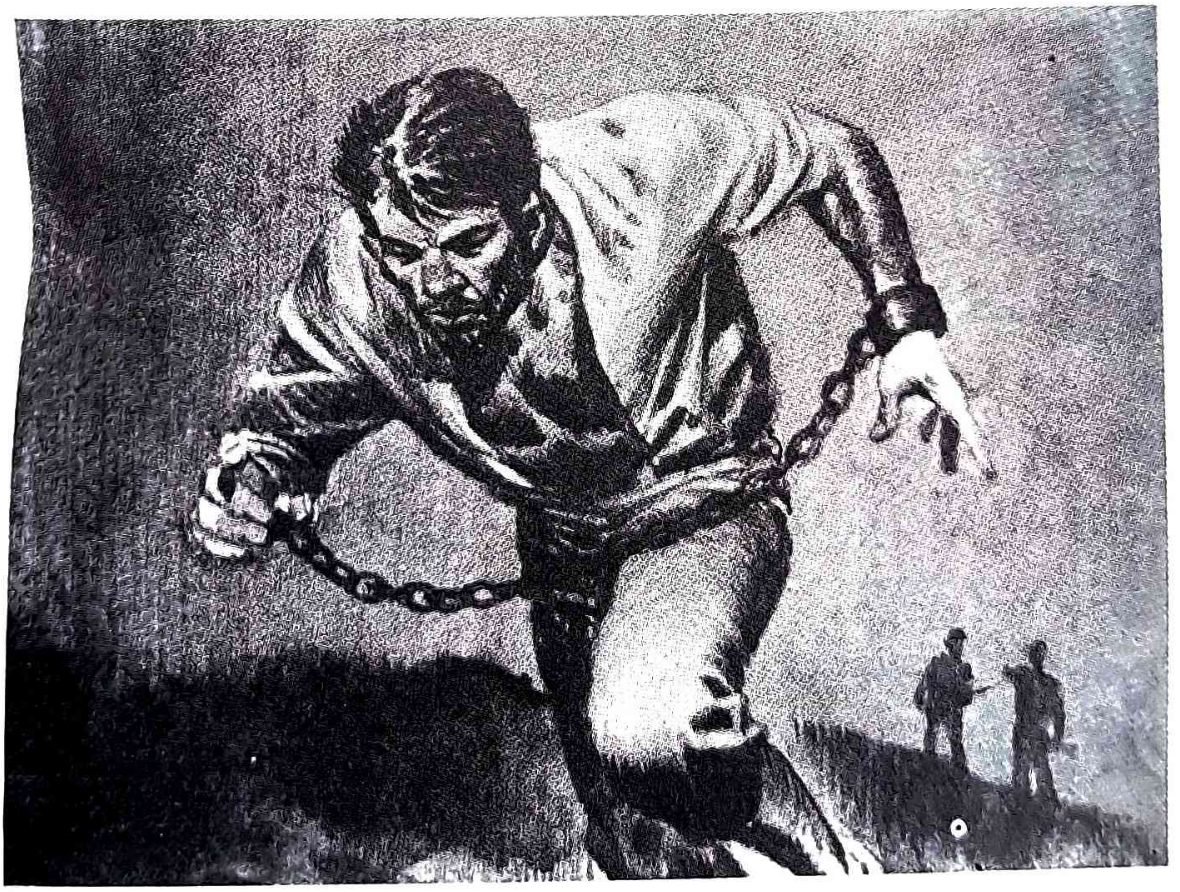
وتوطد نظام النهب باقامة الاقتصاد الخادم . الاقتصاد الذي يقدم فقط المادة الخام للمصانع الغربية على حساب الانتاج الغذائي ويستغل الأيدى العاملة المحلية بالسخرة والسياط بدل نقلها عبيدا الى ماوراء البحر . إن ١١٤ كم من السكة الحديدية المتجهة من برازافيل الى النقطة السوداء احتاجات كي تتم الى ١٧ ألف جثة !! أما باقي الدماء فتكفلت السوق الاستهلاكية المفروضة فرضا على أهل البلاد بامتصاصها . وهل ننسى حرب الأفيون في الصين ؟ أو الاستهلاك الاجباري للنبيذ في الهند الصينية ؟

وهكذا بينما كان الانتاج الاستعماري من الزيت أو الفستق أو القطن أو الذهب والماس يباع أحيانا بعشرة أضعاف سعر الشراء أو بعشرات الأضعاف ، وبينما كان انتاج الفستق مثلا (لمصلحة شركات الزيت) يكتسح السنغال ليبلغ ٨٥٪ من انتاج البلاد وكانت الكروم والخمور (رغم اسلام الجزائر) تصبح موردها الأول ، والقطن في الهند ومصر يدير مصانع مانشيستر ، كان أهل البلاد يستوردون الطعام أو يتساقطون على دروب الجوع .

وبينما كانت الحرف اليدوية تموت ، واقتصاد الغذاء يدمر ، كان شيء

أخطر من هذا وذاك يتم على المستوى الثقافي وهو تدمير الهوية الحضارية لهذه الشعوب . هو « التغريب » إلغاء اللغة القومية واحلال الاستعمارية محلها ، واستغلال الجهل الديني والإزراء بالحضارة المحلية وقيمها ونقلها الى المتاحف الاوروبية طرفاً ودلائل تخلف .

وقبل ذلك كله أو فوق ذلك كله كان توجيه التربية من أجل التخلف . التعليم كان هدفه تخريج الحد الأدنى من المدجنين ليكونوا الجهاز المحلي للمصالح الاستعمارية . بعد أربعة قرون من الاستعمار الافريقي الآسيوي ظلت نسبة الأمية في القارتين تزيد على ٨٦٪ . دخلت فرنسا الى مدغشقر في القرن السادس عشر وفيها ١٤٠ ألف طفل في التعليم ، وخرجت منها سنة ١٩٥٠ وفيها ١٠٤ آلاف ! في افريقية الغربية الفرنسية التي تضم ١٥ مليونا من السكان لم يكن عدد الطلاب سنة ١٩٣٨ يجاوز سبعين ألفا أي نصفا في المائة من السكان ! في نيجيريا وكينيا كانت نفقات التربية سنة ١٩٣٥ تبلغ ٤٪ و ٣٪ فقط



من الميزانية العامة . وقد خرجت البرتغال من موزامبيق بعد ٤٠٠ سنة من الاحتلال وليس فيها طبيب موزامبيقي واحد !!

خلال ذلك كانت الأساطيل الغربية المتزايدة القوة والعدد ، تسوق كالاقنية الجهنمية دماء القارات الثلاث وخيراتها الى أوروبا لتزيد في قواها التقنية والحربية وتمنحها التفوق الساحق ، ومع تكون البنى الرأسمالية الضخمة كان الفائض الحضاري المجاني يتراكم في الغرب في حلقة شيطانية لا تنتهي : فتزايد القوة الغربية كان يؤدي الى تزايد الاستغلال ، وتزايد الاستغلال يؤدي الى المزيد من الافقار ، والتخلف في المستعمرات . ومزيد من الأفقار يعود فيؤدي الى تزايد القوة الغربية من جديد .

بهذا الفائض الحضاري المجاني والمتزايد تكونت مجموعة من التنانين الرأسمالية الوحشية ، هي عناوين القوى المحركة الأوروبية . أسماء باركليس ، روتشيلد، ينسييه ،والماس ، لوبيدز .. انما تجمعت ثرواتها الاسطورية من أصحاب الجلود السوداء والسمراء والصفراء . الأوروبيون الذين نزلوا أمريكا الشمالية مارسوا النهب نفسه ضد الاخلاط البشرية التي نزلت أمريكا الجنوبية ، وانضموا الى الغرب المفترس ، بينما انضم الجنوبيون مرغمين الى العالم الثالث ... بترولهم ، نحاسهم ، قصديرهم ، فضتهم ، نتراتهم ، هي التي حكمت ـ كما حكمت علينا ـ بالتخلف ..

أخيرا : تنمية التخلف

٣ ـ وأخيرا جاءت المرحلة الثالثة ، مرحلة تنمية التخلف ، هذه المرحلة هي الواقع الذي نعيش اليوم . وهل يحتاج هذا الواقع الى النبش ؟ الى البحث في الملفات ؟ الحلقة الشيطانية التي حسب الكثيرون أنها كفت عن الدوران في أعقاب الحرب العالمية الثانية ومع بزوغ الاستقلالات ، تدور اليوم بأقسى عنفها . تطحن العلاقات الانسانية بقيادة التنين الامريكي ، ومن خلال

الكارتلات العالمية المتعددة الجنسية . القوى التقنية والنووية التي تفجرت بين أيدي الغرب تستخدم اليوم بكامل طاقاتها لا لتطويق العالم الثالث ونهبه فقط ولكن لتنمية التخلف فيه . بلى ، لتنمية التخلف . وللتحكم في الشعوب عن طريق تكويناتها الضعيفة وعن طريق الرغيف .

إذ أن الرغيف هو الصاروخ المدمر في الغد .

لاأريد أن أذكّر هنا بحوار الطرشان بين الشمال والجنوب ، وحكاية الدول المتقدمة والنامية وزيادة فقر الفقراء وغنى الأغنياء . الحكاية معروفة لكن بعض الملامح والأرقام قد تفجر مأساتها :

*كل قوى الدنيا اثيرت ضد العرب حين ارتفعت أسعار البترول سنة ١٩٧٤ استكثر الغرب أن يزداد الدخل القومي لبعض دول العالم الثالث . ومع ذلك فان الدخل البترولي العربي كله لا يساوي الانتاج القومي لايطاليا وحدها . وثلاثة أرباع عائداته إنما تعود مرة أخرى الى المؤسسات الغربية إما لتسديد الاستهلاك وإما ودائع أبدية . . الله أعلم بمصيرها .

ودعونا من البترول ومن كارتلاته المفضوحة ولنأخذ في ذكر بعض الملامح الأخرى .

* شركة Exxon هي أقوى من أي بلد في العالم الثالث (عدا الهند والمكسيك والبرازيل) . إن ميزانيتها كانت سنة ١٩٧٤ تبلغ ٤٤ مليار دولار وهي اليوم ضعف هذا الرقم .

* شركة جنرال موتورز ميزانيتها كانت تعادل ٣٢ مليار دولار قبل سبع سنوات وهي اليوم ٥٨ مليارا .

* شركة نستلة . أرقام ميزانيتها تزيد على الانتاج القومي لمعظم دول أفريقيا ، وقد بلغت في السنة الماضية قرابة ١١ مليار دولار .

مقابل ذلك يعود الى منتجي الموز ٦٪ من أثمان بيعه ، والى منتجي الشاي ١٠٪ والى منتجي الكاكاو ١٣٪ والى منتجى القهوة ٤٪ والى منتجي البترول ١١٪ .

حتى المنظمات الدولية تتحالف مع القوى الغربية ضد انسان العالم الثالث :

* صندوق النقد الدولي يضم ١٢٣ عضوا ، ويسيطر ٢٣ بلدا صناعيا على ٦٦٪ من أصواته .

* البنك الدولي يضم ١٤١ عضوا ويتحكم ٢٢ بلدا صناعيا بـ ٢ , ٦٦٪ من أصواته . ومع أن ثلثي سكان العالم الثالث ريفيون فان هذا البنك لم يدفع في السبعينيات سوى ١٥٪ من قروضه للزراعة !

ويتحدثون عن معونات الدول المتقدمة للدول المتخلفة . . . إن ٧٣٪ من المعونات التي قدمت للعالم الثالث في السبعينيات كانت تعود الى أصحابها في سنة دفعها نفسها .

النهب المزمن القديم لا يستمر فقط ولكنه يزداد ، وتضاف إليه الآن عمليات أخرى من التدمير لهذا العالم المنكوب :

- امتصاص خيراته البشرية الناشئة لئلا تتكون منها قاعدة تنموية قوية .
- ربطه بعجلة الاستهلاك ليكون أكثر تأثرا بتهديد الجوع .
- اثارة جميع عوامل التمزق الاجتماعي والديني واللغوى والسياسي والاقتصادي في المجتمعات النامية لتكون أضعف من أن تستغل خيراتها أو ترفض الخنوع . .

إنها التنمية للبلاد النامية ولكن على الطريقة الغربية ، تنمية التخلف .

* * *

هذا ما قال له صاحبه وهو يحاوره . .

هل كان هذا الحديث حقا بينه وبين صاحبه ؟ أم كان من الحديث الأليم مع الذات حول البشاعة البشرية ؟ أم نظرة تحد الى الشمس من خلال النظارة السوداء ؟ أم مجرد دعوة لإقامة التاريخ على قدميه والنظر الى الحقيقة من الجانبين ؟

لست أدري ! □□



الأمن الثقافي : من يحميه ؟

يقول ابن الأثير في الغزو التتري الذي دهم الناس في هذا الشرق الاسلامي سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م : « .. وسمعت من بعض أهلها أن رجلاً من (التتر) دخل درباً فيه مائة رجل فما زال يقتلهم واحداً واحداً ، حتى أفناهم ولم يمد أحد يده إليه بسوء . ووضعت الذلة على الناس فلا يدفعون عن أنفسهم قليلاً ولا كثيراً ... نعوذ بالله من الخذلان ! ! ! » .

الأطروحات في السوق حول « الأمن » تكاد تصبح ـ أو هي أصبحت ـ صرخة العصر . إنهم يتحدثون عن « الأمن » كما لو كان المقابل العملي للوجود الانساني المهدد . كما لو كان الوجه الآخر للحرية الانسانية ، أو الصيغة الجديدة لحقوق الانسان . إيقاع الخوف يتصاعد في الصدور كما لم يتصاعد في أي عصر مضى . يتصاعد ، يزداد ، يصخب ولا إيقاع الطبول الوحشية في الغابة ، فالإنسان في لهاث وراء الأمن ، وراء الطمأنينة ، وراء مرفأ السلامة ، هذه الكرة السابحة حيث لا تدري ، والتي أخذ يأبق منها أهلها الى الفضاء لأول مرة ـ أخذت تبحث عن مرفأ .. وأغمض جفنيك وتذكر : كم مرة يحدثونك عن الأمن كل يوم ؟ .

العربي ـ العدد ٢٧٨ ـ يناير (كانون ثاني) ١٩٨٢ م .

دعك بالطبع من مجلس (الأمن) ، الأمن هناك شيء آخر . إنه كومة للشيطان تمثلها القوى الكبرى بعضها أمام بعض . مقبرة تدفن فيها تلك القوى بالتناوب آثامها ضد الانسانية ، تفرق صرخات المعذبين في الأرض ، تمنح الشرعية لجرائمها وتضحك ، ولكن تذكر مجموعة « الأمنات » الأخرى التي يملأ بعضها الأحاديث السياسية والعسكرية من نوع « أمن الخليج » « وأمن المحيط الهندي » «أمن أوروبا » « والأمن العالمي » « وأمن اسرائيل » ويملأ بعضها الآخر أحاديث أهل التنمية والعلوم الاجتماعية والاقتصادية من مثل « الأمن الغذائي والنفسي والقومي والصحي » . تذكر هل تراهم حدثوك ولو مرة واحدة بين كل هذه « الأمنات » عن « الأمن الثقافي » ؟ عن حفظ الهوية الحضارية للإنسان ؟ ومع ذلك فإن هذا الأمن قد يكون ـ مع الأمن الغذائي ـ صرختي وصرختك عن قريب ، وصرخة أولادنا في الغد ، صرخة المستقبل الإنساني ! .

غوائل كونيـــة

صحيح أن غوائل كونية تتجمع نذرها هنا وهناك منذ الخمسينيات . تهديدات جديدة للانسان لم تكن من قبل في الحسبان أخذت تبرز في الآفاق ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين ، وهي تتعقد في التكوين وتزداد في الوقت نفسه قوة في السيطرة والخطر على المصير الانساني : نضوب الطاقة السريع والمتوقع في احتياطي البترول مثلاً ، وتلوث البيئة ، وانهيار التوازنات بسبب الثورة التقنية ، هي أخطر على الدول الصناعية من قنابلها الذرية والنيوترونية ، كليمنصو منذ أكثر من ستين سنة قال : « بعد الآن ستكون نقطة النفط لدى الأمم والشعوب بثمن نقطة الدم » وبالمقابل فان الانفجار السكاني ، وزحف الصحراء ، وتزايد الجوع ، أغوال تفترس بدورها العالم النامي ، وتدمر العلاقة بين الانسان والبيئة التي يسكنها ، وتمزق البنى الاجتماعية الهيكلية

المستقرة . ثمة ضغط بشري متزايد من كل ناحية على طبيعة الأرض التي نعيش عليها ، وثمة تهديد عنيف للعلاقة الوطيدة التي كانت على الدوام مستقرة رضية بين الانسان وبين الطبيعة ذاتها ، ثمة عملية تدمير متواصلة للموارد البشرية بسبب سوء الاستغلال واضطراب التوازنات الطبيعية . ونتيجة لكل ذلك فإن كلمة « الأمن القومي » التي ترتبط عادة في الأذهان بصراعات القوى ، وبالتوازنات الاستراتيجية ، وبالأحداث العسكرية ، والقواعد ، والغزو الأجنبي ، وبركض الأساطيل قد اتسعت دائرتها في الضمير الانساني . الرعب الكياني ، قد تجاوز بها تلك الحدود الضيقة ، ليدخل على « الأمن » معنى الموقف المصيري الشامل . لقد جعله يتضمن ضرورة المحافظة على نظام مستقر للحضارة الانسانية .

صحيح كل هذا ، ولست انقص من وزنه الانساني مثقال ذرة ، إلا أن القلق « الأمني » كان ـ ولا زال ـ ينصب دوماً على المادة . على جانب الجسد من الانسان ، مع أن الحكمة الانجيلية القديمة ما تزال تحتفظ بقيمتها ومصداقيتها : « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » .

ومن جهة أخرى فان « خبراءنا » الفنيين ، في ركضهم وراء الشعارات العالمية والأطروحات الفضفاضة وقضايا التلوث والبيئة والطاقة ، يذكرون ـ كما يبدو ـ كل شيء إلا أنفسهم . تأخذهم دوامة التيارات غمرة بعد غمرة ، فيتبنون آلام الآخرين والمشاكل والهموم الكبرى لأهل الدنيا وينسون هموم الذات والأهل ، وتصدع البيت ، بيتهم وبيت عشيرتهم الأقربين . « جعلوني ناطورة الكروم فأما كرمي فبم انطره » كذلك جاء في نشيد الانشاد . والسؤال الذي يرد هنا قد جاء في محكم التنزيل : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » .

إن القضية لا تتعلق بالعدوان على الأرض والمادة والجسد ، ولا بالآلام والأخطار البشرية العامة ، ولكنها تتصل بصميم الذات الانسانية بعامة ، والعربية بوجه خاص .

العرب في هذا العصر هم أكثر أمم الأرض أرزاء وتعرضاً للعدوان .

يجب أن نعرف وأن نعترف ، أن شيئاً خاصاً يتحطم في أعماقنا ، في نسيجنا الفكري التكويني ، وأننا نسلب بالتدريج وعلى الصمت ، الهيكل البنائي الثقافي الذي تقوم عليه الذات العربية الاسلامية ، نحن نسحق حتى العظم ، بين فكي آلة تستطيع : لا تدجين الوجود الثقافي العربي فقط ، ولكن تمسح بالتدريج وفي تصميم ودأب عدوانيين ، معالمه وينابيعه ، تحرق النبتة المبدعة فيه .

هل يكفي هذا التحرك ؟

بلى ، ثمة جهود ثقافية عريضة تطرح نفسها في السوق ، الوطن العربي تنمو كل سنة جموع الطلاب فيه ، وأرقام المدارس ، وتزداد الجامعات عدداً وخريجين ، وثمة المعارض الفنية ، وجوقات الموسيقا ، وفرق الفولكلور ، وفنانو المسارح ودور العرض والمؤسسات العلمية ، ومن يعمل على احياء التراث ، ومن يدرس ويبحث ، وثمة قوافل من الشعراء والكتاب والمترجمين ، ودور للنشر بالعشرات ، وكتب تغص بها المطابع والمكتبات ، ودوريات وصحف ، وحماية للآثار ، ونشاطات جماعية ، ومهرجانات ومؤتمرات سنوية تنعقد ، وتنفض ، واذاعات تصدح آناء الليل وأطراف النهار ، وأقنية تلفازية تتوزع أوقات الناس والأمسيات و . . « كل شيء على ما يرام يا سيدتي المركيزة . . . » ـ كما تقول الأغنية الفرنسية الذائعة ـ ولكن السؤال الذي يطرح نفسه بالمقابل هو : هل هذه الحركة الثقافية كلها هي بحجم الـ ١٦٠ مليون انسان الذين يمثلون هذا الوطن ؟ بحجم حاجاتهم إن لم تكن بحجم طموحاتهم ؟ إن الأمية تزيد على ٨٠٪ بين هذه الملايين ولا يطبع من أي كتاب عربي أو مجلة فكرية جادة أكثر من خمسة آلاف نسخة في الحد الأقصى (بمعدل كتاب أو مجلة لكل ٣٢ ألف شخص) وقد نشر من كتب التراث خلال ٢٢ سنة

(بين سنتي ١٩٥٤ و ١٩٧٥) ١١٩٦ كتاباً بمعدل ٥٤ كتاباً تقريباً في السنة ، مع أن عناوين كتب التراث المخطوط تزيد على ربع مليون ، وليست النشاطات الثقافية الأخرى بأحسن حظاً ، أم نصر على العيش في وهم الجعجعة ولا طحن ؟

وما أذكر هذا الضعف في الكيان الثقافي العربي لأحلل أسبابه وعوامله . ليس ذلك الآن من همي ، وإنما أردت فقط الاشارة اليه ، لأنه هو الثغرة . التكوين الضعيف هو الذي تتكالب عليه الأدواء وتدمره الأدواء . واذا كان الاستعمار هو أولاً قابلية الاستعمار ، فان الضياع الثقافي هو أولاً وقبل كل شيء قابلية الضياع . واذا كانت الحروب تبدأ في الأفكار فكذلك الهزائم هناك تبدأ ، ومن هنا قلق السؤال : هل يكفي مثل هذا التحرك الثقافي ، وبهذه الوتيرة ، للصمود ، وغرس الأقدام في الأرض ، في عصر يكتسح كالطوفان كل شيء ؟

نحن إحدى الجبهات الأساسية التي تعاني من الصراع الدائم مع الغرب في هذا العالم النامي . تاريخنا كله صراع معه ، لعله قدرنا الجغرافي الذي وضعنا على باب الشرق ، هو الذي يحكم هذا التاريخ منذ العصر الاسلامي الأول - اذا نسينا العصور القديمة - والحقد الغربي يلاحقنا بالعدوان . ولم تكن الحروب الصليبية ولا العصر الاستعماري ، من بعد ، سوى صور ومراحل لتطورات هذا الحقد ، في شتاء سنة ١٩٦٢ ، وفي القاهرة ، قال شو ان لأي يشكو الصلف الغربي : « رغم كل عصور الحضارة التي يحملها تاريخنا ورغم كل ما اسديناه للجنس البشري ، لم ينلنا من الغرب سوى الاذلال » ألم يكن ذلك الصيني الكبير ينطق باسم العرب أيضاً وباسم الهند ؟ هذا الغرب حين كان بعضه متحضراً في عهد اليونان ثم الرومان هاجمنا . وحين كان متخلفاً في العصور الوسطى هاجمنا أيضاً باسم الصليب ، وحين استعاد قوته في العصر الحديث استعمرنا . . . وها نحن اولاء في غمرة الاستعمار الثاني : التبعية الارغامية وتنمية التخلف !

الغرب ينهب العالم

والمشكلة اليوم ، في عدوانية الغرب مختلفة ، إنها الاجتياح المادي والثقافي في وقت معاً .

الثقل السياسي الذي يجعل الغرب (في شرقه وغربه) قوة العالم الكبرى والوحيدة ، والثقل التقني الذي يعطيه كل وسائل الأبالسة للسيطرة ، والتحكم والثقل الاقتصادي الذي يجعله أكثر فأكثر سيطرة على الرغيف العالمي ، كل ذلك يصب في ثقله الثقافي ، ويجعل هذا الثقل « غول » الثقافات الأخرى .

إنهم « يغربنون » العالم ، يركعونه ونحن معه ، يحولونه عبيداً وخدماً بألف وسيلة : بالتفريغ السياسي ، بتسويق الاستهلاك ، بإثارة التمزقات الدينية ، باستغلال الجروح التاريخية . بفرض المخاوف الاجتماعية والمشاكل المستعارة والمصطنعة . بتشويه القيم ، بتدمير الروح ، ونشر الضياع .

« الغاية تبرر الوسيلة ، كذلك قال ممثلهم السياسي الأكبر : ميكافيلي .

ان الغرب (غرباً وشرقاً) الذي تمكنه قواه العسكرية والتقنية والاقتصادية من أن يسيطر على ٩٨٪ من أعمال التنمية ، و ٩١٪ من حركة التصدير ، وان يمتلك ٨٥٪ من التسلح ، ويستهلك ٨٧٪ من الطاقة في الدنيا ، و ٩٤٪ من المنيوم العالم ، و ٩٤٪ من النحاس ، ويأكل ٧٨٪ من الحبوب ، هذا الغرب يمارس ـ بذلك كله ، ومن خلال ذلك كله ـ السيطرة نفسها على صياغة الفكر والثقافة لدى الشعوب الأخرى . الغرب ، على طريقة الأقوياء في كل عصر ، لا ينظر الى العالم إلا من خلال ذاته ومصالحه وحاجاته وقيمه ، والرفاه المطمئن الذي يريد الحفاظ عليه .

« الانا » تملأ كل ساحة الرؤية لدى الغربي . وهو يفرض « أناه » على الآخرين من خلال هذه التبعية القائمة في لعبة الأقوى والأضعف ، وتحكم المنتج بالمستهلك . التخلف ليس الفقر ولكنه هذه « الذيلية » المفروضة فرضاً على البشر ، والتي تغتصب خيراتهم ليكونوا في موقع الحاجة الدائمة وتقتل

خصوصيتهم الحضارية لتعيد صياغتها ضمن القوالب الغربية .

إنهم الآن لا يسلبون الثروات المادية كما في الأيام الاستعمارية البائدة ، ولكنهم يدمرون القوى الفكرية والثقافية والروحيـة التي يمكن أن تقول ذات يوم : لا ! للغاصبين .

إنهم يخلعون أنياب التنين !

العلاقة الشديدة التشابك والمتزايدة التعقيد بين البنى الاقتصادية والثقافية والسياسية في هذا العصر ، تجعـل الاجتياج الثقـافي جزءاً أسـاسياً من عجلة السيطرة العالمية ، مع البضائع نفسها تدخل الأفكار التي تمهد لها .

ومع أفلام « باباي » و « وميكي مـاوس » و « الكاوبـوي » يصوغـون للناس قيماً أخـرى : ومع لعبـة العملة والأرصدة والهـوس الديني يصـوغون الانقلابات والانقلابات المضادة .

إنهم بهذا يخلعون أنياب التنين . إن ترويضه ، نزع عناصر مقاومته ، تدمير حصونه الثقافية ، هي الشروط الأساسية لاستغلاله بأقل جهد ، وأسرع وقت ، وأقل تكلفة .

التقنيـة المتطورة أعـطت الغرب خـاتم المـارد « للتحكم في المسكـونـة والساكنين ، ولتجاوز ذلك الى فضاء الله أيضاً . وما دامت كل الدروب تؤدي الى روما السيطرة ، فلماذا لا يستغل الغرب كل السبل الى اعشاشنا الهشة ؟ ولماذا لا يأتي الغزو من كل الدروب ؟

لقد أتى ومنذ زمن ، ومن كل الدروب أيضاً .

ها هنا ، لا بد لي ـ على ما يبدو ـ من جملة معترضة قد تطول لتدفع سوء الفهم ولعلها تزيد أيضاً في ايضاح معنى « الأمن الثقافي » الذي أريد . فلست أرفض ابداً ثقافة الغرب ، ولست أرضى أن يفهم هذا اطلاقـاً من كلامي .

وليس لأحد أن يرفض هذه الثقافة بعد أن توغلت في لحمه والعظم والأعصاب فليس من فكاك . لقد دخلت في تكويننا الفكري ، شئنا أم أبينا ، وفي تكوين غيرنا من الشعوب ، وكل من دب على هذه الأرض ينعم اليوم بالائها ، أو هو في حاجة الى تلك الآلاء . عطاء الحضارة الغربية لم يعد الآن غربياً . صار إرثاً للانسانية كلها . مثله تماماً كمثل ما قدم العرب المسلمون للعالم وللغرب نفسه من دين وفكر وعلم وعطاء صار ملكاً للبشر جميعاً . . . على أننا يجب أن نفرق بين الثقافة الغربية وبين استغلال هذه الثقافة للاستعباد . بين حصان طروادة ، التحفة الفنية ، وبين الحراب التي تستغله لعبور الحصون . هذا التمييز يجب أن يكون في بؤرة الرؤية وفي مراكزها . لست ارفض اذن ثقافة الغرب ابداً ، لأنها على الأقل هي العصر ، ولكني أرفض ، وسأظل أرفض أمرين :

الأول : أن تحل محل ثقافتي وأهلي . وهل ألغى الغرب فكره ودينه ومواقعه حين أخذ عن العرب ما أخذ ؟

الثاني : استخدامها العدواني ضد ثقافتي وأهلي وجعلها أحد أسلحة الإفناء .

ليس أكثر سذاجة من أن نطلب رفض الغرب جملة . وليس أقل منه سذاجة أن نقبله بالجملة . وأن نتخذ الموقف الانتقائي أيضاً .

المشكلة هنا اعقد بكثير مما نتصور . واولئك الذين يطالبون بهذا الانتقاء ويأتون عليه بمثل ما فعل الأوائل ـ لا يبسطون الأمور فقط ويسطحونها ويجعلونها ذات بعدين ولكن ينسون الأمر الأساسي وهو أن الحضارة العربية الاسلامية كانت حين أخذت عن الحضارات الأخرى في موقع الأقوى . أخذت وهي في أوج فاعليتها ونشاطها بينما كان « الأوائل » وحضاراتهم في مرحلة الشيخوخة والهزيمة . ولقد تغذت الحضارة العربية حتى بالسموم وتجاوزتها . والأمر في هذا العصر مختلف جداً . . . إنا في الوقت الذي نقول فيه : يجب أن تكون ثقافة الغرب كالتراث تماماً وكالثقافات الأخرى الصينية والهندية واليابانية والأفريقية وكل ذات عطاء . نسغا وغذاء في ثقافة العربي ، ويجب أن نأخذ عن الطرفين

المنهج والطريقة وآلة الفكر والآلاء المتاحة لبناء ثقافي جديد . في هذا الوقت بالذات ننفخ في الصور ضد التسلط الثقافي الذي يستخدمه الغرب لالغاء الانسان الآخر . « الأمن الثقافي » الذي نقصد لا يعني الرفض ولكن اتخاذ الشروط الموضوعية لدفع الأطماع المبيدة ، الحماية التي تهمنا ليست الحماية السلبية القائمة على المنع والرفض ، ولكن الايجابية التي توفر شروط التكون والنمو لبناء ثقافي عربي مميز وأصيل . وتنتهي هنا الجملة الاعتراضية لنقول إن هذه الشروط مهددة بشكل متزايد وفي الصميم .

وثـــورة المعلومـــات

ان ثورة الاتصالات قد امدت القوى الاقتصادية العسكرية في الغرب بقدرات رهيبة نعرف أن البشرية لم تعرفها من قبل ابداً . وهذه القدرات ليست معطلة الوظائف أبداً ، ولا تعمل في فراغ . . . من الخبل أن نتصور ان الذين يستخدمون الحروب والأساطيل والتهديد والجامعات والمخابرات ، بل يستخدمون أيضاً المعونات الغذائية للجياع في أغراضهم يستنكفون عن استغلال ما تضعه التقنية « الميكرو الكترونية » بين أيديهم من قدرات الشياطين . ان عمليات الاختراق للبنى الثقافية تتم في صمت ودأب كاملين . واذا كنا نرى على السطح مؤامرات السياسة ، وآثار « لعبة الأمم » ، وزحام القواعد والأحلاف ، وبصمات المخابرات الغربية هنا وهناك ، والكلام عن « هلال الأزمات » (حسب ما صورنا بريجنسكي) ودفع المنطقة العربية والاسلامية بالتمزيق الطائفي إلى الانتحار الذاتي ، فيجب ألا يعمينا ذلك عما يجري بالتوازي معه في الأبعاد الثقافية ، وفي مستويات الفكر ، والمثل ، والدين ، من المؤامرات والتدمير .

ثمة ٢٥٠٠ قمر صناعي تطوق الأرض ، وتوزع التوجيه والاعلام ضمن المخططات « الكومبيوترية » المرسومة للآخر « المتخلف » إنه حصار جوي

مضروب حول هذه الكرة الطينية ، لجعلها قفص الترويض للشعوب الرافضة .

وفي العالم أكثر من ١٣٠٠ وكالة أنباء ، ، لكنها الأقزام أمام العمالقة الخمسة : « رويتر الانكليزية » و « الوكالة الفرنسية » . و « يونايتدبرس » و « أسوشياتد برس » الأمريكيتين بالاضافة الى وكالة تاس السوفياتية .

إن الأربعة الأولى وحدها تقدم ٩٠٪ من الأخبار والتعليقات العالمية.تملأ جماجم الناس وارشيف المعلومات لدى شعوب الأرض . وهي التي تدخل العالم في الحرب الباردة ، وتخرجه منها ، وتلعب بالسياسة والثورات لعبها بالأسعار . . والدماء .

وهذا التلفاز الذي نجلس أمامه الساعات الطوال ويجلس أطفالنا في انفعال وتلق سلبي مطلق ، هل تذهب صوره وإيحاءاته وسلوكياته في الفضاء ؟ . . .

« الكاوبوي » ، و « الهندي الأحمر » ، « والشرطي البهلوان » و « الأمريكي الفرد » الذي ينتصر على كتيبة من الألمان أو اليابانيين الأغبياء . . . أليس هؤلاء هم سمارنا منذ حل التلفاز في صدور البيوت ؟ من أين ينبع لنا هؤلاء كل مساء ؟

في السبعينيات كلها كانت أمريكا تصدر الى العالم ما معدله / ١٥٠ الف ساعة تلفزيونية كل سنة . وكان ٧٥٪ منها يذهب لتخدير هذا العالم الثالث المتخلف .

بريطانيا تأتي بعدها بتصدير ما معدله ٢٥ الى ٣٠ ألف ساعة سنوياً .

وتصدر فرنسا ما بين ١٥ الى ٢٠ ألف ساعة في السنة . . .

بالمقابل فان تلفزيونات الوطن العربي تملأ ما بين ٤٥ الى ٦٥٪ من ساعات البث بهذه الأفلام . . وتملأ الباقي بالغثاء الذي تسميه حواراً ومسرحية وأغنية نواحة و مباريات كروية . وتصل بعض برامج الدول مثل غواتيمالا الى ٨٤٪ ، وسنغافورة الى ٧٨٪ وزامبيا ونيجيريا الى ٦٥٪ ، وماذا تفعل هذه الأفلام

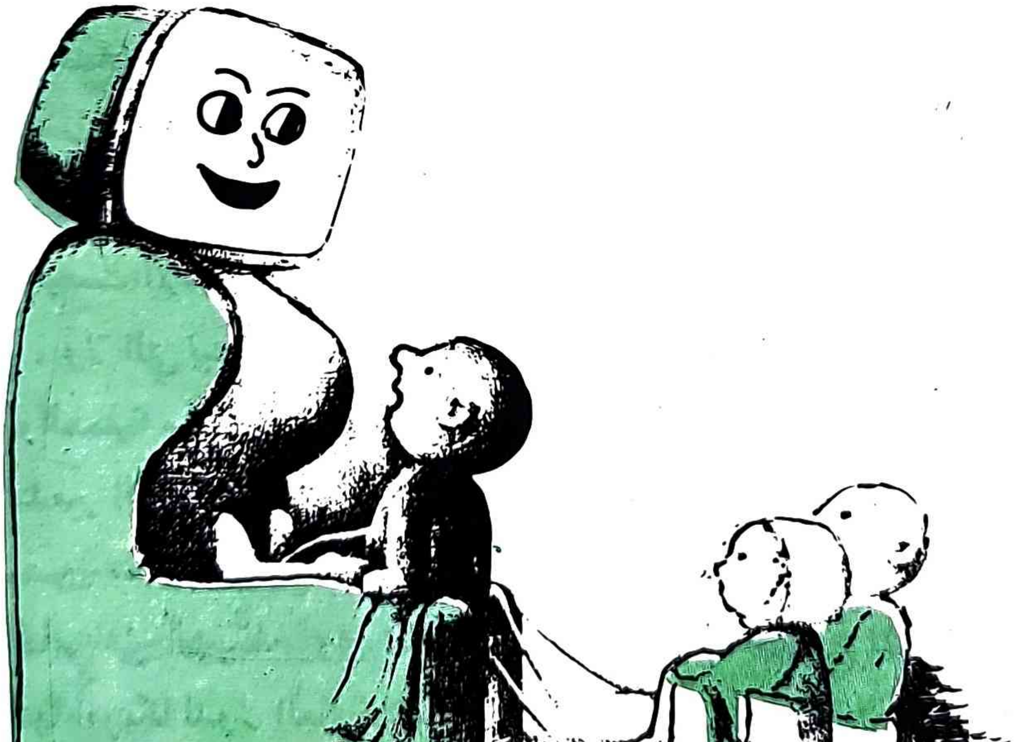
التلفزيونية سوى فرض وتوطيد القيم الغربية ، ونماذج الاستهلاك والسلوك والبطولات الكاذبة لرجل الغرب ؟

وما الهدف من اهدائها ومن بيعها بأبخس الأثمان لأهل العالم الثالث ؟

هل هو مجرد الرغبة في تسلية تلك البطون الجائعة في العالم المتخلف والترفيه عنها ؟

والاختطاف أيضاً !

ونتذكر بجانب الأقمار ووكالات الأنباء وسيال البرامج التلفازية تلك المنظومة التي تكملها من وسائل الغرب في التثقيف الموجه : من الوسائل المدرسية الى العاب الأطفال والى أفلام السينما ، ومن مطبوعات « الموضة » والجنس ، الى الموسيقا الهستيرية وصرعات الهيبي والثقافة المصنوعة للتهريج والجماهير ، ونتذكر مع هذا كله تلك الدورة السريعة التواتر التي تدورها كل هذه المؤثرات والوسائل معاً ، ومن كل فج حول رؤوسنا والصدور ، وتسأل في



النهاية : أليسوا يأخذون منا حتى أولادنا من الأحضان ؟ إنهم يختطفوننا ويختطفونهم في عمليات ثلاث منظمة ومتكاملة : « الغربنة الثقافية » و « التمزيق الداخلي لهوية الحضارة القومية » . « وتضليل الاتجاهات الثقافية » بالأهداف الزائفة أو التي توطد التخلف وتنميه .

في أيام الاستعمار الأولى كانوا يتخطفون العبيد أفراداً ويسوقونهم الى ما وراء البحر ، وهذا عصر العبودية الجماعية المقنعة . انهم يحرمون الرقيق ، ويعلنون حقوق الانسان ، ولكنهم يمسخون الشعوب جماعياً ، عبيداً دون هوية . ولا يضعون الأسيار والقيود في الأعناق ، ولكن في الروح .

أما الوسيلة الأخيرة من وسائل الإفقار الثقافي وفرض التبعية فهي تهجير الأدمغة من أوكارها المحلية . كالطيور المهاجرة تتحرك أسرابها الى الغرب . الخبرات البشرية التي تتكون رغم كل عواصف القحط في العالم النامي ، يتكفل بها نزف الأدمغة ، انهم يسرقونها . يتصيدونها . ينصبون لها العشرات من حبائل الإغراء .

في السبعينيات كان معدل هجرة الأدمغة من العالم الثالث « النامي » الى أمريكا وحدها ما بين ١٠ الى ١٥ ألفاً سنوياً .

في سنة ١٩٧٠ مثلاً امتصت أمريكا ١١٢٥٠ متخصصاً ، كان بينهم ٦٤٠٠ مهندس و ٢٢١١ طبيباً .

وليست الأدمغة التي ابتلعتها انكلترا وفرنسا وألمانيا باقل من هذه الأرقام ، ولا التي يبتلعها بدوره المعسكر الشرقي بمختلف دوله .

والعملية مع ذلك ليست من باب التدمير الثقافي فحسب ، ولكنها من باب التدمير الاقتصادي أيضاً . إن ذلك الرقم الذي اختطفته أمريكا من المتخصصين سنة ١٩٧٠ مثلاً كان يمثل معونة قدرها ٣,٦ مليار دولار قدمها العالم النامي الى أمريكا . وفي تلك السنة نفسها كان مجموع المعونات التي خصصتها أمريكا لدول العالم الثالث كلها لا تزيد على ٣ مليارات فقط ، وكان أكثر من ثلثها « لإسرائيل » وحدها .

ان الذي يعطي مثل هذه المؤثرات شكل الكوارث الثقافية هو أربعة أمور :

الأول : إن « غربنة » العالم النامي (ومنه العربي) تتم من خلال خطط علمية تجند لها دوائر البحث والأموال والأجهزة ، وهي تعرف بالضبط ميادين عملها والأهداف التي تسعى اليها ، بينما يعيش هذا العالم مشلول الوعي ، ومعظم قياداته قد باعت نفسها للشيطان . العطاء الحضاري لكل الشعوب اليوم يزداد تبعية للغرب . يرى نفسه محكوماً برغمه ، ان يمر بالأقنية الغربية ، وان يصب في صحن الغرب ليعود فيزيد من قدراته الاكتساحية .

الثاني : ان الزمن لا ينتظر . الوحدة الزمنية التي يعالج بها العالم النامي مشاكله ، وبناه الثقافية باليوم والشهر والسنة ، مسخت في الغرب الى دقائق وثوان ، والسباق بين الوحدتين خاسر . الزمن ضدنا . وتيرته السلحفائية لدينا لم تعد قريبة من عالم التحرك الصاروخي الغربي . فالفرص تضيق وتضيق ، ودلائل التصدع تتجمع شروخاً ونذرا .

السياسة لدينا هي - كما قال بول فالرى ذات مرة - فن منع الناس من أن يتدخلوا فيما يعنيهم . وأبرع الحكام انجحهم في سياسة النوافذ المغلقة ، ومنع خائنة الأعين . ويوماً بعد يوم تتسع لدينا دائرة المحرمات وتتسع معها دوائر الخوف ودوائر النفاق ، فعمل الألسنة الوحيد لوك الأكل والدعاء للسلطان بالنصر .

الثالث : ان المستقبل ليس كالماضي أبداً ، لا في قواه ولا في ايقاعه الزمني ، ولا في معطياته .

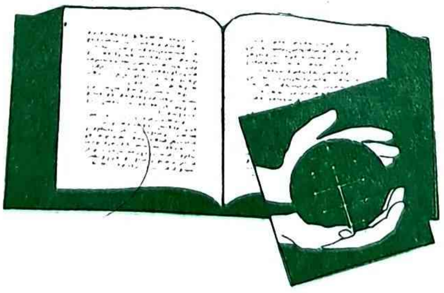
الغد ليس مختلفاً جداً فقط ، ولكنه أقرب أيضاً مما نتصور . واذا كان معروفاً أن شعوب العالم النامي تزداد كل يوم ضعفاً بينما يزداد العالم المتقدم

جبروتاً وسلطاناً ، فان الكثرة العديدة لهذه الشعوب لم تعد شيئاً مذكوراً في حسابات القوى إن لم تستند الى تكوينات ثقافية صلدة ، فاعلة الحيوية ، كالتكوينات الفيتنامية مثلاً ، تقنيات العصر وما وراء التقنية في الغد قدألغت دورها . والأصالة ليست سداً ضد الطوفان ، ولا بد من النضال المرير للحفاظ عليها ، حتى المبادىء الكبرى والأديان لا تحافظ على نفسها إلا من خلال بطولة أصحابها والحاملين لها .

الرابع : وهو المشكلة الكبرى بعد هذا كله اننا نحن نسهم في انتحارنا الحضاري الصامت ، نعمل على الخواء الثقافي بأيدينا والأظافر . نلح في تدجين المبدعين منا والجموع على السواء ، ليصبحوا الفريسة السهلة للاجتياح . .

وتضيق بالمقابل حرية الانسان العربي حتى الاختناق . « كل ما يتنفسه الوطن العربي من الحرية لا يكاد يكفي لانسان حر واحد » .

وليست حرية الفكر التي تهمني لنفسها ، ولكن آثار مصادرتها ، والدمار الثقافي الذي تخلفه ، إنها تنفي معنى الانسان في الانسان . إن قتل الفكر جريمة أشد من قتل الجسد . إنه يرد الانسان مجرد كائن حيواني دون هوية . ويجعل قياده نهبا لكل تسلط . من الذي يقول إن بناء الأمم ليس ورقة رسمية كتبت عليها كلمة الاستقلال ، ولكنها بناء حضاري متكامل ، وان صنع الغد بناء من القش ، ان لم يقم على قاعدة ثقافية صلبة ، وان الشعوب تنهار إن لم يكن الهيكل الحديدي في داخلها لا من حولها ؟ □□



والأساطير ثمنها الباهظ جداً

« في الخامس من أغسطس (آب) سنة ١٨٨٢ رست في ميناء يافا السفينة أصلان ، تحمل أول المهاجرين من اليهود من حركة (بيلو) الصهيونية إلى فلسطين . كانوا ثلاثة عشر رجلاً وامرأة واحدة . . . » .

« اكذب ! اكذب دائماً ، فلا بد أن يبقى من كذبك شيء » هذه القاعدة « الذهبية » التي وصفها جويلز ، داعية النازية المعروف ، أشك في أن يكون أحد في الدنيا - إلا أن يكون الشيطان - قد طبقها أكمل التطبيق ، واستغلها حتى النهاية كالحركة الصهيونية . تاريخها من أوله إلى آخره برهان على أنه لا حاجة لأن يكون لك حق لتصل إلى ما تريد . يكفي أن يكون لك مع العمل والقوة ، بوق دعاية ! واكذب ما شئت فليس ثمة إلا عدد محدود من العارفين بالحقيقة يعارضك . فإن رفع بعضهم الصوت تكفل بالتغطية عليه سيل الدعاية الجارف . وإذا ذهب ملايين البشر في القديم ، ضحية الأساطير ، واغتصبت الأرضون أو ذبحت في صليبيات الأوهام فما زالت الأسطورة - فيما يبدو - سيدة

العربي - العدد ٢٩٠ - يناير (كانون الثاني) ١٩٨٣م .

الموقف ، حتى في أواخر القرن العشرين ، يوم أضحى في إمكان الانسان النزول على القمر والتحقق من حجارته !

وفلسطين ، ومعها الشرق العربي ، ومصائر أهله ، ليست ضحية اسطورة واحدة ، ولكنها ضحية سلسلة مركبة من الأساطير ، كقنابل الدخان « العنقودية » التي تعمي العيون ثم تعود لتعميها كرة أخرى ، ثم أخرى .. أطلقت ثم كررت ثم كرست حقائق ونحن بمشقة نتلمس الطريق لمعرفة أبعادها ، ولم تأت كلها معا ، لأنها كانت أساطير مرحلية ، لكل مرحلة من الصليبية الصهيونية شعاراتها المناسبة ، وأكذوبتها المبرمجة . هكذا مثلاً أطلقت مقولة « أرض بلا شعب لشعب بلا أرض » ، وأطلقت قصة اللاسامية وإبادة ستة ملايين يهودي في أفران الغاز . ومن مثل ذلك أن اليهود شعب مسكين مسالم يريد العرب أن يذبحوه ، وأن اليهود هم الشعب الوحيد المضطهد في التاريخ الانساني ، وأنهم شعب واحد مستمر الوجود منذ ثلاثة آلاف سنة إلى اليوم ، وأنهم « شعب الله المختار » ، وشعب العبقريات ، وأن فلسطين هي أرض الميعاد ، والرب « يهوه » هو الذي وعدهم بها ، وأنهم أيضاً وأيضاً هم أصحاب فلسطين الأولون .

تكرار هذه الأساطير ، شعارات ومقولات مطلقة ، أدخلها بين الحقائق والبدهيات ، حتى لدى بعض العرب ، وحتى صار دفعها بالحق والحجة والوقائع ضرباً من العبث إن لم يكن مدعاة للملل واليأس ، بعد أن تجاوزتها المراحل ، صار الحديث فيها لغوا من اللغو لا ينتهي إلى نتيجة . وفرض الأمر الواقع والقوة والزمن والظروف وقائع جديدة طرحت لها بدورها أساطير أخرى جديدة ، كأسطورة إعمار فلسطين الموات ، وهي عامرة قبل وجودهم في الدهر ، وأسطورة الأمن التي تبرر الاستيلاء المتسلسل على الأرض والتوسع في حلقات متصلة يظل الأمن دائماً مهدداً من بعدها دون نهاية . ولا أمن للآخرين ، وأسطورة الجيش القوي الضارب ، ولولا الحبل السري الذي يربطه بالترسانة الأمريكية لما كان ، ولما كانت « إسرائيل » !

بين صورتين

أكثر من مائة سنة مرت على مسلسل الأساطير هذا ونحن ندفع الثمن ، وهو يمتد فصولاً ودماء وافتراس أطفال .

إنهم يسمون هذا بعملية التنظير . يضعون النظرية أولاً لكل مرحلة ، ثم ينحون عليها بالعمل والتنفيذ وصراخ الأبواق . الاستراتيجية ها هنا متكاملة : نظرية ، تخطيط استراتيجي ، أعمال مرحلية ، ونظريات فرعية متممة للنتائج ، ثم نظرية أخرى تلائم النتائج والمكتسبات . وهكذا دواليك . وتدور الناعورة على النيام .

استعرض إن شئت تاريخ هذه الصليبية ما بين أول صورها وآخر الصور لترى كم دفعنا نحن وحدنا ثمن تلك النظريات ـ الأساطير .

الصورة الأولى كانت بالضبط منذ مائة سنة (١٨٨٢) سفينة تافهة اسمها اصلان ترسو في الخامس من آب (أغسطس) في ميناء حيفا بعد أن أبحرت خمسة أيام من رومانيا ، وعليها بضاعة من البشر لم يأبه لها أحد : ثلاثة عشر رجلاً وامرأة واحدة من حركة لم يسمع بها أحد ، من الشرق العربي على الأقل ، أحباء صهيون (البيلو) نزلوا مهاجرين فأسسوا أول مستعمرة زراعية أجنبية عند عيون « قارة » ، جنوبي يافا ، هي التي عرفت فيها بعد باسم ريشون لوسيون (الأول في صهيون) . . .

قبل ذلك بأربع سنوات كان نفر من يهود القدس المتدينين قد خرجوا لحراثة الأرض ، فأسسوا أول جماعة يهودية زراعية في بلدة ملبس العربية التي صارت فيها بعد « بتاح تكفا » (عتبة الأمل) . الممول لهذه الحركة كان الرأسمالي اليهودي ـ الأخطبوط البارون روتشيلد . الوسيط هو الرأسمالية الاستعمارية ، خلال خمسين سنة بعد ذلك ظل يدفع لهذه الهجرة . وظف في هذه الحركة الاستعمارية (حتى موته سنة ١٩٣٤) ، ما مقداره ١٥٠ مليوناً من الفرنكات الذهبية .

الصورة الأخيرة : في آب (أغسطس) ١٩٨٢ ، ما تزال طرية فاجعة على العيون ، ربع مليون جندي صهيوني يحتلون نصف لبنان بآلات الدمار الأمريكية . يطوقون بيروت ويدمرونها بآلاف الأطنان من القنابل ، ثم يذبحون الألوف ممن طردوهم ، هم أنفسهم من ديارهم ، لا يريدون أن يسمعوا أن على الأرض شيئاً اسمه فلسطين أو فلسطينيون . ويدخرون للغد العربي القنابل الذرية . الرجال الثلاثة عشر الأول المسالمون صاروا أربعة ملايين قاتل .

ومستعمرة ريشون لوسيون صارت تمتد من شرم الشيخ إلى جبل الشيخ ومن القنيطرة إلى القنطرة ، وتفترس ، فيما تفترس ، الصخرة المباركة ، (المسجد الذي باركنا حوله) وقبر السيد المسيح ، ومهده ، وبغرور قطاع الطرق في الغرب الأمريكي تتحدى وتشتم كل البشر .

بين الصورتين الأولى والثانية تمتد ملحمة المائة سنة الماضية في انتظار الآتي ، يمتد قرن الآلام العربية الذي بدأ بثلاثة عشر رجلاً وامرأة واحدة يحملون أسطورة ذات ثلاث شعب : الأولى أن فلسطين أرض بلا شعب ، الثانية أن الله وعدهم بها ، والثالثة أنها أرض يهودية في التاريخ ، وإذا كانت وقائع قرن كامل قد كذبت الأولى وكان الجنون التوراتي الصهيوني هو الأعمى الوحيد الذي لا يريد أن يرى الوجود الفلسطيني الثوري والبشري وهو يتضخم كل يوم ، فان الشعبتين الأخريين ، الوعد ويهودية الأرض ، ما تزالان من بضاعة السوق .

الوعد المزعوم *

.. ويسألهم الناس « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » فيشيرون إلى نص توراتي مما حاكته أحبارهم بعد أيام موسى بست مائة سنة أو

---

* نص الوعد موجود في سفر التكوين الاصحاح ١٥ الآيات ١٨ ـ ٢١ ومن الأكاذيب التي يشيعها الصهيونيون انهم يجعلون صورته كما يلي : « وهبتك يا اسرائيل ما بين دجلة والنيل » .

تزيد ، ونسبوه إليه زورا . يقول النص « قطع الرب مع إبرام » « ابراهيم » ميثاقاً : لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر الى النهر الكبير ، نهر الفرات ، اليقينين والقنزيين والقدمونيين والحثيين والعرزيين والرفائيين والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين » .

وإذا كان واضحاً أن اقتطاع جزء من النص دون ما يتصل به هو أشبه بقضية « ويل للمصلين » ، فمن الواضح أيضاً أن الحبر الذي كتب النص كان يقصد حكم الشعوب المذكورة في النص بدليل تفصيلها الدقيق بعده . وإذا كان الوعد حقاً فانه أعطى الأرض لنسل ابراهيم . ونسل ابراهيم هم العرب . اما هؤلاء الاشكنازيم » فتعرف الدنيا أنهم من نسل الخزر ولا شأن لهم بابراهيم ونسله كما تعرف الدنيا أن الدين ليس تناسلاً ودماً موروثاً ولكنه فكر . . لا دم له ولا أجناس .

. . ويسأل صاحبي وهو يحاورني : هل كانت فلسطين لهم حقاً في التاريخ ؟ وهل كانوا هم ؟ يا بؤسي للتاريخ كم يحملون عليه من الأكاذيب ؟ وكم يحمل من أوزار الأساطير . هل نعود مرة أخرى للتاريخ ؟ إنسان هذه الأرض الفلسطينية عاش عليها مئات القرون ، ومع ذلك يأبى العمى الصهيوني أن يرى منها أكثر من قرن واحد ، قرن واحد فقط ، دعنا إن شئت ، من « إنسان فلسطين » القديم الذي كان مرحلة متطورة من مراحل انسان « النيندرتال » ، إن له ملفه الطويل وآثاره وحضارته في ملفات ما قبل التاريخ .

دعنا مما قبل التاريخ كله ، وادخل منطقة التاريخ قبل خمسين أو ستين قرناً . أقدم من نعرف على هذه الأرض بشكل عام هم الشعب « الذي قامته قامة الأرز وهو قوي كالبلوط » . هذا الشعب الذي يعود انتشاره إلى أوائل الألف الثالث قبل الميلاد ، والذي استمر حتى مطالع الألف الأول ق.م ، هو قسم من الشعب العموري (السامي - العربي) عرفه التاريخ باسم الكنعانيين . حتى التوراة تسمى فلسطين (أرض كنعان ، هؤلاء الكنعانيون هم الذين زرعوا أرضها الفي سنة ، بالمدن . أريحا ، مجدو ، بيت شان ، عكو (عكا) ، يافو

(يافا) ، أورشليم (يبوس) غزة ، عسقلون (عسقلان) ، اشدود ، بئر السبع ، بيت لحم . . . كلها من بنائهم .

جماعتهم الساحلية التي امتدت على البحر هم من نعرفهم بالفنيقيين أصحاب صور وصيدا وجبيل وعرفة واوغاريت . والكنعانيون هم الذين منحوا البلاد ثقافتها التاريخية الأولى من لغة وعلم ودين وكتابة ونظم اجتماعية وفن وبناء وقيم وحضارة .

بعد الكنعانيين كان التغلغل البشري في الشام للجماعة (السامية ـ العربية) الثانية : الآراميين ، وهم الذين منذ أواسط الألف الثاني قبل الميلاد ، جددوا الدماء التليدة في المنطقة ، وأعطوها كرة أخرى مدنا جديدة ، وحقولاً خضراء « تفيض لبنا وعسلاً » حسب قول التوراة نفسها ، وضربوا فيها للثقافة (العربية السامية) الجذور والأبعاد .

هؤلاء بدورهم كانت لهم البلاد ألفي سنة .

ويوم جاء عرب الاسلام بعد ذلك ، في القرن السابع للميلاد ، وجدوهم هناك ينتظرون الخلاص (السياسي والديني والاقتصادي على السواء) . واندمج الشعبان الأخوان بسرعة اندماج اللبن والماء .

لم يعمر فلسطين سوى العرب

ويقول صاحبي : يبقى سؤالان :

الأول : أين نسيت الفراعنة وآشور ؟ وأين الفرس واليونان والرومان في هذه الجولة الصاروخية ؟

الثاني والأهم : أين العبرانية والعبرانيون ؟ وسليمان وداود وقوم يهود من هذا كله ؟ وأقول لصاحبي : إنما ذكرت الأسس والجذور الراسخة ، وعناصر الدماء المسيطرة والثقافة الباقية . ذكرت سفر التكوين البشري ـ الثقافي

هذه الأرض . أما الموجات العابرة التي لم تترك فيها سوى الألوان وجروح الجلد فقد كانت تعبر السطح ، ولا تتصل أبداً بالأعماق . التاريخ السياسي لهذه المنطقة تلون . اضطرب . تنوع . عرف أنواعاً من عروش الحكام . أما التاريخ الحضاري المتجذر فبقي على الصمود . جاء الفراعنة فاتجهوا إلى فلسطين أكثر من مرة (ما بين القرن ٢٤ والقرن ١٢ ق.م) ولكنهم انحسروا دون أثر ، ووصل الآشوريون (القرن ٨ ـ ٦ ق.م) فدمروا ما دمروا ، ثم اختنقوا بالدماء التي سفحوها وجاء الفرس فلم يبقوا . وجاء الاسكندر وخلفاؤه (من سلوقيين وبطالمة ، ما بين أواخر القرن الرابع وأواسط القرن الأول ق.م)

وجاءوا في استعمار استيطاني ، ولكنهم بقوا غرباء (كما بقي الصليبيون من بعدهم غرباء) . حتى مساكنهم ولغتهم وأحياؤهم والمدن واللغة والثقافة بقيت معزولة . ثم تسلطت الآلة العسكرية الرومانية على البلاد ، حرثتها بالسنابك وأقدام الجنود ، ولكنها بدورها بقيت مجرد طبقة حاكمة ، لا تفاعل بينها وبين الناس والأرض والثقافة الدهرية للمنطقة ، بل أخذت منها أكثر بكثير مما أعطتها . وورثتها بيزنطة فكانت أكثر غربة ، حتى نصرانيتها كانت غير نصرانية الناس في هذه الأرض . وتلك الآلاء من الآثار الجبارة والأعمال الفكرية (من قانون وشعر وفلسفة وفن وبناء) التي ننسبها للرومان والبيزنطيين ضلالاً منا وخسران رأي إنما قام بها وصاغها وبناها وأثلها أبناء هذه الأرض بأيديهم وجباههم وما يبدعون . هي منهم ولهم وإن حملت القوالب الأغريقية ـ الرومانية من شكل وأسلوب . ومن هذه المنطقة كان يذهب المعلمون في الفلسفة والقانون والرياضيات والبناء والفكر ، والشعر إلى روما وأثينة . بل منها أيضاً خرج « المعلم » السيد المسيح جواباً على كل ذلك الغزو العسكرى ، وكل تلك الهيمنة السياسية الزائلة » . إنما اتكلم عن الباقيات الصالحات . « والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مرداً » . إنها هي الانسان .

أما العبرانية وقوم يهود فلهم بدورهم مثل هذا الحديث مع فلسطين، لا بد

من رد الأمور معهم إلى حجمها الطبيعي في الزمن ، وفي الأرض ، وإلى حقائقها في الأحداث ومداها التافه في التاريخ ، وأسسها الثقافية والمستعارة .

إنهم في الزمن التاريخي (ولنعتبر هذا الزمن خمسين قرناً) لم يمروا في تلك الأرض إلا حوالي ستة قرون (بين القرن ١٢ والقرن ٦ ق.م ولم يظهروا إلا على بعض أجزائها (الشمالية والوسطى فقط) .

ولم يكن لهم من ملك ودولة موحدة في تلك الأجزاء إلا أقل من قرن واحد فقط (بين القرنين الحادي عشر والعاشر ق.م) حين ملك شاول (حوالي سنة ١٠٣٠ ق.م) ثم داود (١٠٠٦ - ٩٧٢ ق.م) ثم سليمان (٩٧٢ - ٩٣٢ ق.م) وتمزقت بعد ذلك دولة سليمان[1] إلى دولتين صغيرتين ، استمرت الأولى (اسرائيل وعاصمتها السامرة) في شمال فلسطين حتى محيت على يد الآشوريين (٧٢٠ ق.م) واستمرت الثانية (يهودا وعاصمتها أورشليم) في الوسط حتى استباحها وخربها وخرب الهيكل معا نبوخذ نصر (سنة ٥٩٢ ق.م) في السبي البابلي المعروف . وبدأ عصر الشتات اليهودي (الدياسبورا) منذ ذلك الوقت . وبلغ أوجه بالطرد النهائي لكل ظل يهودي في فلسطين سنة ١٣٥م . على يد الرومان .

لا يوجد عرق يهودي

في فترة الأسر البابلي كتبت في التوراة قصة الوعد الابراهيمي وأرض الميعاد[2]. هذا في الزمن ، أما في التكوين العرقي فليس ثمة عرق يهودي أبداً ، ولا عبراني ولا إسرائيلي ، ولا ما يزيفون بأي معنى من معاني القوم العرقية .

---

(١) كانت دولة سليمان - مع اقتصارها على جزء من فلسطين - تحت الحماية المصرية.(العربي)

(٢) هذه القصة ليس لها سند تاريخي ، بل لفقها الكهنة العائدون من السبي البابلي في العراق (العربي) .

الجماعة البشرية التي آمنت باليهودية كانت مجموعة خلائط عرقية . التاريخ القديم عرف الأولين منها باسم حابيرو ، أو عبيرو . وكثير منها كان من قطاع الطرق ومن التجمعات البدوية التي لا أرض لها . وقد انضووا جميعاً ، بعد أن استقروا في جوانب من شمال ووسط فلسطين ، في إطار العبادة الدينية التي كانت تمارسها الجماعات المختلطة الذين خرجوا مع النبي موسى ، من مصر . هذه الاخلاط العرقية والأمشاج المتفرقة قضت أكثر من أربعة قرون وهي تجتمع في نطاق عقيدة الرب (يهوه) قبل أن تجبرها الظروف على الاتحاد مع غيرها من القبائل أيضاً تحت حكم شاول ثم داوود . يبقى أن نضيف إلى هذا أن هذه الجماعات لم تكن المجموعة السياسية الوحيدة في أيامها في فلسطين . كان هناك الكنعانيون ، والفلسطينيون (من شعوب البحر)[3] ، والأدوميون ، وممالك آرام (بيت عموري) والمؤابيون ، والعمونيون ، والمدينيون واليبوسيون . .

وتلك الأحداث التي صورت في التوراة ، على أنها أحداث كبرى وأضفت عليها الهالة القدسية أبعاداً غير طبيعية وأدخلتها في الأدب الديني والفكري ـ ليست أكثر من أحداث متواضعة جداً لشعب صغير ، تضخم تاريخه الخاص في ذاكرته الشعبية بمقدار ما كان يشعر به من صغر وضعف أمام القوى الكبرى . فتح أريحا لم يكن أكثر من انتصار مسكين على قرية محصنة جرى أعظم منه وجرى مثله ألف مرة في التاريخ القديم ، وما كان ملك داوود وسليمان أوسع من ولاية من الولايات التابعة لمصر أو للآشوريين أو الحثيين أو البابليين أو الفرس . . وأعمال الجماعة العبرية في سفر الملوك أو القضاة قد تكرر مثله وأروع منه مئات المرات في تواريخ مختلف الشعوب وفي مختلف العصور .

---

(٣) هؤلاء الذين سموا « الفلسطينيين » وبهم سميت الأرض بعد وفودهم اليها هم جماعة قدموا من بحر « إيجه » . وأصلهم من الأقطار العربية هاجروا إلى هناك ثم عادوا إلى الشام فسكنوا فلسطين (العربي) .

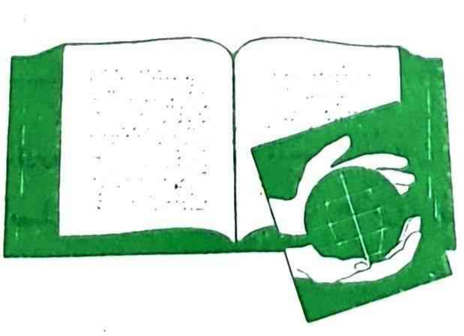
العهد القديم لو حوى قصص الشعوب الأخرى تلك لما كان ثمة مكان فيه لكل تلك القصص الأسطورية بحوارياتها وتفاصيلها وما تفضح أحياناً كثيرة من عمل مخجل !

وأما في الجانب الثقافي فيكفي أن نعلم أنه لم يكن للجماعات العبرانية من لغة مشتركة ، ولا صلة بين اسرائيل القديمة واليهودية .

بعد موسى اصطنع العبرانيون الآلهة الوثنية المحلية بجانب الرب يهوه . حتى سليمان ! حسب نصوص التوراة الموجودة بين الأيدي عبد آلهة زوجاته الوثنيات جميعاً . أما اليهودية التي لليهود اليوم فقد تبلورت وتكونت ، على أيدي الحاخامين بعد سقوط إسرائيل ، وبخاصة بعد السبي البابلي في القرن السادس ق.م . . .

ويقول صاحبي : إذا كانت هذه هي حقائق التاريخ فلماذا لم نفضح أو لا نفضح هذا كله ؟ أليس من واجب العلم أن يرجع الحق إلى نصابه ؟

وأقول لصاحبي : كل هذا ليس أكثر من بعض اللغو ، من الحديث البائد ، من الصراخ الضائع في الفضاء . إن للأساطير أيضاً ثمنها الباهظ جداً ، ولقد فات الأوان على نقضها . وليس بالمهم أن تزلزل الأسطورة ، ولكن أن تدمر الآلة والمصالح التي تختبيء وراءها . المهم أن نفهم أن الأسطورة مثلها كمثل الحقيقة سواء بسواء ، أشبه بالكيس الفارغ لا يقوم بذاته ، ولكن بما يمتليء به من قوة . والتاريخ إنما يصنعه ويكتبه الأقوياء . . . أم أن الآية الكريمة « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » قد انزلت في غيرنا ، ولغيرنا ؟ . □□



حطين والفرص الضائعة

لا تقوم المعارك فجأة ، هكذا علمنا التاريخ .

يسبقها تمهيدات ، ومناوشات ، ومعارك صغيرة ، ثم تثور زوبعة عاصفة فتدمدم الحمم ، . . وتقوم قيامة المعركة .

فهل سبق معركة حطين معارك مهدت لها ؟

وما هو السلم الممتد من شخصيات التاريخ وأبطاله الذي ارتقاه صلاح الدين الأيوبي ؟

إن وقع لك كتاب النوادر السلطانية لابن شداد ، أو كتاب الروضتين لأبي شامة ، أو كتاب الفتح القدسي للعماد الأصفهاني ، فافتح فيها على حوادث سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م واقرأ ما جرى قرب طبرية يوم السبت خامس عشر من ربيع الآخر (٤ يوليو / تموز) .

ما نسميه بيوم حطين كان ذلك اليوم ! . . . صورته لدى الناس أعراس ، وزهو مهرجان ، وفرسان تزغرد بينها الرماح ، وسيوف تلعب بين السماء والأرض ، وطيف صلاح الدين ممدود على المعركة بين السهل والجبل ، أما الصليبيون فأقزام ، وظلال سوداء تمضي ذليلة ، محنية الهام في الأفق ! . ولكن اقرأ التفاصيل . وقفْ عند ملحمة الدماء والأشلاء ، وعجين الجثث

العربي - العدد ٣٤٤ - يوليو (تموز) ١٩٨٧م .



بالغبار ، ولهاث العطش ، والخيل تقضم اللجم ، أو تزحف ببطونها على السفوح ، والنيران تشوي الصدور المدرعة والعرق يسيل أنهارا مع الدم ! لتعرف حطين الحقيقية ! .

حطين كانت ملحمة للرعب والموت الأحمر ولجوع السيوف ، ولكل الأهوال ، قبل أن تكون نصرا للمؤمنين . ما عرفوا النصر الأعظم فيها إلا بعد أن عرفوا الهول الأعظم ! وبعد أن ذاقوا ـ حتى الثمالة ـ هذا الهول الأعظم .

قال أحد شهود المعركة * : « وامتلأ الملأ بالأسرى والقتلى وقيدت الأسرى بالحبال وفرشت القتلى الوهاد والجبال . ولقد رأيت في الحبل الواحد ثلاثة وأربعين أسيرا يقودهم فارس ورأيت في بقعة واحدة مائة ومائتين يحميهم حارس . ورأيت الرؤوس طائرة والعيون غائرة والجسوم رسمتها السوافي . وأشلاء الملتقى ملقاة بالعراء ، عراة ممزقة ، مقطعة السهام مبعوجة البطون ، مقلصة الشفاه . . . »

كان ثمن هذا النصر الغالي ، غاليا حقا ، وعلى الطرفين ، لا في أهوال المعركة وحدها ولكن أيضا في المعارك المتصلة التي سبقتها وعلى مدى تسعين سنة مريرة مريرة .

فرص ضائعة

السنوات التسعون التي انقضت بين سنة ٤٩٢ هـ ، سنة احتلال الفرنجة للقدس وسنة ٥٨٣ هـ سنة تحريرها منهم ، شهدت مئات المعارك من مثل هذه المعركة الأخيرة ، ثم شهدت مئات المعارك بعدها خلال مائة سنة أخرى ، ما فترت المعارك أبدا ولا هدأ السيف . القوس السلجوقية البعيدة المرمى كانت على الدوام على موعد مع السيف الصليبي الحديدي الثقيل . والقتال سجال .

---

* هو العماد الأصفهاني .

هذا الثمن الغالي لحطين خاصة ، إنما دفعه المشرق الإسلامي لأنه أضاع قبلها أكثر من حطين . بلى ! أضاع على الأقل أربع فرص من أثمن الفرص لإنهاء هذا الوجود الفرنجي في البلاد ، واضطر بعد ذلك الى الانتظار الطويل ليحقق النصر الكبير الأول ، ثم ليحقق النصر الأخير . أأحدثك عن هذه الفرص الضائعة ؟ عن الحطينات التي ضاعت قبل حطين ؟ .

يوم وصل الفرنجة الصليبيون أول ما وصلوا الى الشام أطلوا عليه من الشمال . جاءوا من أوروبا عن طريق الأناضول ، ونزلوا أول ما نزلوا على انطاكية وحاصروها تسعة أشهر ، لا يستطيعون اختراق أسوارها .

قائدها المدافع عنها ياغي سيان مملوك تركي صمد للدفاع ، واستنجد بملوك البلاد حوله : برضوان ملك حلب ، وبأخيه دقاق ملك دمشق ، وبكر بوغا صاحب الموصل ، وبابن منفذ صاحب سيزر ، وابن ملاعب صاحب حمص ، بل وبالسلطان السلجوقي نفسه بركياروق ، وبالخليفة العباسي ، فما أنجده منهم أحد . وأخيرا حين صدر أمر السلطان السلجوقي الى كربوغا بجمع قوى الشام ومعونة ياغي سيان . وسار كربوغا متثاقلا يتلوّم ، وتوقف ثلاثة أسابيع أمام أسوار بلدة الرها ، واجتمعت اليه جميع قوى الشام حين وصل انطاكية ، ولكنه وصلها بعد ثلاثة أيام فقط من سقوطها ودخول الصليبيين إليها ! بطلها ياغي سيان قتل وهو يحاول النجاة ، وضرب كربوغا الحصار على المدينة الفارغة من المؤن ! وفيها أكثر من مائة ألف صليبي ، هم كل الحملة الأولى ، فسرعان ما دب فيها الجوع حتى أكلوا النعال والجلود وعشب الأرض ، وأقبلت أعداد من الصليبيين تهرب من الحصار ، هرب الجرذان من السفينة الغارقة . وحين وصل بعض الهاربين الى القسطنطينية وأوروبا أنذروا ببوار الحملة الصليبية الأولى كلها . قالوا لقد هلكت !

لم يكن ذلك غريباً . وقد أيقن به المحاصرون في انطاكية ، وبكوا مصيرهم . واعتمد عليه كربوغا فأقبل ينتظر انهيارهم ! حتى اذا خرجوا ذات يوم من أبوابها جموعا بائسة ! نصحه أصحابه باغتنام الفرصة لقتلهم دفعة بعد

دفعة . . . فرفض كان يريد ان يقتلهم دفعة واحدة ! فلما هجموا على جيشه المجموع هجمة واحدة يائسة هرب هذا الجيش كله . . . بلى ! هرب الجيش كله ! .

حطين الأولى كان ممكنا ان تكون في سهل العمق هناك بجوار انطاكية ، وعند الاطلالة الأولى للفرنجة على البلاد ولكن . . . ضاعت حطين الأولى !

الثانية : ووصل الفرنجة الصليبيون لفلسطين جموعا ناهبة دموية تحمل الصليب على الصدور ، وجنون الحقد والجشع في العيون والأيدي . واحتلوا القدس في مذبحة تكدست فيها الجثث أكواما في شوارع القدس وفي المسجد الأقصى . قالوا إنهم ذهبوا بسبعين ألفا من المسلمين ، وخاضوا في الدماء الى الركب !

بعد أشهر من هذا الاحتلال تحمل الفرنجة الصليبيون عائدين الى بلادهم . . . بلى ! تحملوا عائدين . لم يبق في فلسطين منهم سوى ثلاثمائة فارس ، وألفي محارب فقط . بقبضة من هولاء الفرسان احتل القائد الصليبي تانكريد : نابلس وبيسان وطبرية والجليل وهي من أملاك دمشق ، كما ضموا الرملة والخليل ، ونهبوا من هذه المناطق الثروات الهائلة . ولم يكن لهم من منفذ الى البحر ، إلا ممر ضيق عبر مرفأ يافا وكان خاوياً ، هرب أهله فاستغلوا المرفأ .

هل استغل ملك دمشق الفرصة ؟ هل استغلها خليفة مصر الفاطمي ؟ ما استغلها لا هذا ولا ذاك . ملك دمشق (دقاق) جاء أتابكه طغتكين الى طبريا قبل احتلالها فكان كل همه أن ينقذ نسخة مصحف عثمان رضي الله عنه منها . وأخذ المصحف . ودخل به في موكب حافل الى دمشق !! وأغلق الأبواب . وبلغ من جرأة الفرنجة على دمشق أن أرسل تانكريد اليها سفارة من ستة فرسان تحمل انذارا الى الملك دقاق باعتناق المسيحية ، أو ترك البلد ! وكان لدى دمشق عشرة آلاف فارس ، ولكنه الخوف على العرش شل الناس ، والقادة ، وضاعت الفرصة مرة أخرى في اقتلاع الفرنجة ، وضاعت حطين الثانية !

الثالثة : بعد ذلك بسنوات معدودة . وبعد أن ارتكب الفرنجة صنوف الوحشية في احتلال مدن الساحل الفلسطيني وقتلوا سكان أرسوف ، وأخذوا قيسارية بالسيف ، وذبحوا أهلها جميعا في المسجد الجامع المطل على البحر ، وقفت الخلافة الفاطمية في مصر للمقاومة . كان لديها خمسون ألف فارس فيما يقولون . أرسلت ثلاث حملات متتالية برية وبحرية معا : الأولى (في سبتمبر ١١٠١ م) بقيادة سعد الدولة القواسي (حاكم بيروت السابق) اتجهت الى الرملة . ولكن الوقت الطويل الذي أضاعته في عسقلان أعطى مملكة القدس الفرنجية فرصة الاستعداد لصدها ، وقتل القواسي في المعركة !

وتلتها الثانية (في مايو ١١٠٢ م قادها شرف المعالي ابن الوزير الأفضل ، وزير الخليفة ، كانت في عشرين ألف رجل . والتقت بالفرنج عند (يازور) قرب الرملة . في المعركة سحق الفرنجة في مقتلة عظيمة . وفر بعضهم الى يافا ولجأ بعضهم الى الرملة . واختفى ملك القدس في أجمة قصب فأحرقها المسلمون ، ولحقت النار ببعض جسده ففر بدوره الى الرملة . وكانت بلدا ضعيف التحصين . وكان في استطاعة المسلمين دخولها في غير عناء ليقبضوا على الملك الهارب ، ولكنهم اختلفوا ، ورأى فريق منهم الاتجاه الى يافا وفريق الاتجاه الى القدس ، فلا حامية في المملكة كلها !

وكانت الشمس تميل الى الغروب فأجلوا القرار الى الصباح . وفي الليل استطاع بلدوين الملك التنكر والهرب ، ساعده شيخ من شيوخ البدو في نوع من الشهامة ! . . ودخل الفاطميون الرملة ، وقتلوا فرسان الصليبيين اللاجئين فيها . قتلوا أربعمائة ، وأرسلوا ثلاثمائة الى مصر . وطاردوا الملك حين عرفوا فراره . ولكنه فاتهم ، ودخل أرسوف وكانت فرحة الفرنجة به غامرة . فلقد انتشرت الأخبار أنه قتل . وعرف بلدوين أن نجدات فرنجية وصلت في البحر

الى يافا فركب البحر اليها . كانت في مائتي سفينة . وقادها بلدوين ضد المسلمين الذين ضاعت عليهم الفرصة بالتردد ! وخسروا حطين الثالثة !

الحملة التالية التي أرسلها الوزير الأفضل الجمالي برا بقيادة (تاج العجم) في أربعة آلاف فارس ، وبحرا برئاسة القاضي (ابن قادوس) لم تستطع فعل شيء لأن كلا من القائدين رفض التعاون مع الآخر . واكتفى ابن قادوس بأن يأخذ خطوط أهل عسقلان ، وأقام على يافا عشرين يوما ، واستدعى اليه تاج العجم فلم يأته ، ولا أرسل رجلا ، وكفى الله المؤمنين القتال ! ونجت مملكة الفرنجة !

معركة الأقحوانة

الرابعة : وبعد سنوات تزيد على العشر ، صح عزم سلطان السلاجقة على الوقوف للفرنجة فكلف صاحب الموصل (الأمير مودود) القيام بذلك مع أمراء الشام الآخرين .

وصاحب الموصل الأمير مودود كان رجلا عرف بالتقوى والورع .قالوا عنه انه كان من خيار الملوك دينا وشجاعة وخيرا . وانه كان مأخوذا بفكرة الجهاد في سبيل الله . فجاء الى أواسط الشام بجيشه والتقى مع القوى الاسلامية الأخرى ، ومع صاحب دمشق ، وهو مملوك بعينين كالصقر وحيوية لا توجد إلا في مؤسسي الدول اسمه الاتابك طغتكين .

صحيح أن هذه القوى اعتصمت بقلعة شيزر في وسط الشام . واجتمعت بها في (١٥ سبتمبر ١١١١ م / ربيع الأول ٥٠٤ هـ) وضربت خيامها حتى على أسطح المنازل ، في حين اجتمعت جيوش الفرنجة الصليبيين جميعها من الرها وانطاكية وطرابلس والقدس لقتالها في ستة عشر ألف مقاتل ! وصحيح أن المناوشات التي قام بها فرسان المسلمين منعت الصليبيين من الوصول الى مياه نهر

العاصي للشرب ، لكن المعركة ظلت موقوفة معلقة !! . وتخاذل الطرفان فتسربا من القتال ! الشيء الايجابي الوحيد الذي تم في هذا اللقاء هو اتفاق مودود وطغتكين على « المصافاة والمعاهدة بينهما » ، وحمل طغتكين الى صاحبه والى بقية الأمراء ما كان معه من الهدايا لهم والتحف والحصن العربية السبق والاعلاق المصرية . . . » واتفق الاثنان على معاودة الجهاد معاً في السنة المقبلة ، ولكن اللقاء لم يتم إلا في عيد النحر أواخر سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م .

جاء مودود بجيوشه . وخرج طغتكين لملاقاته في أواسط سورية ، عند سلمية . وسلكا طريق سهل البقاع ووادي التيم الى بانياس المطلة على وادي الأردن . وبالغ طغتكين في اكرام صاحبه بأنواع « المأكول والملبوس والمركوب حتى نزل الطرفان على موقع الأقحوانة عند ضفاف طبرية . واجتمع الصليبيون في غربهم ، كل الصليبيين كانوا هناك ! .

ليس بين الاقحوانة وحطين في المدى الأرضي سوى كيلومترات معدودة ولكن بينهما في المدى الزمني ٧٧ سنة ! على أن المعركة كانت واحدة . (وتسرع خلق كثير من العسكر . . . ونشبت الحرب بين الطرفين من غير تأهب ولا ضرب خيام ولا استقرار في منزل ولا مجال . واختلط الفريقان . فمنح الله الكريم المسلمين النصر بعد ثلاث كرات . فقتل من الافرنج تقدير ألفي رجل من الأعيان ووجوه الأبطال والشجعان . وملكوا ما كان نصب من خيامهم والكنيسة المشهورة . وأفلت (الملك) بلدوين بعد ما قبض عليه ، وأخذ سلاحه . وملكت دواب الرجالة وما كان لهم . وغرق منهم كثير في البحيرة ، (بحيرة طبرية) واختلط الدم والماء وامتنع الناس من الشرب أياما ، حتى صفت منه وراقت . والتجأ من نجا من الافرنج الى طبرية وأكثرهم جرحى . كان ذلك يوم السبت الحادي عشر من محرم سنة ٥٠٧ هـ (٢٨ يونيه ١١١٣ م . . .) .

(ولحق المسلمون بالفلول المهزومة التي لجأت الى المرتفعات غربي طبرية ، وظلت قابعة هناك ستة وعشرين يوما والماء ممتنع عليها . واجتمع بدو

المنطقة عـازمين عـلى ابادتهم وان الـظفر قـد لاحت دلائله . والعدو قـد ذل وانخذل . وليس في فلسطين ولا في القدس من حاميات تحميها بعد ان سحقت في الأقحوانة، وبلغت طلائع المسلمين بيت المقدس ويافا . وأخربت أعمالها واستاقت مواشيها وغنمت ما وجدته فيها . . . ودامت هذه الحال حتى آخر شهر صفر . . .) .

لكن الجيش الاسلامي اكتفى بالمناوشات . لم يكمل الفتح « اكتفوا بارسال العسكر جرائد من بضع عشر كردوسة في سهول فلسطين . والصليبيون في الجبل لا يظهرون للحرب . ولازم بعضهم بعضا . الفارس والراجل في مكان واحد لا يظهر منهم شخص . وجعل المسلمون يحملون عليهم فيصيبون منهم بالنشاب ما يقرب منهم ، ويمنعون المسيرة والعلوفة عنهم وقد أحدقوا بهم كالنطاق . وقد رحلوا عن منزلهم في ثلاثة أيام لكنهم اضطروا للعودة اليه . . »

وبقي المسلمون ينتظرون !

« لم يبق في بلاد الفرنج مسلم الا وأنفذ يلتمس الأمان من الأتابك طغتكين ، ووصل اليه بعض ضرائب نابلس . ونهبت بيسان ولم يبق بين عكا والقدس ضيعة عامرة ، والافرنج على حالهم متربعون والمسلمون على حالهم . . » لا يتحركون لاستثمار النصر ! وأخيرا قرروا العودة ! ونجت مملكة الفرنجة !

وأفلتت الفرصة . . . فرصة حطين المبكرة !

خناجر الليل

أفلتت حين استطاع طغتكين اقناع مودود بالعودة الى دمشق ومعاودة القتال في السنة التالية . ولكنهما لم يعودا للقتال أبدا . فبعد أشهر معدودة كان مودود قتيلاً في صحن الجامع الأموي بدمشق بخنجر الاسماعيلية . وامتدت أصابع الاتهام الى طغتكين ! لقد خشي هذا المملوك الداهية أن ينتصر مودود على

الصليبيين فيختطف منه امارة دمشق ! .

ولم تكن معركة الأقحوانة هذه فرصة ضائعة فحسب لكنها أنتجت أمراً أشد خطراً من ذلك بكثير .

فقد أعطت ملك القدس الزعامة الفعلية لجميع فرنجة المشرق . صار بعدها القائد الأعلى للقوات ، والزعيم الأوحد الذي يدين له بالطاعة أمراء الرها وانطاكية وطرابلس . وثبتت قواعد الفرنجة سنين طويلة جدا امتدت حتى سنة ١١٨٧ م . صار الصليبيون بعد ذلك جبهة متماسكة على الرغم من قيامها على قواعد اقطاعية ، واستمر تماسك هذه الجبهة وغلابها المرير للمسلمين بعد ذلك سبعين سنة .

جميع قصة الصليبيات التي امتدت مائتي سنة ، إنما تبدأ بهذه الفرص الضائعة . ولئن ضاع غيرها فقد كانت هي الأبرز والأخطر .

لقد ضاعت الأولى بحقد الأخ على أخيه وخوف الأخ من أخيه .

وضاعت الثانية نتيجة الجهل بقوى العدو والرعب الوهمي منه !

وضاعت الثالثة بالتردد وعدم اهتبال الفرصة .

وضاعت الرابعة بالمجان . . . ضاعت القدس لأن طغتكين خشي ان تضيع منه دمشق !

أربع مرات ارتسمت فيها حطين في الأفق ثم امحت . أربع فرص ضائعة كان في كل منها إمكان انتصار حطين قبل حطين ، كان حطين التي لم تكتمل . وبقدر ما كانت الفرص الضائعة تكثر كانت حطين تبتعد ، وبقدر ما كان « صلاح الدينات » الآخرون يخفقون كان صلاح الدين الأخير يتأخر .

درجات السلم

وهكذا استمرت حطين الحقيقية تنتظر تسعين سنة حتى اكتملت في يوم واحد . .

اليوم الأخير (السبت ١٠ يوليو ١١٨٧ م) كان تلخيصا لآلام السنوات التسعين السابقة وان لم يكن انتقاماً لآلامها . كان نهاية خط المقاومة المتصاعد باستمرار .

فكما كانت هناك حطينات عديدة ضائعة قبل حطين . كان هناك « صلاح الدينون » عديدون ضائعون قبل صلاح الدين . إن بطولته الرائعة لا يجب ان تحجب بطولات سابقة عديدة ظهرت قبله . فما كان صلاح الدين « واحدا » فردا ولكنه « صلاح الدينون » كثيرون على امتداد مائتي سنة . وما كان هذا « الصلاح » إلا تطويرا لهم وحلقة من حلقاتهم ، وان قطفت في النتيجة ثمار تجارب الآخرين وبطولاتهم . إنه البطولة البارزة في خط ممدود من رجال المقاومة ، ومن البطولات بدأ مع بدء الحروب الصليبية واستمر حتى ما بعد نهايتها . في هذا الخط تظهر سلسلة مجهولة طوتها الكتب والصفحات من كبار قواد المقاومة . وحده صلاح الدين خرج على الصف ، ترك الأسطر ، ليعيش في ذاكرتنا وخيالنا رمزا بطوليا ، لأنه أخيرا حرر القدس ! وأعاد معظم أرض الاسلام الى الاسلام .

في هذه السلسلة يأتي قبله زعماء الموصل : كربوغا ، جكرمش ، جاولي ، مودود ، اقسنقر البرسقي ، وعماد الدين زنكي ، ثم ابنه نور الدين ، ويأتي من الجزيرة سقمان ، وايلغازي بن ارتق ، وبرسق ، وبلك ، ونجم الدين البي ، ويأتي طغتكين واسماعيل وانر في دمشق ، وعلي كوجك ، ومظفر الدين كوكبري في اربل وحران ، ويأتي الأفضل الجمالي ، والوزير المأمون ، ورضوان الولخشي من مصر .

هل يتذكر أحد هذه الأسماء التي كانت درجات السلم الى حطين ، وكانت الخطوات السابقة لصلاح الدين قبل صلاح الدين ؟ هل يذكر ذاكر ان على أكتافها صعد صلاح الدين الى قمته وتربع ؟ إنها مشاريع أولى لصلاح الدين ، كانت تظهر وتتألق حينا من الوقت ، ثم تنطفيء في مستنقع العطالة العامة

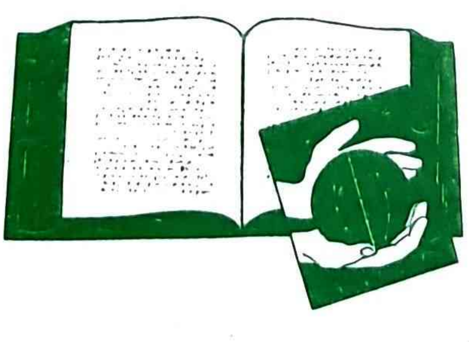
والتناثر المدمر ، والارهاصات التي تحاول وتفشل حتى اكتملت تدريجيا في عماد الدين زنكي ، ثم في ابنه نور الدين محمود وأخيرا في صلاح الدين !

القائد والفرصة السانحة

ان حطين لم تكتمل إلا حين التقى القائد العبقري بالفرصة السانحة . وصورة صلاح الدين المهيمنة في التاريخ وفي الأخيلة ، موجات من الألوية المظفرة ، ليست أكثر من هذا اللقاء . السابقون له كانوا محاولات لم تكتمل ، أو لم تسنح لها الفرص . وقد عرضت فرص كثيرة ، لكن لم يكن هناك صلاح الدين بعبقريته الحربية ليستغلها .

انه شيء من التاريخ ، هذا الذي نسرده ، ونرويه ، ونعيد ذكره وتذكره . ولقد يكذبه رفضنا الدائم للمقولة الشائعة بأن التاريخ يعيد نفسه ، وانه لا جديد تحت الشمس . ولكنه قد يضع أمامنا بشكل أفضل واجبات وتضحيات المستقبل التي لا بد منها .

وإنها لمآس وتضحيات تزلزل الحجارة تلك التي تنتظرنا في الغد . حطين المقبلة سوف تكون قطعا من الجحيم تنفجر في الأرض والناس . وكأني أرى من خلال الغيب ، الطرق من كل العواصم العربية الى القدس مفروشة بالأشلاء الغالية ، وبالجماجم انطفأت منها العيون ونبت العشب فوق أضلاعها . □□



الفصل الثاني

شيء من التاريخ

ملكة دمشق المنسية : صفوة الملك زمرد خاتون

في التاريخ الاسلامي نسوة كثيرات مشهورات . كتب كثيرة كتبت عنهن . معاجم صنفت . أحاديث من الأحاديث صيغت . فهل سمعت بينهن اسم صفوة الملك زمرد خاتون ؟ أغلب الظن أنك لم تسمع . ولقد تعجب إن عرفت بعد هذا أنها ملكة وابنة ملك . وأخت ملك ، وزوجة ملكين ، وأم ملكين وجدة ملك !! وأين هؤلاء جميعا ؟ وأين عرشها وعروشهم ؟ في دمشق ! بلى ! في دمشق ! ومنذ حوالي تسعة قرون . . . ومع ذلك فقد لفها النسيان . داسها حتى قبل أن تموت . هل أحدثك الخبر القديم ؟

نحن في غمرة الحروب الصليبية وعلى التحديد في الفترة الأولى منها ، في الثلاثينيات من القرن الثاني عشر الميلادي (حوالي سنة ٥٣٠ هـ) .

كان قد مضى على احتلال الفرنجة للقدس قرابة الأربعين سنة . وكانوا قد انشأوا الامارات الغربية على طول الساحل الشامي ، يحسبون أنهم قد تملكوه الى الأبد . فملك منهم في القدس وأمير في طرابلس وآخر في انطاكية وثالث في الرها بأقصى الشمال . وجاء وقت كان السلام فيه في أيديهم ، وكانت الحرب ايضا ، وفرض الهدنات والأتاوات والتحكم بالتجارة والقوافل ، وفرض الغزوات المدمرة على القرى والناس . كل ما بقي من الشام خارج أيديهم هو

ذلك الخطر الداخلي من المدن ما بين حلب وحمص ودمشق . كل حركات المقاومة الاسلامية كانت تفشل أمام فرسانهم ذوي السيوف الحديدية الثقيلة ، ومدد الرجال والمال الذي كان يأتيهم عبر البحر من الغرب .

أما أمراء الشام فكانوا نثيرا من القوى « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى . » كل متسلط فرح بالمدينة التي تحت يديه . أقصى أمانيه أن يزول ملك أخيه ليتخلص منه ، ولقد يتفق مع الفرنجة ضده ويهادن الفرنجة ليتفرغ له .

فاذا رضي الله عليهم واتفقت كلمة اثنين منهم على الجهاد معا ، لم يلبثا بعد المعركة الأولى أن يتفرقا ، ويعود أحدهما الى هدنة الكفار والآخر الى الحرد والانتظار .

ماض في الملكية

وظهر في أفق المقاومة ، بعد خمس وثلاثين سنة من الاحتلال الصليبي نجم جديد اجتذب الأنظار ، إنه عماد الدين زنكي ، صاحب الموصل وحلب . وضع الرجل في همه أمرا واحدا هو : توحيد القوى الاسلامية بأي ثمن . ونجح في الخطوة الاولى حين وحد الموصل مع حلب تحت قيادته وبأمره . ثم أضاف الى ذلك حماه ثم حمص . وبقيت أمامه دمشق ، ولكن دمشق كانت يومذاك في شغل آخر عن هذا الهدف البعيد .

كان يحكمها منذ مطلع الحروب الصليبية وحتى يوم ظهور زنكي قائد تركي من مماليك السلاجقة الأشداء اسمه ظهر الدين طغتكين واسمه يعني الباز المحارب ولقد حارب طغتكين الفرنجة . ولكن على طريقته في المبادرة الفردية وفي الحرب تارة والهدنة اخرى ، لكنه انطفأ انطفاءة الموت بعد شهرين فقط من بروز اسم زنكي في الشمال ، في حلب ، تاركا الحكم لابنه بوري (اي الذئب) الذي لم يكن ذئبا بالفعل ، ولا بقى في الدست سوى سنوات اربع ، وجاء من بعده اولاده .

أين مكان صفوة الملك زمرد من هذا الحديث التاريخي الطويل ؟ صفوة الملك كانت زوجة بوري هذا . . . وقبل الزواج منه كان لها ماض في الملكية طويل . فأبوها هو الامير جاولي صاحب القدس * وعمها اتسز كان ملك دمشق كما كان الملك تتش بن الب ارسلان زوج امها ، وصاحب دمشق من بعد . وكان أخوها لأمها دقاق ملك هذا البلد يوم وصل الصليبيون (سنة ٤٩٣/ ١٠٩٩ م) بلاد الشام . ثم تزوجت من بوري ابن طغتكين وملكت معه مملكة دمشق سنوات ، فلما مات تسلم الحكم ابنها الأول : اسماعيل .

يوم نصب زنكي شباكه لأخذ دمشق (قبيل سنة ٥٣٠هـ / ١١٣٥ م) يحاصرها تارة ويهادنها أخرى ويغير على أطرافها الشمالية تارات ، يومذاك كان اسماعيل فيها هو الملك ، شبابه كان جرأة تبلغ حد التهور ، وغروره كان يصل حد الحمق ؛ ومع أنه صار من التعسف والوسواس وسوء الظن والسيرة بحيث كان الحاكم البغيض الكريه ، إلا أن القواد والحاشية وكبار أهل البلد كانوا من قصر النظر ومن الخوف على ما بأيديهم من المصالح ومن انتهاب الناس بحيث فضلوه على زنكي وظلوا وقوفا وراءه .

الابن القتيل

المؤرخ الدمشقي ابن القلانسي كان أحد كتاب هذا الملك وقد كتب عنه يقول : « بتناهيه في ارتكاب القبائح والمنكرات وايغاله في اكتساب المآثر

---

* جاولي صاحب القدس هذا كان شقيق اتسز الخوارزمي الذي أسس لنفسه مملكة في الشام الجنوبي كله تقريبا وعاصمتها دمشق سنة ٤٦٧ هـ/ ١٠٧٥ م ثم اختطفها منه الملك السلجوقي تتش بن الب ارسلان سنة ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م وقتله غدرا ، وتزوج من امرأة جاولي والدة زمرد خاتون فولدت له ابنه دقاق الذي كان ملك دمشق ايام الحملة الصليبية الاولى على الشام .



المحظورات الدالة على فساد التصور والعقل وظهور الجهل وحب الظلم وعدوله عما عرف عنه (من قبل) من مضاء العزيمة في مصالح الدين والمسارعة الى الجهاد في الأعداء . وشرع في مصادرات المترفة والعمال والمستخدمين في الأعمال ، واستخدم بين يديه (رجلا) يعرف ببدرا الكافر ، لا يرقب في مؤمن ولاء ولا ذمة ، ونصبه لاستخراج مال المصادرين من المتصرفين والأخيار المستورين بفنون قبيحة اخترعها في العقوبات وأنواع مستبشعة في التهديد لهم والمخاطبات » مع كل ذلك فان قواد الملك اسماعيل واعوانه كانوا مشغولين بالتناهب وبالدسائس الداخلية عن الوحدة وعن الجهاد وخطر الكفار . ولم يستطع زنكي أن يجد معينا له في دمشق من أجل الوحدة ، الى أن تطورت الامور في دمشق التطور المفاجيء !

وجاء الى الملكة الأم صفوة الملك ساع يسعى ، همس في اذنها ان ابنها اسماعيل يستريب في سيرتها ويتهمها ببعض القواد !!

وجن جنون العجوز التي كانت تقارب الستين.كانت السعاية مقصودة حاكها علية القوم من الامراء والمقدمين ووجوه العسكر ومقدمي الضياع ، حين علموا ان اسماعيل نفسه قد كاتب زنكي ليسلمه البلد ، واذا تسلمها ضاعوا

وضاعت مصالحهم وأموالهم !

وبعد ايام شهدت قلعة دمشق مشهدا فريدا لم نعرفه من قبل ولا من بعد : الملكة - الام صفوة الملك واقفة في صدر قاعة العرش ومماليكها يمزقون ابنها الملك بالسيوف وهو يستغيث .

- زنهار ! زنهار ! (أمان ! امان)

وهي وجه كالصخرة قد جمدت عليه كل العواطف !

وحين همدت الاشلاء استدعت الناس ليروا الجثة ثم نصبت للملك ابنها الآخر : شهاب الدين محمود ! ولكنها منذ تلك اللحظة صارت معه صاحبة الأمر والنهي ، ووقفت تنافح زنكي وتدافعه عن البلد !

أغلقوا باب دمشق

وخطرت للأتابك زنكي خاطرة سياسية شيطانية : لماذا لا يتزوجها ويكسب دمشق ؟ كان الزواج السياسي بعض أساليبه ! وأرسل يخطبها بالفعل وترددت المراسلات سرا أول الأمر ثم ضج البلد بالخبر وبان أن العجوز لا تمانع ، حتى كبار قواد المملكة وجدوا في ذلك الخلاص من يدها القوية فباركوا قبولها . وندب من دمشق وفد قصد مخيم الأتابك زنكي عند حمص ليتولى العقد . ولكنهم ما أن جهزوا الملكة وأخرجوها لعريسها المنتظر هناك حتى اغلقوا ابواب دمشق دونه ودونها !

ورأى زنكي أنه لم يظفر من هذه الصفقة المناورة بغير العجوز فأرسلها الى حلب تنتظر ، وهناك بدأت الغرق في هوة النسيان .

بعد سنة من ذلك قتل ابنها محمود في فراشه بقلعة دمشق ، في مؤامرة من اخيه غير الشقيق محمد ، فتقطعت آخر أسبابها مع دمشق . ومع أنها حرضت زوجها زنكي على أخذ البلد ، ومع أنه اراد انتهاز هذه الفرصة ، إلا ان نتيجة المحاولة لم تكن اكثر من احتلال بعلبك من أعمال دمشق .

ولم يعد احد يهتم بصفوة الملك التي قضت بعد ذلك ثماني سنوات من الوحدة والاهمال في حلب ، لا يهتم بها احد حتى ولا الزوج زنكي ، فلما قتل في حصاره لبعض قلاع الفرات لم يبق لها مقام حتى في حلب . فانطلقت الى دمشق ولكن الدنيا والناس كانت قد تغيرت ، فقررت الحج عن طريق بغداد لعل ولعل . ولكنها لم تلق في العاصمة العباسية الترحاب الذي كانت ترجو ، فلما انقضى الحج بقيت في المدينة المنورة لعلها تجد في جوار القبر النبوي بعض العزاء والسلوان .

ومضت الأيام . مضت السنون . وعفا النسيان على كل خبر لهذه المرأة . واولئك الرجال المعدودون الذين شيعوا الى مقبرة البقيع ذات يوم من سنة ٥٥٧ هـ/ ١١٦١ م جثمان العجوز الفقيرة التي عرفوها تغربل القمح للناس كي تعيش ، وتخدم الناس كي تأكل ، مع أنها في جوار التسعين . نسوها بسرعة . قلائل من اولئك المشيعين المعدودين كانوا يعرفون أنها هي نفسها الملكة زمرد خاتون صفوة الملك ، ملكة دمشق !

يبقى أن تعلم بعد هذا كله أمرا آخر هو الذي أبقى على ذكر هذه المرأة في التاريخ وخلق كل الأعذار لجريمتها البنوية . بل أتى لها بالثناء والدعاء عدة قرون بعد أن غمرها النسيان المطلق . لم يكن ذاك علمها ولو أنها سمعت الحديث واستنسخت الكتب وقرأت القرآن وبنت مسجدا كبيرا غربي دمشق عرف بمسجد الأصحاب ، ولكنه كان عملا آخر أجل وأبقى . لقد بنت في دمشق مدرسة للفقه كانت أكبر مدارس الحنفية وأكثرها أوقافا وأجودها رزقا . أجيال بعد اجيال من العلماء والطلاب ظلوا ينعمون بآلاء هذه المرأة عدة قرون ، ويدعون لها بالخير .

وكان هذا خيرا لها من كل أنسابها الملكية ! □□

حول تاريخ الكويت .. خبر جديد

الذين لاحقوا ظلمات المجهول في تاريخ الكويت الأول ، وجعلوا يبددونها باليسير من الأخبار الشفهية تارة وبالمنطق الفكرى تارة أخرى ، وبالمقارنة والاستنتاج ثالثة ، أو ببعض النتف من روايات المؤرخين السابقين أو الرحالة الأوروبيين أو تقارير المندوبين السياسيين أو التجاريين . . . كل هؤلاء استطاعوا بعد الجهد ، أن يرسموا من تاريخها الأول مالا يعدو في خلاصته فقرات تغطي ما بين أواخر القرنين السابع عشر والثامن عشر .

لملموا الاشارات التي ذكرها القناعي والرشيد والنبهاني وابن سند والشملان فقالوا : إن الكويت بدأت الظهور في أواخر القرن السابع عشر (حوالي سنة ١٦٨٢م ١١٠٠هـ) وافترضوا أنها نشأت مركزا صغيرا للصيادين بعد أن أقام بعض الأمراء من بني خالد « كوتا » أو حصنا في « القرين » الجزيرة المتاخمة للشاطيء . وجاءت قبائل العتوب مهاجرة تأهل الساحل الشرقي للجزيرة العربية منذ مطلع القرن الثامن عشر فاستقر قسم منها في هذا الموقع . وجمع الباحثون من الأسطر القليلة التي وردت هنا وهناك في سجلات شركة الهند الشرقية (الانكليزية) وفي تقارير الرحالة والمندوبين ، ليقولوا إن سعدون بن

العربي ـ العدد ٢٤٨ ـ يوليو (تموز) ١٩٧٩م .

محمد بن غرير حكم الموقع في مطلع القرن الثامن عشر ، وتوفي سنة ١٧٢٢ ليصطرع أفراد أسرته على الحكم . ومنذ أواسط القرن (١٧٥٢) اختار أهل الكويت صباح بن جابر شيخا على البلد وأعقبه بعد عشر سنوات ابنه عبد الله بن صباح الذى استمر في السلطة خمسين سنة . وفي أوائل عهده (بين سنة ١٧٦٠ - ١٧٧٠) صار للكويت سور من الطين . وكان فيها من القضاة محمد بن فيروز (المتوفى سنة ١٨٠١) وبعض آل العدساني ، وفيها جامع بن بحر الذى عثر على وثيقة بتجديد بنائه تعود الى سنة ١١٦٣هـ / ١٧٤٥م .

أما السبب في نشأة البلد ثم ازدهاره ، فتجد تفسيره السهل المنطقي لدى الباحثين ، في رغبة التجارة الأوروبية ما بين الهند وأوروبا في الهرب من مشاكل البصرة ومن ضرائبها الباهظة في تلك الأيام الى موقع آخر يؤمن الصلة بين الطريق البحرى في الخليج وبين الطريق البرى المؤدى الى بغداد مباشرة والى حلب . . . وهكذا كان الصيادون ثم الغواصون على اللؤلؤ ثم التجار أو وسطاء التجارة والناقلون لها ، هم الذين لعبوا الدور الأساسي في وجود البلد وفي نموه وحياته ، كما كان شيخه هو حامي البلد والقوافل . وقد زاد في شأن الكويت ونشاطها ما اجتاح البصرة من الجوائح في الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، فتارة جاءها الطاعون فلم يترك بها إلا المئات من الوجوه الصفراء . وتارة هاجمها الفرس فهي في الاحتلال والابتزاز . وثالثة قامت فيها الفتن فبعضها يفتك ببعض . وهربت سفن التجارة من مرافئها لتبحث عن منزل آمن آخر لتجارتها الهندية مع الشرق العثماني وأوروبا ، وكانت الكويت هي ذلك المنزل الآمن .

وجه لم يذكر

عدا هذه الفقرات المحدودة ، والتي أضحت معروفة متداولة ، ليس ثمة شيء هام آخر نعرفه عن تاريخ الكويت خلال القرن الأول من وجودها ، وهذه

الفقرات تتصل جميعا بأمرين : التجارة والموقع وأثرهما في نشأة البلد ثم قيام نظام أو مشيخة للحكم فيها .

على أن ثمة جزءا جديدا حول ذلك التاريخ الأول لم يذكر في المعلومات المتداولة بعد . إنه نص كان الى ما قبل أشهر ، دفينا في مخطوط منسي لم يطلع عليه أحد ولا دخل في صورة الكويت التاريخية القديمة ، رغم شأنه وطرافته . النص الجديد الذى نلفت اليه الأنظار لا يتصل بهذا أو بذاك من أمر التجارة أو أمر الحكم في أيام الكويت الأولى ، ولكنه يتصل بأمر آخر ليس أقل شأنا من الأمرين الآخرين ، إنه يلقي بعض الضوء على الحياة الدينية والثقافية والاجتماعية للكويت في أوائل عهد الشيخ عبد الله الصباح .

يقول النص : « .... وقع الطاعون (في البصرة) فخرجت بعيالي الى قصبة سيدنا الزبير رضي الله عنه . فانكب عليَّ أهلها واستروا (وسروا) بقدومي عليهم وأكرموني بما قدروا عليه . وسألوني أن أقرأ الحديث . فقرأنا البخارى كل عصر في جامع سيدنا الزبير ، حتى وقع الطاعون في القصبة ، فخرجت الى الكويت وخرج معي جماعة ، والكويت بلدة على ساحل البحر والمسافة ستة أيام برا فدخلتها وأكرمني أهلها (اكراما) عظيما . وهم أهل صلاح وعفة وديانة ، وفيها أربعة عشر جامعا ، وفيها مسجدان ، والكل في أوقات الصلوات الخمس تملأ من المصلين . أقمت فيها شهرا لم أسأل فيها عن بيع أو شراء ونحوهما بل أسأل عن صيام وصلاة وصدقة . وكذلك نساؤها ذوات ديانة في الغاية . وقرأت فيها الحديث في ستة جوامع . نقرأ في الجامع يومين أو ثلاثة فيضيق من كثرة المستمعين فيلتمسون منى الانتقال الى أكبر منه . وهكذا حتى استقر الدرس في جامع ابن بحر[1] .

---

(١) جامع ابن بحر مايزال موجودا قائما في الكويت على شارع الخليج العربي مطلا على البحر . ويسمى جامع الابراهيم أيضا . وهناك جامع آخر يحمل اسم ابن بحر يقوم على مقربة من الأول في مدخل سوق الخضار ويجري حاليا تجديد بنائه .

« وهو جامع كبير على البحر كجامع القمرية »[٢] في بغداد وجاء الطاعون اليها ولكنه لم يكبر ولم تطل أيامه .

« ولما تواترت الأخبار بانقطاع الطاعون عن البصرة أردت الرجوع اليها فقدموا لي سفينة كبيرة وأنزلوني أنا وعيالي . لم ينقص الطاعون - ببركة حديث المصطفى - منا أحدا ونزل في المركب معي من أكابر الكويت أناس بقصد التبرك بخدمتي ورفقتي . ونزل معي جميع من كان في الكويت من أهل البصرة بلا نول (أجرة) وصاحب المركب يخدمنا بنفسه .

وجرينا ببركة الله تعالى ونحن في أحسن عبادة ، مشغولون نهارنا بمذاكرة العلم وتعليم البحرية الذين معنا أمور دينهم . ولم يتفق لنا يوم نكرهه . ولم يتفق أنّا صلينا احدى الصلوات الخمس فرادى من حين نزلنا في المركب الى حين خرجنا . وكان نيتي أن لا أقيم في البصرة إلا قدر انتظار الرفيق لقطعنا (لثقتنا) بأن الطاعون ارتفع من بغداد .

فلما قطعنا البحر نزلنا ليلة وصولنا البصرة في السراجي[٣] . . . »

عمره ٢٠٠ سنة

متى كتب هذا الكلام ؟ ومن هو صاحبه ؟

كتب هذا النص في سنة ١٧٧٢ أي قبل أكثر من مائتي سنة . كتبه المؤرخ العراقي عبد الرحمن بن عبد الله السويدي البغدادي المتوفى سنة ١٧٨٥م

---

(٢) جامع القمرية هو ثاني جامعين اثنين هما أقدم الجوامع الباقية في بغداد . أتم بناءه الخليفة المستنصر العباسي سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م (قبل سقوط بغداد بثلاثين سنة ويبدو أن جامع بن بحر حين جدد في الكويت سنة ١١٥٨/ ١٧٤٥م بني على مثال جامع القمرية البغدادي .

(٣) السراجي قرية على بعد ٣ كيلومترات من البصرة كانت مرفأ السفن الكبيرة وتقوم على نهر يحمل اسمها ويتفرع من شط العرب وتحمل فيه البضائع منها في المراكب والزوارق الى البصرة .

(١٢٠٠هـ) ضمن رسالة تحدث فيها عن الحوادث التي شهدها في بغداد والبصرة في أواخر حياته ما بين سنتي ١٧٧٢م - ١٧٧٨م . وكانت في مخطوط فريد . بخط السويدي نفسه ، منسي في خزانة الكتب بجامع الشيخ عبد القادر الكيلاني ببغداد . وللرجل كتب أخرى عديدة ونشاط علمي وسياسي معروف في بغداد لعهده . وقد ضرب العراق في سنة ١٧٧٢ طاعون جارف ألقى الجثث في الطرقات ، وكان السويدي بين الهاربين من مدينة الموت الى البصرة أولا ، فلما دمدم الطاعون في البصرة هرب مرة أخرى بعياله الى الزبير ، فلما دهمها بدورها الوباء هرب الى الكويت ، والوباء يحصد عشرات الألوف وراءه . وحين عاد ناجيا مع أهله ، كتب خبر هذا الهرب وما بعده[٤] . وفي هذا الخبر سجل ، من خلال اهتماماته الثقافية صورة الكويت التي رأى سنة ١٧٧٢ .

وفي الصورة التي رسمها السويدي اضافة جديدة الى تاريخ البلد . وتحديد لبعض الملامح في السكان والوضع الاجتماعي . إن وجود ١٤ جامعا ومسجدين قد يسمح بالتأكيد بأن سكانه لم يكونوا يقلون في تلك الفترة عن عشرة آلاف الى اثني عشر ألفا . وهو رقم ليس بالقليل لتلك الأيام ، يتفق مع الرقم الذي قدره (نيبور) الزائر الآخر الأجنبي الذي زار الكويت بعد السويدي بثلاثة أعوام ، فقدر السكان بعشرة آلاف ، وأسطول الصيد الكويتي بثمان مائة مركب .

لكل أسرة جامعها

ومن المحتمل جدا أن تكون تلك الجوامع من المساجد موزعة حسب مناطق سكنى الأسر الكبيرة التي كانت تشكل قاعدة الكويت السكانية . فهي

---

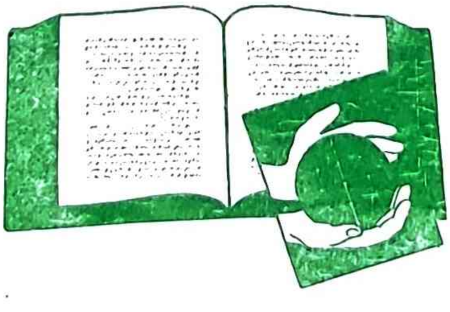
(٤) عثر على هذا المخطوط ونشره الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف وقدم له بمقدمة جيدة مع التحقيق والتعليقات الحسنة بعنوان : (تاريخ حوادث بغداد والبصرة من سنة ١١٨٦هـ/ ١٧٧٢ - ١٧٧٨ م) وطبعته وزارة الثقافة والفنون في بغداد سنة ١٩٧٨ .

اذن حوالي ١٤ أسرة كبيرة ، ولكل أسرة جامعها الذي بنته في موقع سكناها . ولعل كثرة هذه الجوامع إنما نجمت عن تنافس هذه الأسر في التدين ورغبتها في التوازي لاسيما وان ثرواتها نابعة جميعا من منبعين مشتركين هما البحر (صيدا وتجارة) والبر (نقلا ووساطة وحماية) .

وعلى أي حال فإن وجود هذا العدد الواسع من الجوامع ينبيء عن وجود حياة حضرية طويلة الاستقرار قبل ذلك . وتكاثر الحاضرين المتزايد لدروس الشيخ في الحديث النبوي ، وأسئلة الناس المركزة على العبادات لا المعاملات والاقبال على المذاكرة في أمور الدين حتى على المركب ، وتعليم الملاحين عليه ، كل ذلك يكشف جانبا من العطش العلمي ومن الحياة الثقافية النامية في البلد . كما ان امتلاء الجوامع بالمصلين في أوقات الصلوات وما وصف به السكان نساء ورجالا من الصلاح والفقه والدين ، وتبرع بعضهم بمركب كبير لنقل الشيخ الى البصرة ونزول من نزل مع الشيخ في المركب للتبرك بالخدمة والمرافقة أو للسفر مجانا ، يكشف بدوره القيم الدينية الخلقية للناس وطابع البلد المتسم - وهو في مراحل نموه الأولى - بالتقى الواضح وبالتعاون وعرفان النعمة .

ولقد تكون أخبار الطاعون الرهيبة قد تركت ميسمها على تصرف الناس في تلك الظروف ، وزادت في بروز الطابع الديني للبلد على حساب الطابع التجاري . . . بلى . . ولكن هل يمكن ان تكون هي التي بنت الجوامع وخلقت من العدم تلك التصرفات ؟ .

إن الصورة التي قدمها السويدي هي على صغرها خبر خاطف طريف ، معبر . وحين تشع مثل هذه النصوص ، في ظلمات الماضي المجهول ، فإنما تقول إنه لايزال ثمة الكثير مما لا تعلمون . □□



الحلم الذي مات في مدين

قبل ما يزيد على مائة سنة ، وبالضبط سنة ١٨٧٨ نزل الى السوق في لندن كتاب بعنوان « مناجم الذهب في مدين وخرائب المدن المدينية » . بعد سنة أخرى لحقه كتاب آخر بعنوان « أرض مدين » صاحب الكتابين واسمه ريتشارد بورتون ، كان أحد قناصل انكلترا في دمشق وفي بعض مدن الشرق العربي - العثماني - سنين طويلة .

لم يتنبه للكتابين - فيما عدا المهووسين بالشرق - أحد . ومن ذا الذي يهمه أن يقرأ عن أمواج الصخور الموحشة ، وعن موت السراب على الرمال في بعض الزوايا المنسية من الشرق ؟ صحيح أن كلمة « مدين » التوراتية تحمل شيئا من وقع أقدام الأنبياء ، من نواح القوافل القديمة على الونى ، من سحر الشرق العجائبي ، ولكنها في تلك الأيام لم تكن أكثر من أبعاد ترتجف الوحشة عليها وتضل الأصداء فيها ، في وديان تركض وراء وديان . بلى قد يكون بعض المتدينين أو بعض الاستعماريين عرف الكتابين مجرد معرفة ، ولعل بعضهم قرأ منهما عددا من الصفحات ، ولكن رجلا واحدا فقط هو الذي التقط الكتابين ، وشق اسطرهما في لهفة من سحقه العطش سنوات . قرأ . حفظ . درس ثم

العربي - العدد ٢٥٧ - ابريل (نيسان) ١٩٨٠م .

درس « إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر . . » وبنى على أساس الكتابين مشروع دولة !

هل هو هوس ؟

أهو نوع من الهوس ؟ قد يكون ! ولكن الرجل خطط المشروع بالفعل ثم قضى في التحضير له وفي الاتصالات سنوات ، ثم قضى في التنفيذ والمعاناة سنوات أخرى مثلها . وأنفق فيما بين هذا وذاك مائة وسبعين ألف مارك ذهبي ، كانت في تلك الوقت ثروة ضخمة وهي تعدل اليوم الملايين عددا . ولكن ما قصة كل ذلك ؟

أما أرض مدين فمعروفة . إنها أرضنا التي تصل ما بين أرضينا المقدستين في فلسطين والحرمين ، والممتدة بين العقبة ومرفأ الوجه على البحر الأحمر . وأما صاحب المشروع فهو بول فريدمان . . يهودى ألماني عتيق من مدينة كونيكسبورغ ، زعم أنه اعتنق المسيحية البروتستانية وتعمد في الكنيسة ، ولكن يهوديته بقيت تحت جلده ووراء الصدر والروح ، وأما المشروع فكان أحد الأحلام الصهيونية ، لا يذكره إلا الباحثون في الجذور والنابشون في الحفائر عن المشاريع الأولى .

كان فريدمان عزبا وعلى شيء من الثراء سمح له بالرحلة والأسفار والاحسان ، وبالقيام ببعض ما سماه بالأبحاث التاريخية في فيينا وفي باريس ولندن . وبمساعدة اليهود الروس في محاولة لحل مشاكلهم وبدراسة الحفريات الأثرية بفلسطين لعل فيها نسيم التراث اليهودى . ومنذ وقع الرجل على كتابي بورتون حسب أنه وقع على هدف لحياته . . هدف يمنحه تلك الحياة . كانت المغامرات الاستعمارية من أمثال مغامرات (رودوس) وكتشنر وغيرهما هي « موضة » العصر في تلك الأيام . وغرق فريدمان الى الذقن في نسج المغامرة المستحيلة ، يبلور ويخطط ويقتنع ويقنع !

وأرض مدين يومذاك قبل قرن ، كانت شقة من الصحراء ينتشر فيها آلاف هنا وآلاف هناك من البدو ، يزيدون على ٢٣ ألفا . وتنام في خباياها بعض القرى المسكينة ، ولكن الرحالة كانوا يسطرون ما يسطرون عن ثرائها المعدنى . أما ارتباطها الادارى فكان مع الحاكم المصري في السويس فلما احتل الانكليز مصر سنة ١٨٨٢ كانت في أطراف نفوذهم السياسى . لهذا زين فريدمان مشروعه أولا للجمعيات اليهودية في أوروبا وزعماء الاليانس الاسرائيلية العالمية في باريس . وجمعية الانكيز في لندن ، وجمعية كاديما (قديمة) في فيينا ثم جاء مصر وزار منطقة مدين وعاد منها بثمانية صناديق من الحجارة ، يدلل بها على الثروة المعدنية للبلاد . وكتب كراسا من ١٨ صفحة بعنوان (أرض مدين) يريد أن يقنع اليهود والسياسيين في انكلترا والنمسا وألمانيا ويبيعهم المشروع .

ولم تتحول الحجارة البازلتية السوداء في هذا الكراس الى أحجار كريمة فحسب . ولكن تحول السكان أيضا الى أصول يهودية وتحولت العادات ، فهي من تقاليد اليهود الأولى ، حتى سكان العقبة ، فيما كتب فريدمان ، ليسوا إلا أحفاد بني العشيرة اليهودية القديمة ! والمنطقة كلها جزء من أملاك سليمان !

يهود لأرض مدين !

وذهب الرجل بكراسه الى كرومر في لندن ، وكان كرومر المندوب السامي الانكليزى بمصر ، وملكها غير المتوج قرابة ربع قرن (ما بين سنتي ١٨٨٣ و ١٩٠٧) وقابل بناء على نصيحته رياض باشا رئيس الوزارة المصرية في القاهرة ، وسالزبورى رئيس الوزراء في لندن ، والكراس في يده ، وأعطاه الثلاثة الضوء الأخضر . واذ تحفظ رياض باشا بعض التحفظ ، فإن الآخرين

رأيا في المشروع المزيد من الضمان لحماية الممر البحرى النشيط الذى فتحته قناة السويس عبر البحر الأحمر قبل ذلك بعقد من السنين فقط ، ومع هذين الاثنين فتح فريدمان صفحة أخرى من مشروعه ومن مكنونات صدره : عرض مخططا لنقل بعض اليهود من روسيا ورومانيا وهنغاريا لاقامة مستعمرة يهودية في مدين ذات استقلال ذاتي . وأتى على ذكر شيء آخر هو تأسيس قوة مسلحة من ٣٠٠ رجل يفرضون الاحترام على البدو ثم تحدث عن حلم مستقبلي ثالث ، هو بناء خط حديدى عبر أراضى مدين يختصر المسافة الى الهند عدة أيام . . كل « نواة » الدولة اليهودية العملية كانت تطوف في خاطره .

واكتفى فريدمان بابتسامات الرضى والتشجيع التي سمعها من هؤلاء لينتقل مشروعه الى التنفيذ العملي . الحلم لم يكن يحتمل التأجيل . الرؤى الدينية ـ الاستعمارية تحولت سياطا من نار تلاحقه فهو على الركض الى كل باب ، وعلى الركوب الى كل وسيلة . أقرب الوسائل الى عقلية هذا الألماني كانت القوة فلم يتردد في تدبرها . استأجر ضابطا بروسيا وذهب الى كراكوف في روسيا ليجند بعض اليهود هناك ، ويكون نواة لجيش الغزو . واختار هذه المدينة لأنه يعرف أنها وكر الجماعة التي كانت تعرف باسم « محبي صهيون » ومن هؤلاء جند عددا من العمال المهرة الأشداء ، فتعاقد معهم على العمل معه عامين شرطه الأول عليهم الطاعة العسكرية . تدبر الأسلحة اللازمة ودرب الجماعة في ألمانيا ، ولم ينس اصطحاب عدد من اليهود الذين يتكلمون العربية ولا بعض الحاجات التي يضحك بها على البدو .

وفي أواخر سنة ١٨٩١ كان يخت قديم أعطى اسم « اسرائيل » يبحر من ميناء ساوث هامبتون وهو يرفع العلم النمساوى ، وعليه مع فريد مان خمسون مجندا يرافقهم طبيب ، ويهودى يعرف الذبح على الطريقة التلمودية . . فلابد لفريق تسحبه الرؤى التوراتية من أن يكون لحم طعامه « كاشير » .

عبر اليخت قناة السويس . ونزل فريدمان مع « فرقته » النازية على بعض شواطىء مدين ، وأقام هناك المعسكر الذي كان يأمل أن يكون أول مدينة . ولكن ما ان انتهت النزهة البحرية للمجندين وبدأ دور الاقامة « الصحراوية » مع الرمال حتى بدأت مشاكل فريدمان ، وبدأت تتلاشى معها كل الألوان الزاهية التى كان يزوق بها حلمه لنفسه وللناس ، أخذت تبهت بسرعة تحت وقد الشمس الحجازية ، كل قصور الورق التى بنى ، أخذت تطير مع السافيات الذاريات .

النظام البروسي العسكرى الذى فرضه فريدمان ، لم يكن يتلاءم مع متطوعين لا يحملون للمغامرة الغريبة ، الحماسة المهووسة التى يحملها صاحبها . والمنطقة نفسها صخور جرداء سوداء تأكل الأرجل والعيون ، وغذاء محدود ، ورطوبة تخنق الأنفاس ، ورفض بعض المتطوعين الطعام السيء ، فطردهم فريدمان من المعسكر بعد حفلة جلد وسجن . ووجدوا أنفسهم يضلون في الدروب الصحراوية ، يموتون من الونى والانهاك وقد تورمت الشفاه من العطش . . ولكن التمرد استمر وتزايد حتى شمل الجميع .

عند ذلك ارتدى فريدمان البزة العسكرية ، ووضع على رأسه تاجا مذهبا كان أحضره معه تتمة للاحلام ، وزين نفسه بالأوسمة ، وخرج لجماعته ، وقد قبض بيمناه على مسدس ، وأرخى اليسرى على سيف يعلقه بجانبه وأعلن بوصفه « ملك اليهود في مدين » تسريح جميع المتطوعين !

فشلت اذن المغامرة التي لم يبق منها مع فريدمان إلا تسعة أفراد ، ولكن هل انتهت عند هذا الحد ؟

ما اهتم الرجل بحملات الصحف عليه حين تسربت اليها الأنباء ، ولا بوصفه أنه تاجر « رقيق » جديد ، ولا باقامة الدعوى عليه في روسيا غيابيا بتهمة

قتل أحد المتطوعين . ما اهتم لكل ذلك، وحسب أن الفشل جاء من عدم اعتياد المجندين المتطوعين اجواء الحجاز فذهب يغري بعض يهود مصر ، ويستأجر بعض المقاتلين من السودان ، ولكن المشاكل السياسية في هـذه المرة هي التي انضافت الى مشاكله .

ما كان للمغامرة أن تصل هذا الحد دون أن تثير قلق الدولة العثمانية.قدر العثمانيون حين عرفوا بالمشروع والجنود والأسلحة على السفينة والمعسكر الاحتلالي أن الأمر لابد مغامرة انجليزية جديدة ، وبدأوا يفكرون في الأهداف والنتائج : في الجماعة اليهودية التي قد تكون طليعة احتلال ، وقد تقطع طريق الحج بين الشام وبين الحرمين وما وراءهما ، وقـد . . . وقد . وبينـما أخذوا يضغطون على البعثات الدبلوماسية لديهم من روسية والمانية ونمسوية وفرنسية ، ارسلوا الى ولاتهم والى حامياتهم عـلى طريق الشـام - المـدينـة بـالامـدادات العسكرية والتعليمات لتطويق الجماعة المحتلة عن بعد ، وقتال كـل تحرك ، وحين فشل (فريدمان) في حمل السلطات المصرية الانكليزية على حمايته ثم في حمل البدو والمرتزقة على محاربة الاتراك العثمانيين الذين يضربون النطاق حوله أيقن أن حلمه مات على الرمال فقوض المعسكر وركب البحر بعد أن دفن مع الحلم مائة ألف غولدن ذهبي .

انقاذا للشرف اليهودى

هل كان هذا كل شيء ؟ كان فريدمان من العناد بحيث بقي مصرا على انقاذ « الشرف اليهودى » كما قام بمعاودة جمع المال لمشروع الاستعمار ، وكان من الصفاقة بحيث أقام الدعوى على الحكومة المصرية يطالبها بالتعويض عليه ، وعلى الصحف الأوروبية لأنها شوهت سمعته . وعلى اليهود الآخرين الذين سخروا من مغامرته أو استحمقوه أو وصفوه بانه سيىء التخطيط والتنفيذ ، أو

وصفوا المغامرة بأنها مشروع « دون كيشوتي » حبلت به مخيلة يهودى اندماجى (أى يرضى الاندماج بغير اليهود) . يهودى قبل أن يتلقى « المعمودية » واعتبر نفسه ملكا وباشا ، ويريد أن يتزعم اليهود .

بقي أن نعلم ان هذه المغامرة المنسية كانت على صلة مباشرة بهرتزل ، صاحب الصهيونية ، وكانت التمهيد السابق لحركته . . الصهيونيون يقولون إن مغامرة فريدمان هي التي اشاعت عن طريق الصحافة وأخبارها ، فكرة الدولة اليهودية التي التقطها هرتزل وجعلها عنوانا لكتابه الذى أصبح انجيل الصهيونية . وربما كان أهم من هذا أن هرتزل حين تباحث مع وزير المستعمرات البريطاني تشمبرلن سنة ١٩٠٢ حول مشروعه الصهيوني ، اقترح انشاء مستعمرة يهودية في العريش ، وأتى على ذكر قصة فريدمان كمثال لهذه المستعمرة . وقبل اللورد كرومر في مصر هذه الفكرة ، وسافرت بعثة صهيونية لاستكشاف أوضاع العريش ثم عادت تتفاوض في هذا الشأن مع سلطات القاهرة . كان يمثل الجانب الصهيوني ليوبولد غرنبرغ . أما الجانب المصرى فيمثله اللورد كرومر وبطرس غالي باشا .

أليس في هذا كله من بلاغ ؟ □□



مَن أطعمك اللحم المثلج ؟

مجرد مهندس فقير ، ولكنه كان مصنع مشاريع ، اقتحم ذات يوم قبة الأكاديمية العلمية في باريس ، ووضع أمام أعضائها فخذ خروف مجمد !!

انت لم تسمع دون شك باسم شارل تلبيه* وكيف تسمع ؟ إنه من قبائل النسيان التي يفترسها الليل وان كانت باقية فيك ومن حولك ، باقية في عود الكبريت الذي تشعل ، وفي القلم الذي تستعمل ، وفي الشريط الذي تسمع ، وفي خيط العطر الذي يشد وجهك في الطريق . المجهولون الذين تركوا في ايدي الانسانية آثارهم ثم غابوا هم قوافل بدون وجوه ولا ملامح . هم سواد على المغيب . يمر ليؤدي دوره ثم يغرق في المحيط الأعظم . و(تلبيه) من هؤلاء لم يقدم للناس سوى فكرة واحدة ثم غاب ، ومع ذلك فأنت تدين له وانا ادين ، وجموع هذا البلد وشعوب اخرى كثيرة كثيرة ، وفي أركان الأرض الأربعة . . . بماذا ندين ويدينون ؟ دعونا نبدأ القصة من أولها .

منذ مائة وعشرين سنة ، في أعقاب حرب السبعين سنة ١٨٧٠ بين فرنسا والمانيا كانت صحف باريس مملوءة بالسواد . بأصداء المدافع ، بريح الجثث المتعفنة على جبهة الرين . بالقلوب المنفطرة ذلا وانكسارا وهزيمة . لم يتنبه أحد الى اعلان صَدَرَ في جريدة (الفيغارو) يقول :

العربي - العدد ٢٦١ - أغسطس (آب) ١٩٨٠ م .

* ولد في أميان سنة ١٨٢٨ م وتوفى سنة ١٩١٣م .

« خمسة آلاف فرنك من الربح لكل عشرة آلاف فرنك في عمل « شريف وموثوق . تدفع المساهمات في بنك فرنسا باسم : « ش . ت »

القلائل الذين قرأوا الاعلان اخذوا الرجل على أنه مجنون أو احمق ، بعضهم حسبه مزاحا من سقط المزاح . وبالرغم من أن الذين يعرفون شارل تلييه كانوا يستلطفونه ، إلا انهم كانوا دوما على الريب من جديته . كان صاحب أخيلة ، ومشاريع هوائية ، يفكر في محركات تعمل « بالامونياك » ويضع مشروعا لطرقات تشق تحت الأرض ، ولقطار جوي ولآخر يعبر الصحراء الكبرى بالطاقة الشمسية . واهتم بانجراف التربة الأرضية ودرس استخدام الأسمدة ذات المنشأ البشري .

ابتكر مشروعا لزيادة خصب الحقول وآخر لتطهير المجاري المائية ، انشأ سفينة ثم هجرها لتغرق في عاصفة على نهر المارن . اقترح على بلدية باريس عمل اقنية تحت الارض لتوزيع الطاقة على المنازل . . . من تفسخ القاذورات والزبالة !! . . . كان الرجل مصنع مشاريع ونبع افكار كلها بين الحقيقة والخيال !! أما في الثروة فكان افلس من طنبور ، كان مجرد مهندس فقير !!

وفي تلك الأيام إذا كان العلماء يحتاجون ، كي ينجحوا الى أن يكونوا مهندسين ومتمولين وتجارا أو صناعيين ، فان شارل تلييه اضطر عشر مرات أن ينقل مختبره ومعمله الصغير من مكان الى آخر في باريس ، ولقد سجن مرة في بعض الديون .

البحث عن سفينة

على أنه كان واثقا من المشروع الأخير الذي خطر له والذي نشر من أجله الاعلان في الفيغارو . كان يراهن عليه . يناقش فيه ، يقنع هذا الصناعي ويبسط الحجج لذاك المصرف . ومرت سنوات قبل ان يستطيع سنة ١٨٧٦ ان

يقنع مجموعة من المساهمين وان يؤسس شركة للمشروع الـذي يريـد ، وان يذهب في النهاية للبحث عن سفينة ينفذ عليها الفكرة - المشروع .

ووجد السفينة . وها هوذا على متنها في ميناء ليفربول ! كان طولها ٦٥ مترا وكانت حمولتها ٦٥٠ طنا وكان الثمن غاليا (٢٢٥ الف فرنك) وأما اسمها فهـو Eboe على اسم بعض الانهر الافـريقية ، وامـا سرعتهـا فست او سبع عقد . . . وقال له صاحب السفينة :

- ولكن هل استطيع أن أعرف ماذا ستفعل بها ؟

وقال تلييه :

- سوف أنقل اللحم من الارجنتين الى اوروبا . . أنقله مثلجا ! ليس في هذه الفكرة الآن أي أمر مثير . اضحى من عاديات بيتك أن تفتح الثلاجة وتسحب منها اللحم المبرد . ومن بديهيات التجارة نقل العجول والخراف مجمدة من قارة الى قارة ، أما قبل مائة سنة فقد كانت الفكرة تجعل المرء يقفز من الدهشة . كان معروفا ان الارجنتين كانت - وما تزال الى اليوم - بحر اللحوم . قطعان الثيران المتدفقة في سواد المزارع وابعادها لا يعرف حتى أصحابها تعدادهـا إلا ظنا ، ولكن نقـل هذه اللحـوم عبر المحيط الاطلسي ومن أقصى جنـوبه الى أقصى الشمال كان امرا آخر .

بائع السفينة نظر الى تلييه من تحت نظارتيه الصغيرتين وهز رأسه ، في نفسه كان يقول لا شك أنه مجنون . ماذا يهم مادام يدفع الثمن نقدا وعدا ؟

فخذ خروف مجمد !

ولكن تلييه كان اجرى التجارب العلمية الكثيرة على تجميد اللحوم في مخبره . اقتحم ذات يوم قبة الاكاديمية العلمية في باريس ووضع امام اعضائها « الخالدين » وهم يناقشون احد تقاريره ، فخذ خروف مجمد !

العالم باستور اعترف له بصحة الفكرة . . . ولكن هل يستطيع تحويل التجربة المخبرية الى عمل ناجح ؟ كانت المشكلة الكبرى امامه هي أن التبريد يحتاج الى الغاز السائل والسفن لا تقبل حمولته إلا على السطح خوفا من انفجاره وتلقيه الى الموج عند أول خطر أو عاصفة . . . واذا استطاع التغلب على هذه الصعوبة فكيف يجتاز المحيط كله بحمولة سفينة من اللحم ويحتفظ له خلال الرحلة بدرجة التجمد اللازمة والضرورية لحفظه ؟

وقبل شراء المركب (ايبوى) كان تلييه قد قام بتجربتين . وأخفقت التجربتان . اقام اولا على احد مراكب نهر الامازون جهاز تبريد ووصل المركب الارجنتين . . . ولكن احد البحارة فتح صنبور الغاز فتسرب كله . ولم يكن في امريكا اللاتينية كلها غاز سائل فأخفق المشروع !

وعاد تلييه فأقام جهازاً على مركب انكليزي ، وفي طريق العودة توقف جهاز التبريد فألقيت اللحوم كلها في البحر ، ولكن هذا الطوباوي الحالم ظل يحاول ، واطلق على المركب الذي اشتراه اسم : الثلاجة . ونقله الى ميناء الهافر ليقسم قاعه غرفا صغيرة ويعد عليه أجهزة التبريد ، ويبدأ الرحلة مع عدة اطنان من اللحم . أيهم أن نذكر ان رائحة التريميتيلامين التي كان يستعملها للتبريد كانت مقرفة لدرجة منعه من مقابلة الناس ؟

احترق وجهه ولكن !

أيهمّ أن نعرف أن بالونا من حامض « الكبريتيك » انفجر في وجهه فأحرقه و . . لولا أن سلمت عيناه ؟

أيهم أن نعدد كم قاسى الرجل ليحتفظ بدرجة الصفر في الغرف التي نظمها في قاع السفينة بينما حرارة غرف الآلات المجاورة تجاوز الأربعين ؟

أم يهم أن نعرف أنهم نادوه يوم السفر من بين الآلات في القاع وأخبروه أن الاحتفال قائم وان الكاردينال جاء لمباركة السفينة فلبس بدلة السموكن فوق

بذلة العمل المفعمة بالزيوت والشحوم وخرج بهذه الهيئة للناس ؟ أم ان نعرف أن ملك البرتغال استقبله في قصره في لشبونه ، وهو في الطريق ، فلما عاد من حضرته الى الوراء اوقع الزهريات الصينية الثمينة الفخمة من شدة الارتباك ؟ ولكنه لم يرتبك حين اقام لكبار لشبونة حفل عشاء على سفينته وقدم لهم فيه من اللحم المبرد المذبوح قبل شهر في فرنسا !

المهم ان (الثلاجة) وصلت ، بعد اسابيع من الإبحار الى بيونس آيرس . كل الارجنتين كانت تنتظر التجربة المثيرة . أصحاب المزارع ، الذين لا يعرفون عدد الآلاف المؤلفة من قطعانهم السارحة في الادغال كان مصيرهم في الميزان . نجاح التجربة كان معناه صفقة العمر . من الممكن أن يتحولوا بطرفة عين ، أصحاب ملايين ، بدل ان تستهلك لحومهم محليا بأبخس الاثمان أو تنقل حية تسعى ، وكم ذا يقاسون وتقاسي الحيوانات في النقل الحي !

وأقام تلييه على السفينة عشاء لكبار القوم . كانوا يسمعون سماعا فقط ان اللحوم التي تحملها السفينة وصلت بحالة جيدة ولكنهم ارتعدوا حين رأوا قائمة الطعام : كانت كلها مجموعة من هذه اللحوم التي جلبها الرجل معه ! عمرها يزيد على مائة وعشرين يوما ! وأهل الارجنتين اكلة لحوم . ذواقو لحوم . مغرمون بانتقائه وتخيره وألوانه . معتادون الطري منه والغيض والأحمر والأبيض ، ولكل طعام ووقت لحمه والنوع والالوان . . إنها قضية مزاج رفيع كالنبيذ للفرنسيين !!

مصير ثروة الارجنتين في فمها !

ووزعت قطع اللحم على الموائد فأحجم الجميع ! جمدت الأيدي على الشوكات والسكاكين ودارت العيون فقط ينظر بعضها الى بعض . اجرأهم كانت امرأة رئيس الوزراء . قطعت أخيرا وبعد تردد قطعة صغيرة من الصحن وحملتها الى فمها . فيما عدا الافلام السينمائية ما تعلقت عيون بشفتين بمثل ذلك

الاهتمام الذي تعلقت فيه عيون القوم بشفتيها . . . ولاكت اللقمة على هون وهم ينظرون . وصمتت وصمتوا . ونظرت ونظروا . . . كانوا ينتظرون أن تقول شيئا . أي شيء . وشعرت هي أخيرا بذلك . مصير ثروة الارجنتين الحيوانية كان معلقا بالكلمة التي سوف تخرج من شفتيها ، واخيرا قالت :

ـ ماذا ؟ إنه لحم !

وأقبلت الأيدي بالسكاكين على الصحون . وأخذت صيحات الاعجاب تتوالى !!

وخرجت الصحف في اليوم التالي بالنبأ المدهش . الذين اكلوا اللحم الفرنسي المذبوح قبل اربعة اشهر والذين لم يأكلوه على السواء في نشوة الفرح والبشري .

إنه منجم من الذهب اللحمي قد فتح على الارجنتين . كتبت الصحف هناك :

« بفضل شارل تلييه سيأكل الفقراء اللحم بكل مكان . انه فجر يوم جديد للارجنتين ولثروتها ، انه فتح سيقضي على سوء التغذية وعلى البؤس .



من قمة النجاح الى الإفلاس والنسيان !

كان هذا المجد هو أقصى ما وصله تلبيه وسفينته . كان القمة وما اسرع ما بدأ من بعده الانحسار والفشل . فقد وصلت موجة التفاؤل والنجاح إلى فرنسا لترتفع اسعار الاسهم في شركة تلبيه الى الحدود الخيالية . وألح كبار المساهمين عليه بالعودة الى باريس ثم ألحوا عليه بفتح الباب الأوسع لإغراق السوق بالأسهم . وخاف الرجل نتيجة المغامرة المالية التي يدفعونه اليها . ان انتكست فإنها إذن الفضيحة والانهيار . وهو لا يريد لمشروعه المقامرة بمال المساهمين الصغار . واضطر في النهاية الى الانسحاب والانزواء وانسحب معه الكثيرون من المشروع وتعطل العمل كله ، وأفلست الشركة . !

بينما كان تلبيه يعود الى العتمة والنسيان والفقر ، كانت انكلترا تلتقط الخيط والمبادرة بجهود اللورد كيلفن ، وتنزل خلال سنوات اسطولاً من ٣٠٠ سفينة ثلاجة الى البحر . .

اما السفينة (الثلاجة) الاولى سفينة تلبيه فكانت احدى المعروضات الجذابة في معرض باريس الدولي سنة ١٨٨٠ . وقف امامها تلبيه فسأله احد العابرين :

- هل زرتها ؟ فقال : سمعت عنها !!

وانتهى الرجل مغمورا بين المغمورين الكثيرين . . . وتوفى بعد الكبر والعجز في الخامسة والثمانين من العمر .

السفينة الشبح

أما السفينة (الثلاجة) فكان لها مصير آخر بعد ذلك .

لقد اعيدت الى الخدمة ، وفي يوم ١٩ اذار (مارس) سنة ١٨٨٤ دخلت

بحر المانش لتذهب الى اسبانيا . الضباب كان بحرا آخر يغرق كل شيء ويلف الصواري والاشباح ، وسمع قائدها دوي صفارة انذار لم يستطع أن يحدد أيان منطلقها ومجراها ؟ الرؤية لا تزيد على امتار . أوقف السفينة وأطلق ثلاث صفارات . لم يسمع عليها أي جواب . تابع السير بهدوء وهو يقرع جرس المقدمة للتحذير . فجأة برز وسط الضباب مقدم سفينة اخرى كأنها القدر ، لم يكن الى تفادى الاصطدام بها من سبيل ، وسمعت ضجة صاخبة في الضباب لقد تحطم جانب (الثلاجة) ثم مالت على الموج وأذنت بالغرق . أمر القائد بمغادرتها ، السفينة الانكليزية التي صدمتها لم يصبها أذى ، التقطت مراكب النجاة احد عشر بحارا من بحارة (الثلاجة) التي ابتلعها بسرعة بحر الضباب .

تم كل شيء كأنما هو يجرى في عالم الأحلام . في دنيا اخرى منقطعة ، هواؤها غيم اخرس والوجود أطياف وأشباح .

مضت السفينة الانكليزية تشق الضباب والماء . لم تكن قد قطعت ميلين حين صاح رقيبها : سفينة في الطريق !

كان ثمة شبح سفينة يتجه نحوهم مباشرة . شبح صامت قاتل . انه (الثلاجة) تسير والدخان ما يزال ينطلق من مدخنتها . وصاح القائد الانكليزي :

- إلى اليمين بأقصى سرعة . . .

تفاداها . على خط مواز لسيرها وفرك عينيه . أهو واهم بالاشباح ؟ أهي قادمة للانتقام ؟ كان يجب أن تكون تحت الماء ، في الاعماق ، فهل تسيرها الأرواح ؟ البحارة يؤمنون بأمثال هذه الهواجس المرعبة .

بعد أقل من ميل آخر صاح رقيب السفينة مرة اخرى :

- سفينة في الطريق !!

ونظر البحارة والقائد . . . إنه غير معقول ! إنه مستحيل ، اي ضرب من الجن هذا ؟ كانت (الثلاجة) قادمة مرة ثانية عليهم . . . . أيموتون

واهمين ؟ أهي سفينة اخرى مشابهة ؟ الى اليمين باقصى السرعة ايضا . . .

ولكن الأوامر في هذه المرة كانت متأخرة جدا ، كان مقدم (الثلاجة) قد ضرب السفينة الانكليزية ضربة عنيفة زلزلتها وبدأ ماء البحر يغرق الغرف الدنيا والقاع ، إنها تغرق ! وبينما كان بحارة السفينتين، على قوارب النجاة في البحر ، كانت السفينة تغيب في الماء ، مقدمتها آخر ما يغرق منها ، كانت الثلاجة ـ الشبح تختفي في الضباب كرة اخرى . . .

وأقبل الملاحون يجدفون على القوارب ، في اتجاه البر .

لم يمض نصف ساعة على ذلك حتى انجاب الضباب . بدأت الرؤية تمتد على البحر أميالا . وجه البحر يلمع . ليس إلا الماء والسماء . . . وإلا (الثلاجة) ، بلى ! كانت على مقربة منهم تسير !!

صعق قائدها . والقائد الانكليزي والبحارة الذين أبطأت أيديهم على المجاديف ـ هل انتم واثقون من أنكم لم تتركوا احدا على متنها ؟

واقتربوا من السفينة المائلة . إنها تسير ! أهي الأشباح ؟

حين صعدوا اليها عرفوا السبب !

كانت الضربة قد خرقت غرف التبريد السفلى ولكنها لم تؤذ غرف المحركات التي ظلت تعمل . كان الفاصل بين مجموعتي الغرف منذ أيام تلبيه ، صفيقا وكافيا لمنع تسرب الماء . وكانت الدفة قد تثبتت وهي مائلة قبل ان يغادرها صاحب الدفة العجول لينجو بروحه . فظلت السفينة تدور في الضباب وتدور .

ولكن الضربة الأخيرة كانت قد خرقتها هذه المرة فأخذت وهي تجري ، تغرق ببطء كالنسر الجريح يجر الخوافي الكسيحة !

وانسحب البحارة ينظرون اليها وهي تغيب على مهل في الماء اللانهائي .

لقد تم بغرقها غرق القصة كلها في محيط النسيان .

ولكن العالم ظل حتى اليوم ـ وسوف يظل ـ يأكل اللحم غضا طريا سليما ، وإن ذبح قبل اشهر . . . أعرفتَ من أطعمك اللحم المثلج ؟ □□



الذين دخلوا القدس وصلوا في المسجد الأقصى

موكبان فقط من مواكب الذين دخلوا القدس وقف عندهما التاريخ . وقف مشدوها وأطرق . لمن تراه ادخر الموكب الثالث ؟

القدس ؟ . . .

«اخلع نعليك . إنك بالوادي المقدس طوى» . [1]

. . . وتنداح في الخواطر مواكب يلتقي فيها رنين الأجراس الأخضر بأقمار الأنبياء ، وينساب الأذان خشوعا على خشوع ، مع خبب السنابك ، وعطش السيوف ، وحفيف الملائكة ، ونعاس القناديل ، على الزيت المقدس ، ليس في الأرض بقعة أخرى هي أشبار من الارض وقد احتضنت ، مع ذلك وماتزال تحتضن ، كأنها كتاب الأبد ملايين الملايين من القلوب ، ومنذ ألوف السنين ، ومن كل أنحاء الدنيا ! وفي المأساة . ما من بلد يعدله في المأساة . ترى هل كان صليب «الفادى» بعد درب الآلام ، هو الرمز له على الجلجلة يوم الجلجلة ؟

والذين دخلوا القدس كثيرون .

دع عنك غذاءها البشري الدائم من القبائل العربية منذ ما قبل الاسلام

العربي - العدد ٢٣٢ - مارس (آذار) ١٩٧٨م .

١ - توسعنا في فهم الوادى المقدس ليشمل ، مع جبل الطور ، الارض المقدسة كلها .

بمئات بعد مئات من السنين ، في الاسلام ، الرسول الأعظم هو الذي بدأ السرى المقدس إليها ليلة الإسراء . ومع تدفق العرب اليها بعد الفتح العربي ودبيب الاسلام في نسغها وترابها القدسي ، وفروع الزيتون ، والصخرة المباركة الصامدة اربعة عشر قرنا ، سجل التاريخ دخول الكثيرين إليها : دخلها معاوية ونصَّب نفسه خليفة في مسجدها الأقصى ، ودخلها الوليد بن عبدالملك ينظر الى فسيفساء بالقبة التى بنى ، ودخلها المأمون يعجب من زخرفها الذهبي العجيب ، ودخلها المعز الفاطمي ودخلها العزيز ، ودخلها . . ودخلها . . مواكب الزاحفين إلى قدسها كانت تصعد دون انقطاع تلالها درجات نحو السماء . . .

موكبان فقط من هذه المواكب وقف عندهما التاريخ . وقف مشدوها وأطرق . كان الأول قبل أربعة عشر قرنا ، وكان الثاني بعده بستة قرون : موكب الفاروق عمر ، وموكب الناصر صلاح الدين .

كتاب أبي عبيدة

السنة السادسة عشرة للهجرة [٢] . . . بطاح يثرب كانت زغاريد وفرحا يسيل في الدروب . الراكضون إليها كل يوم بأنباء الفتوح كانوا ألسنة مذهولة . نسوا آلاف الشهداء ، كانوا يتحدثون فقط عن الأعاجيب . «إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا» .

إذن فهؤلاء الفتيان الذين ذهبت من هاهنا خيولهم والأباعر قد أضحوا جراح البراكين . دما على الشمس . سادة الوجهين : وجه الروم ووجه الفرس ! .

سادة الدنيا ! .

---

٢ ـ ثمة خلاف في هذا التاريخ وبعضهم يجعله سنة ١٥ أو سنة ١٧هـ .

وأقبلت من أقصى المدينة راحلة تسعى قال صاحبها : «أين أمير المؤمنين ؟ »

وتراكض الناس حول قوائم البعير يسعون به الى مجلس الفاروق . ومد صاحب الراحلة اليه بالكتاب الذي يحمل . إنه من أبي عبيدة بن الجراح قائد الجيوش المجاهدة في الشام . أهي بشارة فتح جديد ؟ قائمة البلاد التي فتحت هناك كانت تضم حتى تلك الرسالة : دمشق . بصرى . حمص . قنسرين . منبج . انطاكية . اللاذقية . بعلبك . تدمر . وفي فلسطين : طبرية . بيسان . سبسطية . نابلس . لد . يبنى . عمواس . بيت جبرين . يافا . اجنادين . غزة . رفح . حتى قيسارية التي كان فيها - على ما يروون - ثلاثمائة سوق ويحرسها في كل ليلة على سورها مائة الف »[٣] ، سقطت راغمة ثم نقضت ، وحدها «ايلياء» ، بقيت جزيرة معزولة . والخيل العراب تطوقها وتضرب بالسنابك عند اسفل الأسوار وعند الحجارة القديمة . أبراج كنائسها الممردة كانت تطل من داخل الجدران على مجانيق وسيوف ، جلبة ، وعثير ، وقدور ، وخيام ، وعلى غابات الزيتون تتحرك بالرماح هنا وبثورة من المهور هناك .

كل فلول القوى الرومية المهزومة كانت قد اجتمعت الى «ايلياء» يقودها «الارطبون»[٤] ، كبير القوم وعسكريهم الأول . المنجنيقات الضخمة كانت تعول بالحجارة فوق القوى العربيّة . تعول . تعول . بينما ريح الشتاء تعصف بالعظام المقرورة وتمزق المضارب . والصقيع يأكل كالسياط اطراف الناس لولا اللهب المقدس في الصدور ! والتقى على طرفى الأسوار ايمان بايمان وعناد بعناد . ومات الرعب . وحده الصمت صار مخيفا . كنجمة تخر بغتة !

---

٣ - رواه البلاذرى - فتوح البلدان ج١ ص١٦٧ .

٤ - هذا هو الاسم الشائع في المصادر العربية . ويبدو أنه كما لاحظ بتلر محرف عن الاسم الاصلى اريطيون .

أربعة اشهر ، طال الحصار . ويوم هرب الأرطبون من المدينة ، ولحق بمصر انقطع الرجاء بأهل ايليا فلا مدد ولا نجدة . وشرب اليأس كل العيون . وحين كتب ابو عبيدة إليهم بدعوهم كغيرهم الى الاسلام او الطاعة والجزية كانوا بين التصديق والتكذيب . خافوا عقابيل الحقد الذي فجروه بالقتال العنيف ورأوا كسب الوقت قبل التسليم ، لعل . . ولعل .

أمير المؤمنين على بعير

وبكل الأبهة ولمعان الذهب وزخرف الملابس الكهنوتية ظهر بطريق المدينة (صفرونيوس) على الأسوار طالبا قبول التسليم والأمان ، والصلح على ما صولح عليه أهل مدن الشام ، نظراؤهم ، على أن يتولى ذلك امير المؤمنين نفسه !

وعجب عمر للطلب الغريب ولكنه قال ـ وبين يديه الكتاب بالخبر ، ومن حوله علي بن ابى طالب وعدد من الصحابة :

ـ أذهب . . إن تخليص ثالث الحرمين من الروم يستحق أن يسير من اجله الفاروق شهرا وشهرا . . واني لأستخلفك على المدينة يا علي !

فقال علي بن ابي طالب :

ـ أين تخرج بنفسك ؟ انك تريد عدوا كلبا . .

قال عمر :

ـ ابادر بالجهاد ! إنما أذهب ، لأنه لم يبق إلا القدس ، ولأنَّ يد الله الآن هي العليا . على الجماجم يمشي جند الله . كل بلد في الشام استسلم ، هذه الأمة رصفت الطريق اليها بالشهداء :

كلما انهار حائط من جنود

أتبعته بحائط من جنود

هي الضربة القاضية :

ورأى الصباح التالي مسافرا يخرج على بعيره [٥] من يثرب ليس معه سوى غلام يخدمه .

بعد أسابيع كان هذا الركب الصغير قد وصل (الجابية) في مشارف الشام . كان اول من لقيه من القادة يزيد بن ابي سفيان وابو عبيدة بن الجراح ثم خالد بن الوليد . جاءوا على الخيول عليهم الديباج والحرير . وزلزل الغضب الفاروق . نزل عن راحلته ، فأخذ الحجارة ورماهم وقال :

ـ «ما اسرع ما رجعتم عن رأيكم ! إياي تستقبلون بهذا الزي ؟ وإنما شبعتم منذ سنين ؟، وانتم في ارض يملؤها العدو !» .

«قالوا : يا أمير المؤمنين . إنها يلامقة (قباء وغطاء) وان علينا السلاح ما تركناه» .

وبينما عمر معسكر بالجابية فزع الناس الى السلاح

«فقال : ما شأنكم ؟ فقالوا : ألا ترى إلى الخيل والسيوف ؟

«فنظر فاذا كردوس يلمعون بالسيوف . فقال عمر : « ـ مستأمنة فلا تراعوا !»

عهد أهل ايلياء

فأمنوهم فاذا أهل ايلياء وحيزها . . » [٦] يطلبون لقاء امير المؤمنين ليستسلموا على يديه . وقبل عمر استسلامهم ، وكتب لهم «عهد اهل ايلياء» المشهور : احد المواقف الحضارية التي هي أنبل وأسمى مافي التاريخ العربي . لم يأخذهم بالسيف وهم في قبضته ، ولكنه « . . اعطاهم امانا لانفسهم

---

٥ ـ يروى أنه سافر مرة على بعير ومرة على حصان ومرة على بغل وعلى حمار . .

٦ ـ انظر الطبرى ج٣ ص ٦٠٧ ـ ٦٠٨ وابن الاثير ج٢ ص ٥٠١ ـ ٥٠٢ فهذا الحديث المطوق كله مأخوذ عنهما .

واموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا تنقص منها ولا من صليبهم ولا من شيء من اموالهم ولا يُكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم . ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود . وعليهم ان يخرجوا منها الروم واللصوص . وشهد خالد . وعمرو ، وعبدالرحمن بن عوف ومعاوية . . » [٧]

ودعا أهل ايلياء الخليفة لتسلم المدينة بنفسه . وجاءها عمر بعد قليل من الأيام ، كان كل موكبه «بعيرا أحمر وخلفه جفنة مملوءة بالتمر وقربة ماء . . » [٨] وخادم . ولكنه كان يجر وراءه كل أمجاد اليرموك . الذين كانوا في الاستقبال من ايلياء ما عرفوه . ولقد فاتهم سائرا الى باب المدينة وهم يبحثون عن امير المؤمنين وموكب امير المؤمنين . ولحق به الناس وعلى رأسهم البطريق «صفرونيوس» حامي الكنيسة المعسول اللسان ـ كما كان يلقب ـ وسلمه مفتاح المدينة» !

كالثمرة الناضجة كانت الشمس يوم دخل عمر القدس .

وكالثمرة الناضجة كانت القدس يوم سقطت في يديه .

وطاف صفرونيوس البطريق بضيفه العظيم الأزقة التي جاسها السيد المسيح من قبل ، وعجب له بعد أن هم بالصلاة في كنيسة القيامة ، ان يخرج فيصلى على نشز من الأرض خارجها . وقال صفرونيوس :

ـ أعن قلى يا أمير المؤمنين ؟

قال عمر : لا ولكنى اخشى ان يغصبكم احد المكان من بعدي ويقول : هنا صلى عمر ! وقد بنى حيث صلى الفاروق جامع عمر .

---

٧ ـ الطبرى ج٢ ص ٦٠٩ وهناك النص الكامل .

٨ ـ الواقدى فتوح الشام ج٢ ص ٢٥٧

موكب صلاح الدين

الموكب الثاني كان يصعد تلال القدس سنة ٥٨٣هـ . على الضبط يوم الاحد الخامس عشر من رجب من تلك السنة (٢٢ ايلول / سبتمبر ١١٨٧) وصاحبه هو صلاح الدين يوسف بن ايوب .

الموكب كان في هذه المرة خيلا وليلا . ومجانيق تعول كالذئاب الجريحة ، ولهاث دروع ، وسيوفا مزبدة بالدماء ، وعصافير مطر تركض مع الغبار ومع أوراق الخريف ، وزلازل رعب تنطلق في كل سبيل ، انطلاق الأصداء الهاربة في الوديان .

وكما كانت وراء الموكب الأول امجاد اليرموك تواكبه كانت وراء هذا الموكب أمجاد حطين تواكبه ! . .

لم يكن قد مضى على تلك الملحمة سبعون يوما بعد . زعيق سيوفها وصهيل الخيل وجؤار الفرسان قاتلا وقتيلا ، كان وما يزال يرقص في الاسماع والاجواء . والعطش أيضا كان يرقص ، واللهاث والجراح وعين الأسر الذليلة ! كل القوى الفرنجية سحقت في تلك الواقعة سحقا حتى العظم ، ارأيت حزم القصب كيف تهوى تحت انهيار الصخور اكلتهم على اكمة حطين الجرداء ذات القرنين الصخريين ، نيران اربع مثل نيران الجحيم . طوقتهم من كل فج فلا فكاك . . . عطشا هلكوا . بلهب تموز (يوليو) في الغور هلكوا . بسعير القتال المر هلكوا . بالعشب الجاف احرق تحت خيلهم والارجل هلكوا . . . إنه الموت المريع «هذه النار التي كنتم بها تكذبون» ، «ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ».« سكارى وما هم بسكارى » اخذتهم الصيحة من كل جانب . «فترى القوم فيها صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية» وحالت الاكمة في حطين نهرا من العيون الممزقة والعظام التي ترجف فزعا وهولا .

وحين انهارت خيمة الملك الحمراء المضروبة في أعلى تل حطين عرف صلاح الدين أن قد انهار للفرنجة كل شيء : مملكة الفرنجة التي اغتصبوها قد انتهت ، والدعوة الصليبية التي اقاموها عليها ومن حولها قد انتهت ايضا . وترجل مسرعا اذ ذاك عن فرسه والدموع ملء عينيه ، وسجد على التراب شكرا لله ، بينما كان جنده يحصدون الحصاد البشري . . حتى ملك الفرنجة (غى) ، وامراؤه الكبار ، ومقدم الداوية ، وصاحب الاسبتارية ، وارناط ، شيطان الحقد الفرنجى الصليبي ، امير الكرك الذي حاول غزو قبر النبى (ص) في المدينة ، كلهم التقطهم الجند الصلاحى ، كالعصافير المبللة ، لاتاج ولا امارة ولا عنفوان . كالخرق الملقاة على الارض كانوا ، سيوفهم حالت اخشابا ميتة ملقاة حولهم وكل تعصبهم في الرغام . ما كان لاحدهم من الرعب ومن الوهن ما يسلم به سيفه علامة الاذعان . كانوا الإذعان نفسه جسدا وعينا ذليلة ويدا . « . . كان من يرى القتلى لا يظن انهم أسروا احداً ومن يرى الاسرى لا يظن انهم قتلوا احداً . . » (٩)

إن جنحوا للسلم

بعد الواقعة وبينما قوافل الاسرى تسير نحو دمشق انتهى تحرير فلسطين ، وغير فلسطين من الغاصبين . كالانثى المسحوقة اضحت مدن الفرنجة وجالياتهم المزروعة زرعاً هنا وهناك . ثمانون سنة من الاحتلال الغيت في يوم . لفظت الارض المحتلين كالقىء . حجارة الاسوار حولهم صارت هشة كالضباب ، وكل شيء حولهم أخذ يصيح بهم انهم غرباء غرباء . . ارتدوا يتحصنون ، بلى ! شحذوا ولمعوا الحراب . اغلقوا ابواب

---

٩ - ابن الاثير- الكامل ج١١ ص ٥٣٧ .

الحصون . دعموا حجارة القلاع . حشدوا كل الحقد للصمود . ولكنهم كانوا ، من الرعب ، مدنا مفتوحة !

وكالثمر الناضج الناضج ، مرة اخرى ، أخذت تسقط مدنهم والقلاع . دون نظام . الجنرال «يأس» قام يومذاك بالكثير . واستسلمت قلعة طبرية . الجليل كله . عكا الحصينة . العفولة . نابلس العصية ، معليا . مجدليان . تبنين . طرابلس . صيدا . شقيف ارنون . بيروت . جبيل . غزة . يافا . الرملة . الداروم . بيت لحم . بيت جبرين . الخليل . النطرون . . لم تهدأ طبول البشائر لحظة طوال شهرين ولا نشوة الراكضين بالبشائر .

ويوم دخل صلاح الدين عسقلان (٤ ايلول/ سبتمبر ١١٨٧) كسفت الشمس . وفي ظلام الكسوف استقبل صلاح الدين وفدا من سكان بيت المقدس الفرنجة يعرض السلم والهدنة والاحتفاظ بالقدس لمن فيها . ان لهم فيها للارتباط الديني الوثيق الحميم . وابتدر بعض اصحاب صلاح الدين فقرأ :

«وان جنحوا للسَّلم فاجنح لها»

فقال صلاح الدين

ـ صه !! ابن ايوب افقه منك . انه يحفظ قوله تعالى : «فلا تهنوا وتدعوا الى السَّلم وانتم الأعلون» ويحفظ «كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خيرلكم» ثم انصرف عنه بوجهه وهو يتلو : «فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم . يقولون نخشى ان تصيبنا دائرة . فعسى الله ان يأتي بالفتح . او أمر من عنده» (المائدة ٥٢).

وأقبل صلاح الدين على الوفد يطلب منه تسليم القدس مقابل الامان لمن فيها . وقال الوفد الفرنجي :

ـ «لا نسلم المدينة التي صلب فيها السيد المسيح من أجلنا .»

ـ اذن أقسم أن أنالها بالسيف عنوة !

وبعد اسبوعين كان موكبه يصعد تلال القدس . .

وبدأ الحصار

كانت المدينة قد اضحت بحيرة سوداء من الرعب . ومع انها انتزعت حتى فضة السقوف في كنيسة القيامة لتمويل المعركة . ونصبت العرادات والمجانيق على الأسوار ، وحشدت وراءها ستين ألف مقاتل [١٠] ومع أن «كلهم كان يرى الموت ايسر عليه من ان يملك المسلمون بيت المقدس ويأخذوه منه ، ويرى أن يذل نفسه وماله واولاده (هو) بعض ما يجب عليه من حفظه» [١١] ومع أن حقد الهزيمة كان جبلا من الصوان يسحق أضلاع الناس ، إلا أن كل ذلك كان اعجز من أن يقف للسنابك الزاحفة .

هذا الى أن اللاجئين كانوا اكداسا في ظلام الازقة . واشباح الجوع كانت تحوم كالغربان حول المؤن . والفرسان كانوا في معظمهم فتيانا في السادسة عشرة والسابعة عشرة وبعضهم من البرجاسية [١٢] نصبوهم على عجل لانه لم يكن في المدينة قواد ، والمعركة كانت معركة اليأس الجريح . حتى عتمة الكنائس كانت قد فقدت البنفسج والبخور والارجوان . وحتى طيور الكنيسة الكبرى (في المسجد الاقصى) غادرت ابراج النواقيس تحلم بغير غابات الدم . رغم حمى الحرب والهوس كانت المدينة جنازة حية . اشداق مقبرة تنتظر الجثث السائرة في الدروب !

---

١٠ ـ هو الرقم الذى أكده ووثقه ابن الاثير (ج١١ ص ٥٤٩) .

١١ ـ المصدر نفسه ص ٥٤٧ .

١٢ ـ البرجاسية هي البورجوازية وكان العرب يستعملون هذه الكلمة لتجار الفرنج على السماء منهم .

وبدأ الحصار ، بدأ بطواف حول المدينة . خمسة أيام ظل صلاح الدين يطوف بجنده حول الاسوار كأنما هو الطواف حول الكعبة . كان يطلب ثغرة الهجوم ، ونزل مساء اليوم الخامس على جبل الزيتون . تجاه باب العمود وكنيسة صهيون ، فما تنفس الصبح حتى كانت منجنيقاته قد نصبت واخذت تقصف الاسوار .

كان «كل واحد من الفريقين يرى (القتال) دينا وحتما واجبا ، فلا يحتاج فيه الى باعث سلطاني (امر من القيادة) . بل كانوا يمنعون فلا يمتنعون ويزجرون فلا ينزجرون» (١٣) واقبل الدم كالمطر الموسمي و «زلزلت الارض زلزالها واخرجت الارض أثقالها . وقال الانسان مالها» .

حسابات صلاح الدين

كانت أيام القتال معدودة . بلى ! ولكنها كانت من الهول . بطول الدهور . إلى أن تقدم النقابون في حراسة الفرسان ينقبون السور . في الموقع نفسه الذي كان نقبه قبل ٨٨ سنة ، غودفرى القديم . يوم سفك الفرنجة دم المسلمين في القدس «وخاضوا فيه حتى الركب» (١٤)

وملأ المدافعون النقب بالأجساد الطرية عبثا . كان النقب أوسع من أن يسد بالجثث . . وهرع وفد من كبراء القدس للصلح ، فرفضه صلاح الدين . فخرج (باليان) قائد المدينة مبادرا الى المعسكر الاسلامي يطلب الصلح والامان . .

---

١٣ ـ من كلام ابن الاثير ، المؤرخ المعاصر للمعركة (ج١١ ص ٥٤٧)

١٤ ـ دخل الفرنجة القدس سنة ١٠٩٩م (في التاريخ الهجري ٤٩٣ وكان الاحتلال هجريا يعدل ٩٠ سنة) وأما خوض الدماء حتى الركب فهي الجملة التي استعملها الفرنجة أنفسهم يوم دخلوا القدس .

غامت عينا صلاح الدين ، لحظات ، وراء مشاهد يصطدم بعضها ببعض :

ـ (باليان) هذا الذى يقف امامه كان بين اللاجئين من حطين الى صور . وقد طلب من صلاح الدين الامان ليلة واحدة يدخل بها الى القدس دون سلاح ليأتي بزوجته الملكة ماريا واطفاله . . فلما دخل المدينة تزعم الدفاع فيها ضده . . وغفر له صلاح الدين غدره ، واضاف حين خرجت الملكة باطفالها من المدينة ، أن ودع الاطفال بدموعه وارسل بحرسه معهم ومع الام والحاشية حتى مدينة صور !

ـ سبعون الف جثة تجمدت الدماء على اشلائها في المسجد الاقصى ، وتعفنت في الازقة يوم دخل الفرنجة هذا البلد الأقدس . ذكرى مرة ظلت تهز الضمائر منذ تسعين سنة . .

ـ تسعون سنة من القتال المرير ملأت الشام قتلا وتخريبا ، تجد الان نهايتها الاخيرة . فكيف تكون النهاية ؟ كيف يصوغها ؟

ـ عدد من امرائه الكبار لقوا مصرعهم بعد حطين ، امام عكا وعسقلان وامام القدس نفسها في صراع عبثى لا أمل فيه ، ويريد الان هذا المستأمن أن يتخلص من مسئوليته . . بالضراعة والاسترحام ! ولكن . . هي القدس ، ثالث الحرمين وتراث القرون القدسي وبلد الاسراء ، وهؤلاء يهددون بتدمير كل شيء في المدينة قبل الاذعان للمصير المحتوم .

وفي لحظة . . . تجمّع كل ما في الحضارة العربية الاسلامية من قيم ومثل وصفاء على شفتيّ صلاح الدين وقال :ـ لكم الامان على اموالكم وانفسكم . تخرجون من أبواب المدينة تحت سيفى فقد اقسمت أن افتح المدينة عنوة بالسيف . وعلى كل خارج منها من الفرنجة أن يفتدى نفسه !

لم ينس العالم الى اليوم هذا الموقف الحضارى الانسانى من صلاح الدين . ومع ذلك فلم يكن ذلك كل شيء . لقد شهد الناس في ذلك اليوم تناقضا عجبا . . فبينما كان البطريق الاعظم يدفع الفدية المقررة عن كل فرد : عشرة دنانير ، ويخرج من المدينة «وقد انحنت قامته لثقل ما يحمل من الذهب وقد تبعته العربات تحمل ما بحوزته من الطنافس والاوانى الذهبية والفضية والمجوهرات-وبينما كان رؤساء الداوية والاسبتارية والكنيسة يضنون بأى مال لافتداء بنى جلدتهم الفقراء[١٥] كان «العادل» شقيق صلاح الدين يطلب مِنَّة من اخيه أن يسمح له باطلاق الف اسير فيفعل ويطلب منه البطريق الفرنجى نفسه ان يهبه ، مِنَّة اخرى ، بعض الأرقاء فيهبه ٧٠٠ أسير ويهب ، حتى باليان ايضا خمسمائة !

وجاءت نساء بعض الاسرى يستوهبن ازواجهن فأطلق لهن صلاح الدين الازواج كرمى لدموعهن . . ثم وجد الارامل واليتامى والعجائز والشيوخ المتروكين لمصائرهم فقال : أنا شفيع هؤلاء . . ودفع فداءهم من خزانته ! وبث الشرطة في المدينة فلم تتعرض دار واحدة لنهب ولا مُسَّ مسيحى باذى[١٦] وسط هذا السلام .

---

١٥ ـ رانسيمان ـ تاريخ الصليبيات (بالانكليزية) ج٢ ص ٤٦٦ ومن المعروف أن هذا البطريق نفسه قد طاف أوروبا بعد ذلك يحمل صورة للقبر المقدس وقد دنسه المسلمون بالخيل ويستثير بها الناس لشن الحملة الصليبية الثالثة .

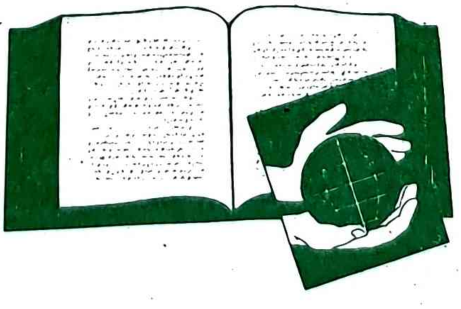
١٦ ـ المصدر السابق نفسه . وقد لعب دوره يومذاك ـ بجانب صلاح الدين ـ العالم المسيحى الارثوذكسي يوسف باطيط .

وفي يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ (٢ تشرين الاول اكتوبر ١١٨٧) وهو يوم ذكرى الاسراء كان موكب صلاح الدين يدخل القدس . أعلامه وحدها كانت ترفرف بين يديه ومن خلفه وعلى الاسوار .

وفجأة ، صاح البلد صيحة واحدة : «كان على رأس قبة الصخرة (قد نصب) صليب مذهب فتسلق جماعة الى اعلى القبة ليقلعوه . فلما فعلوا وسقط صاح الناس كلهم صوتا واحدا من البلد ومن ظاهره : المسلمون والفرنج . اما المسلمون فكبروا فرحا . واما الفرنج فصاحوا تفجعا وتوجعا . فسمع الناس ضجة كادت الارض ان تميد بهم لعظمها وشدتها . .[١٧] كذلك قال المؤرخ المعاصر ابن الاثير .

وفي يوم الجمعة التالى (٩ اكتوبر سنة ١١٨٧) دخل صلاح الدين المسجد الاقصى وقبة الصخرة يصلى . . بعد أن نظفت الارض ورشت بماء الورد !

□□



---

١٧ - ابن الاثير ج١١ ص ٥٥١ .

هٰذا الثالوثُ الماسِيُّ الذِي انكسَر!

ماذا يقول الكاتب والصديق والمؤرخ ، عندما يفقد صديقه الفنان ؟ .

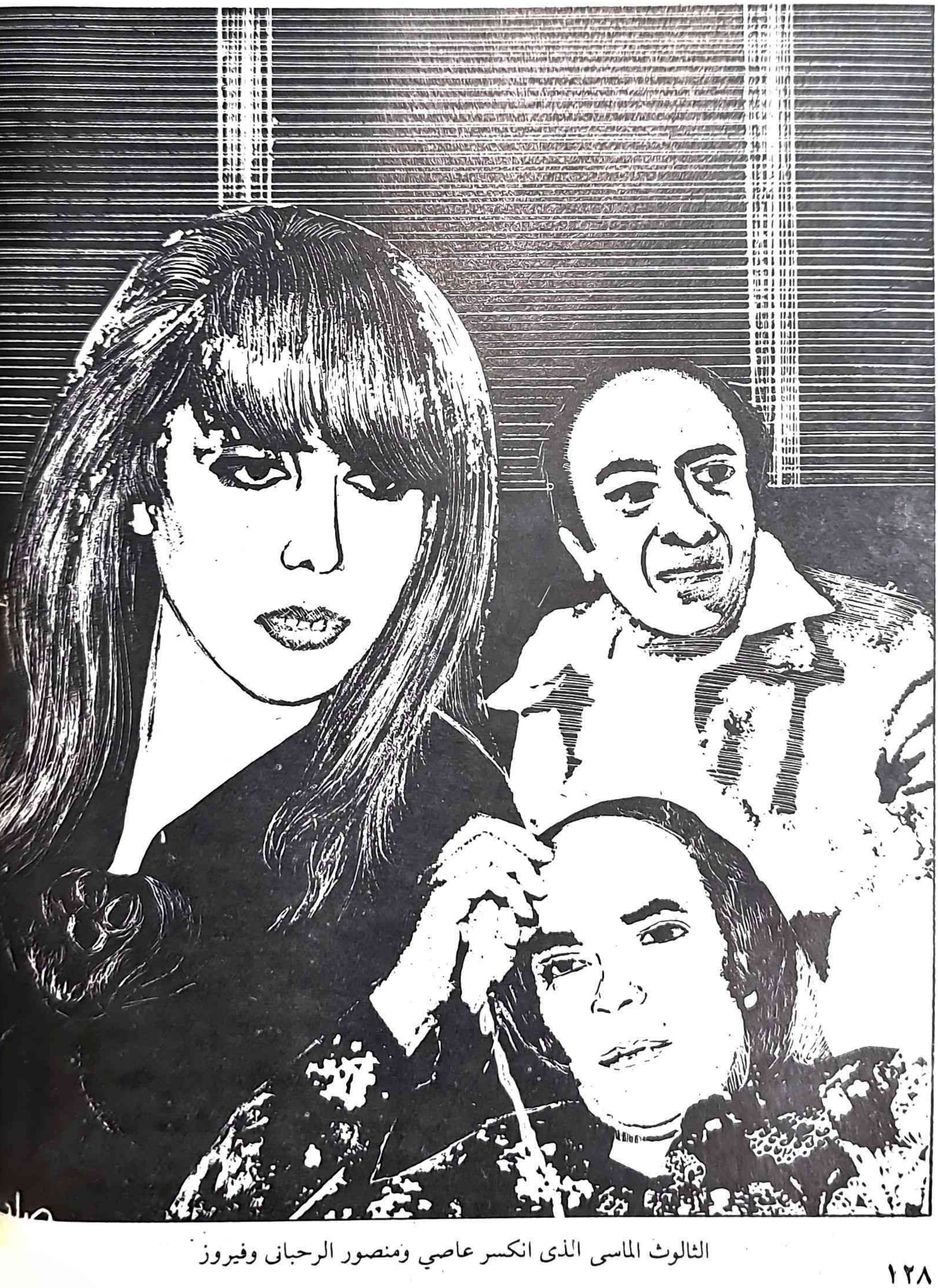
لنقرأ هذه الذكريات ، ففيها صوت وصدى أنغام ما زالت تغمر أرواحنا بالفرح أو ما يشبه الفرح .

عن عاصي الرحباني ، وكُرمى لعينيه اللتين غابتا الى الأبد ، أكتب .

وان كنت لا استطيع أن أصدق . لا أجرؤ أن أصدق . هل غاب حقاً ؟ إن الثالوث الماسي فيروز - عاصي - منصور الرحباني ما يزال يعيش ، يتوهج ، يغني في كل بيت . على كل لهاة . عند بوابات المدن العتيقة ، وفي ساحة الضيعة الملفوفة بالغيم . فكيف ينكسر هذا الثالوث ؟ كيف يموت بعضه ؟ قد يكون الجسد هو الذي انكسر . ولكن هل تنكسر الروح ؟ ونظل لا نصدق الواقع . حتى تنكسر الجباه على صخرة الواقع ! . .

وتعود بي الذكرى الى بعض أيام سنة ١٩٥٠ ، باقة من خمسة أو ستة أصدقاء في حلقة . الشعر يتطاير فيها كالفراش الملون ، والحديث المعجون بالغناء ، والضحك ملء الصدر ، ودندنة العزف . باقة أصدقاء باعوا أعمارهم كلها لقمر مجروح وهمسة جمال . ويصمت الجميع فجأة . الفتاة من

العربي - العدد ٣٤٣ - يونيو (حزيران) ١٩٨٧م .



الثالوث الماسى الذى انكسر عاصي ومنصور الرحبانى وفيروز

بينهم تغني . ما كان في جسمها المعروق ولا في وجهها الخجول الحزين ما ينم عن الصوت الملائكي الذي حين ينبعث منها يحولها الى كائن أثيري يشف . يشف . يشف حتى يكاد يغيب . صوت فيه كل عبير العليق البري والزعتر الجبلي والبلوط العتيق ورائحة التراب الحي ، وفيه ما لست تدري من جوقة الكناري والكروان والشحرور .

« وبتحس عاصوت الصدى الهربان
وديان عم تركض ورا وديان . . . »

كل ذلك في أغنية مختصرة لأربع دقائق أو خمس . التماعة من النشوة كالبرق ، وتنتهي الأغنية . دفقة من السعادة والوجود تصلك لحظة ثم تختفي . وكنا نبهت لينابيع الفرح الداخلي تغمرنا فلا نصفق . ولا نتكلم . ولكنا نتأمل في صمت . ولا ندري ما نقول ! أربعة أمور من تقاليد الأغنية الكلثومية كانت تتحطم مع هذه الفتاة الخجول : الطول ، والنغم التقليدي المكرر ساعات . والكلمات المألوفة : حبي ، قلبي ، العذاب ، والسقم ، وسلبية الحب ! وأخيراً الخروج من الغناء الطبقي ، غناء الآذان المخملية الى الغناء الشعبي للجميع ! طعم الأغنية كان جديداً كله ! وتحمسنا لهذا اللون الجديد الذي يُلتهم كالشطائر في قضمتين ، ويخلف من الفرح المتدفق ما لا ينتهي ! وكتبت يومها بحماسة عن القادمين الجدد ، ويبدو أننا لم نكن وحدنا الذين ننتظر هؤلاء القادمين . الوطن العربي كله كان ينتظر ! ومن هنا انطلقت فيروز . . . لكنها لم تكن صنع نفسها . كانت ركنا في ثالوث ماسي :

منصور الرحباني يكتب الشعر . ويشترك في اللحن . وأي شعر حلو ؟ !
عاصي الرحباني يصنع اللحن ويشترك في الشعر وأي لحن حلو ؟ !
وفيروز حداد تطلق الأغنية .
وأي صوت ؟ !

المؤثرات الأولى

سلخ الثالوث نشأته الأولى بين الشوير وعين السنديانة وانطلياس . بلدات صغيرة تنتشر كالأزهار على السفوح الجبلية اللبنانية ذات الخضرة السوداء ! مطلة على زرقة البحر وزرقة السماء ولا شيء غير ذلك سوى ما تختزن الذات من الأسرار وعصف الجمال . لم ينبع الشعر ولا اللحن ولا الحنجرة الذهبية نبعا عفويا في هذا الثلاثي . قبل أن يجتاز الأخوان رحباني المستوى العام لشعراء وأصحاب الألحان ، وقبل أن يصقلا الصوت الفيروزي صقل الماس ، وقبل أن يقدما أي عطاء ، كانا قد قطعا أشواطاً بعد أشواط من المعاناة والتجربة والقراءة وحرق الأعصاب . لم يجاوزا الصفوف الثانوية الأولى في الدراسة . خصبهما الداخلي هو الذي دلّهما على الطريق . وسلكاه راكضين دون إخوتهما الآخرين . القسيس الذي علمهما ألف باء الموسيقا في الكنيسة علمهما معها أسرار الوتر . القراءات المكثفة التي عكفا عليها في الأدب والشعر أعطتهما الأداة ، ولكنهما تعلما الشعر نفسه من الحسون والقنطرة العتيقة وأدغال العليق . اللحن الشعبي الذي خالط منهما الدماء والأعصاب علمهما التمرد على الموال والعتابا والميجانا المكرورة . غير أن كل ذلك لم يشفع للأخوين عند أبيهما ، صاحب المقهى في فوار انطلياس الذي كان يتباهى ببطولة الجسد أكثر مما كان يهمه تثقيف أولاده ، ولم يشفع لهما لدى الحكومة حين كبرا . . . لم يظفروا منها بأكثر من وظيفة « جلواز » بلدية ، أي شرطي محلي لمراقبة القمامة وبروز الشرفات ومخالفات البناء ! وكانا يدندنان وهما يجمعان ضريبة الرصيف في انطلياس ، وقد ينسيانها إن التقيا بصوت يطلق سحبة ميجانا من الصميم ! تمتد من الوادي الى البحر . وكان الشعر والنغم دانيين ومن حواضر البيت ، وقد عرفا بالحس الجمالي الرهيف الرائع ، أن غابات البلوط والصنوبر وحقول العصافير المملوءة « بالجلول » و « كبوش » التوت ما تزال تختزن مع الميجانا والعتابا لحونا أخرى ما تزال في ضمير الغيب ، تنتظر من يفجرها .

ومن رائحة « الطيـون » وعلى ورق التـين والحور العتيق، كان الشعر يكتب ، والألحان توضع ، والأغنية تنطلق . تركض ، تعربد ، صَبِيَّةٌ تتوهج من بيت لبيت ، لتمشي فيما بعد في أزقة المدن العربية كلها ! .

مولد الحب بين قلبين

شباباً صغـاراً كنا في الخمسينيـات الأولى ننتقل من دمشق الى بيـروت لنحضر ميلاد كل أغنية ، أي أغنية ، لنستمع الى أغنية من خمس دقائق . لكن كنا نتناقش فيهـا أيامـاً . وذات يوم كنـا في بيروت في غـرفة التسجيـل تحت المسرح ، نستمع مع عاصي لأغنية جديدة . وانطلقت الأغنية . كانت فيروز تغني . ولكن عاصي قاطعها مرة واثنتـين وثلاثـاً ، وطلب الإعادة مـرة ومرة ومرة . ومللنا . لم نجد فيها ما يستوجب الإعادة . وانفلت عاصي من غرفة التسجيل وصعد المسرح وأقبلنا نستمع . . . رق الصوت حتى أصبح له هسيس الملائكة ، ودبيب الربيع في الشرايين . فاجأتنا الروعة ، النغم كله رف رفيف الحرير ! كأن فيروز أخرى غير الأولى هي التي كانت تغني الآن ! وخرجت الى المسرح أنظر ما الذي تبدل ؟ فاذا عاصي أمام فيروز يلوح بعصاه الموسيقية . ينظر في عينيها وتنظر في عينيه ، وهما في عالم آخر ! هكذا كانت تولد أغنيات فيروز والأخوين رحباني ! من مولد الحب بين قلبين !

طريق مسدود

وذات يوم من صيف ١٩٥٤ علم الرحبانيان أني في مؤتمر الأدباء الأول في بيت مري . وجاءا عاتبين . واضطررت الى ترك المؤتمر مع أني أحد منظميه لأرافقهما الى بيروت . وجمعا الفرقة التي ألفاها في تلك الفترة لتعزف سمفونية تجريبية يضعانها . وكنت في المسرح المستمع الوحيد . وتناقشنا في التجربة التي

كانا يحاولان فيها طريقا جديداً ، ولم نرض عن التجربة . كانت في بعضها تقليداً ، وفي بعضها الآخر محاولة توفيق ! ولم يعد الأخوان اليها بعد ذلك . غيّرا الطريق كله . طريق التقليد الغربي كان الطريق المسدود ! السمفونية لا جذور لها فينا ، ولن تؤثر . والصوت الأوبرالي الغربي صوت مصطنع وانما يهزنا الصوت الذي يتردد بين القمم والوديان والذي « يتعمشق » كالأزهار البرية على السفوح للشمس والنور الضاحك . واكتفيا بالعّب من اللحن الشعبي العريق ! لا يأخذان من ألحان الدنيا إلا ما ينسجم معه . هكذا كانت تولد لديهما الألحان بنت الأرض التي يعيشان عليها وصدى لفرح الناس .

على أن اللحن لم يطغ لديهما على الشعر . عرفا حتى الأعماق قيمة الحرف المموسق . أدركا قيمة الكلمة الشعرية ، وأنها بدورها متصلة بالأرض ، وبحياة الناس العاديين . وكانا يلتقطانها بموهبة عجيبة . عاصي يصطاد فكرة فيكملها منصور . ويضع منصور شطراً ، فيكمله عاصي ويزيد عليه . أشعارهما الأولى كالأخيرة ظلت مشتركة ومميزة . وكنا حين نستمع الى الصوت الماسي نعرف أننا نطرب معه للشعر الجديد . وقد نحار أي الأثنين أشد أسراً .

واذا لم يعرف الناس عنهما الشعر فلأن قوافيهما « من لغو طفل ومن تغريد عصفور » كانت تذوب في الغناء ، وتعطي الصوت الفيروزي نكهته الخاصة ولون عينيه ! واقترح صديق أن نطبع هذا الشعر وتعهدت على الفور بالأمر .

وجاءت المجموعة الشعرية أسرع مما تصورت . قرأت ما أدهشني . قضيت شهرين أتردد على الرسام المرحوم أدهم اسماعيل أناقشه في القصائد والرسوم . وكتبت مقدمة الديوان وأعطيته اسم : « سمراء مها » ، على اسم الأغنية التي كانت قد شاعت في تلك الآونة تحمل اسم فيروز الى كل قلب . وهكذا ولد أول وآخر ديوان شعر للأخوين رحباني ! وان كانا قبله وبعده شاعرين لا أحلى ولا أروع .

وقبل أن يشيع التلفاز في التسينيات ، ويضع الرحبانيان جهدهما في المسرحية الغنائية كانا يفرغان جهدهما في الاذاعة المسموعة. « أوبريت » مملوءة حناناً وانسانية وشعراً من الشعر . وكثيرون ما يزالون يحتفظون من ذلك العهد ببعضها . كانت أكثر عفوية وأبسط ألواناً من العروض المسرحية التي تلت ، وأقل تعقيداً في التوزيع للموسيقي . ولكنها كانت مرحلة من مراحل الأخوين في القفز الى القمة .

أهو تاريخ قديم كل هذا ؟ بلى ! قد يكون . ولكنها ملامح ضرورية لفهم هذه الظاهرة التي يسمونها بالأخوين رحباني . الربع الأول من هذا القرن كان فيه سيد درويش . الربع الثاني تألق فيه الثنائي عبدالوهاب وام كلثوم . الربع الثالث احتله الثلاثي : « فيروز والأخوين رحباني » الذي حول الأغنية العربية من مجرد تطريب سكوني الى موقف فرح حي ، إلى لحظة سعادة تضج في الشرايين ! قالوا عنهم أنهم ترجموا الموسيقا البيزنطية الكنسية الى العربية ، ولكن متى كانت الموسيقا تنتمي لأي عصر ولأي شعب ؟ ومن ذا الذي قال إن الموسيقا البيزنطية القديمة ليست في جانب كبير منها بنت أرضنا وبلادنا وناسنا نحن ؟ أليست العبقرية في أن تجدد من خلال الأصالة التراثية ؟ في أن لا تترك القوالب القديمة « تقولب » التفتح الجديد وهي تغذّيه ؟ الموسيقا العربية ورثت الكثير عن الموسيقا السابقة لهذه الأرض . ولكنها تتعفن إن بقيت في الأكياس العتيقة . تموت إن بقيت في حدود « القدود » و « الموال » ومدائح الأذكار وموشحات ورقص السماح . صحيح أن الأخوين قد يكونان باعا الخمر القديمة في زجاجات جديدة ولكن هل سمعتم بقصة كولومبوس ؟ كشف هذا الرجل أمريكا وعاد تاركاً لأوروبا أنهار الذهب تتدفق عليها نتيجة هذا الكشف . وحسده الحساد . وذات يوم كان في الحانة وسمع قائلاً يقول : وماذا فعل

كولومبوس ؟ إنه لم يزد على أن أبحر غرباً غرباً حتى وصل ! ولم يعر كولومبوس أذنه للاستهزاء المرير . ووقف على منضدته وقال : إنه تعلم في البلاد الجديدة لعبة وتحدى من يستطيعها . وأتى ببيضة وتحدى أحداً يستطيع إيقاف البيضة على أحد رأسيها . وحاول الجميع ذلك عبثاً . حين فشلوا أخذ كولومبوس البيضة وضربها على وجه الطاولة فانكسرت ووقفت على قاعدتها . وصاح الجميع :

ـ ولكن هذا سهل ، كل انسان يستطيعه ! . . .

ـ قال حسناً ! ولكن هل فكر أحدكم فيه ؟

دستـــور العـــرب

الأخوان الرحباني حالة غنائية لأنها في الأصل حالة أيديولوجية . ولهما في التحليل الأخير فلسفتهما الفكرية ، وموقفهما المميز . كانا يعتبران أن الأغنية أفضل حالة أيديولوجية ، وأن الفنانين هم فلاسفة العرب . وأن الأغنية دستور العرب الجامع . وكانـوا يهدمـون ويبنون الأفكـار بمتفجرات من الألحـان ، وبأفكار توغل مع الغناء لتحكي مـا تريـد للناس ، وهي تـركض عفواً عـلى الألسن ، مقالب مختار الضيعة للاحتفاظ بمنصبه وسيطرته وبالمتملقين ، أليست تحكي ، في قالب اللهو البريء ، قصة كل الظلم ؟ وحين تغني فيروز :

« هالسيارة مش عم تمشي
بدها حدا يدفشها دفشة
بيحكوا عن ورشة تصليح
وما عرفنا وين هي الورشة ! ! »
أليس يحكي الأخوان في هذه الكلمات
كل قصة الحيرة العربية ؟
وحين ينطلق صوت فيروز رقيقاً كالنسيم حاداً

كالسيف ، مؤثراً حتى في الحجر :

« ما في حدا لا تندهي ما في هدا
عتم ، وطريق ، وطير طاير عالهدا
بابهم مسكر والعشب غطا الدراج
شو قولكن : شو قولكن صاروا صدى . وما في حدا ! »

ألم يكن الأخوان يرسمان مبكرين حالة اليأس التي انتهى اليها الوطن العربي ؟ ما في حدا ! .

وهل بكى القدس أحد ، بكاء الصلوات الخاشعة والأمل البعيد ، كبكائهم وصلواتهم وأملهم .

للقدس سلام دائم !

وبأيدينا سنعيد سلام القدس ! . . .

أجراس وضمائر

فيروز والأخوان رحباني نقلوا هموم المتعبين والمكدودين من الأزقة إلى كل لهاة . حاولوا تسويق الهموم الكبرى من خلال هموم الوجوه المعروقة وهمس البسطاء ، كانوا واثقين من أن النذر التي أطلقوها في الأغاني ستظل تقرع الضمائر كالأجراس كلما تحركت الألسن بالأغنية ، وفي كل مكان أليست هذه رسالة الفنان ؟

إنهم أكثر من هذا كانوا ينشرون بين الناس الفرح . يقولون : نحن نعاني . نعاني من نقص في الفرح . يجب أن يستورد التاجر ، مع الرز والسكر والقمح بضع أطنان من الفرح لتتوازن الحياة . إن في حياتنا من الهموم والبؤس أضعاف ما فيها من الأمل . ويجب أن ينتهي العذاب والسقم والضنا والصبر السلبي من الأغنية ليحل محلها البهجة وثورة الحياة وعواصف القمم .

وأحب الأحاديث الى الأخوين ، والى عاصي بالذات ، حديث العدم

والوجود والحياة والموت . كان يجد لذة خاصة في العودة مرة أخرى الى « الميتافيزيك » . كان يجد فيه ذاته وموسيقاه والشعر ، وما وراء الذات والموسيقا والشعر . وكان الزمن هاجسه الذي يركض في كل أغانيه ، وحين كان يتمايل كالقصبة الراعشة وهو يسمع الموشحات كانت الأزمان تختلط أمام عينيه . . . أيها السيد زرياب أنت مدعو للعشاء عندنا الليلة ! لا تتأخر ! .

وهكذا اعتمد الثالوث الماسي في موسيقاه ثلاث قيم : الجمال أولاً والتراث والعصر . وعبَّر عن ذلك من خلال ثلاثة محاور : فولكلور القرية ، قضايا الناس العاديين ، والشعر البسيط الزجلي في معظم الأحيان . أعطوا اللحن الشعبي القروي قيمة عربية . وزعوه على الأرض العربية كلها ، باعوه لكل العرب . وبذلك فهو ملك الجميع . حتى اللهجة العامية اللبنانية صارت لهجة عربية محببة مفهومة بوضوح في المغرب كما في السودان واليمن . كانوا يعبرون بذلك عن الرابطة الثقافية التي تشد الوطن العربي . بعضه الى بعض . ولم يكونوا يمثلون فترة الأوج في العطاء اللبناني ، ولكن فترة الأوج في وحدة المشاعر العربية . فترة عبد الناصر ! ولم يخلقوا لبنان آخر هو النقيض للبنان الحالي الذي ينتحر ، ولكن وطنا عربيا موحدا آخر تبنيه الأرواح الموحدة وراء هذا التمزق،وعلى الرغم من هذا الزمن الرديء ! ويستعينون على ذلك بكل المواهب ، سعيد عقل بثقله الشعري كان يرفدهم فترة من الزمن ، نصري شمس الدين بصوته الرجولي ، فيلمون وهبة بهزله الموسيقي ، كانت الجماعة تبحث بكل مكان عن الكلمة الجميلة . الجملة الموسيقية الرائعة ، الحبكة الحلوة التي تربط رسالتها من الفكر والغناء . بهذه البضاعة دخلت فيروز كل مدن العرب وكل أريافه . صارت جزءاً من عالم الغناء العربي ، خرجت من الظل الرمادي لتصبح فرحاً ومجداً وبطولات حيث حط حافر المهر . وليصبح « المير » بشير و « المير » فخر الدين جزءاً من التراث الثقافي للناس .

وأهم ما في الأخوين رحباني على المستوى الانساني هي السجايا الرائعة . إنهما فنانان ، فيهما كل رؤى الفنان وسماحته وكرمه والعطاء . الأخلاق

كانت ميزتها ، كانا ينفقان ٩٠٪ من دخلهما الكبير على العمل الموسيقي . والباقي ينفقه عاصي في نسيان ذاته . كانا مثال « لبنان الكرامة والشعب العنيد » أنفقا على صقل فيروز الكثير ، وعلى الدعوات الكثير ، وعلى الفن الكثير ، ويوم انفجر في عاصي الشريان الدماغي من كثرة العمل قبل خمس عشرة سنة لم يكن لديه شيء ، لم ينجده في المرض إلا هبة شخصية من رئيس الجمهورية العربية السورية وصلت في حقيبة مسرعة .

حين انكسر الثالوث

يومها فجع الجميع لأنهم شعروا أن الثالوث الماسي انكسر . فقد قاعدته ! ومع أن عاصي أنقذ ، عاد جسداً يتحرك ويعمل . . . ولكنه وحده لم يدرك أن عاصي العبقري قد مات ، وهذا « عاصي » آخر . بقايا جسدية محطمة ، الذين حوله وضعوا أيديهم على قلوبهم ، وبكوا في صمت . وتابع الثلاثي العبقري الطريق ، ولكنه كان يعرج ، يحشرج حشرجة الموت . الثالوث كان وحدة واحدة يتمم جانب منها الجانب الآخر . واذا فقد أحد أركانه فقد كله . وحين كانت ذرة الدم المتجمدة تغلق شريان عاصي لم تكن تعلم أنها تغلق باب الفرح . تنهي عبقرية ، تختم عصراً من الغناء . وتطفيء القنديل الأخير !

عاصي في الواقع مات ثلاث مرات . جاءه الموت منجماً مقطعاً على مراحل .

مات منذ خمس عشرة سنة حين فقد الدماغ الذي يبتكر حيويته وآليته المبدعة . كل عشاق اللحن والشعر تابعوا لحظة عملية الانقاذ . وأنقذ الجسد لكن عبقرية اللحن ذهبت الى غير رجعة .

ثم مات مرة أخرى في مطلع سنة ١٩٨٦ . ووقف على عتبة العالم الآخر

يتحول مع الغيبوبة الدائمة الى جثة تتنفس في غرفة بمستشفى الجامعة الأمريكية في بيروت .

ثم مات مرة ثالثة يوم عبر المعابر المحرمة ، في بيروت من حاجز الى حاجز ، - وهو الذي عبرت ألحانه جميع الحدود العربية دون حواجز - ، ليصل الى انطلياس ثم الى المقر الأخير ! . . . .

واذا ظل منصور ، (أبو غدي) يبكي طويلاً فلأنه كان أيضاً يبكي نفسه ، كيف يعتاد الإبداع المفرد وهو الذي ظل دهراً يكتب ويلحن وينظر في أعماق الصوت واللحن والشعر مزدوجاً بأخيه ؟

وتوقفت فيروز . . . تعيش على أمجاد الماضي وخبز الماضي ، وبأي لحن تصدح بعد أن غاضت حولها الألحان !

أهو رثاء لعاصي ، هذه الكلمات ، أم رثاء للثلاثي كله ؟ لست أدري ولكني أقول لأخي منصور ، أيتها السنديانة الحبيبة الصامدة يا أبا غدى ، أنت قلت لي مرة : لست أنسى أنك أول من كتب كلمة طيبة عنا . إني سعيد أني لن أكون كاتب الكلمة الأخيرة . لا لأني لا أستطيع كتابتها فحسب ، ولكن لأنه ما من أحد يستطيعها ، إن الآلاف سيكتبونها .

لقد مضى عاصي في جنازة رسمية .

لا موسيقاه رافقته ولا الموسيقا الجنائزية ودعته الى مقره الأخير . وحدها رافقته القلوب الدامعة .

كانت تبكي الفرح الذي فقدته ! . . . . □□



الفصل الثالث

شيء من الذكريات

أميركا اللاتينية .. ذلك العالم الجديد

لو وقفت بك الخطى ذات يوم ، في ساحة المدينة ، أمام تمثال ضخم لحذاء عتيق ، فماذا تراها جنيات الظن ملقية في وهمك ؟ أهو حذاء جندي عملاق ربح معركة ؟ أم نهاية الطريق ألقاه هناك أول مؤسس للمدينة ؟ أم هو مس من جنون ألَّم بالبلد ، فاذا هو بدل التماثيل المردة ، يعشق الحذاء العتيق ؟

لقد لاكت ظني مرة هذه الفروض وأنا أطل على ساحة كبرى في (كارتاهنة) ابرز مرافىء التاريخ الاسباني على البحر الكاريبي ، فإذا بالساحة تستدير حول حذاء ضخم من الحديد الأزرق يكاد يتسع لطفلين ! . . ولكن اللوحة البرونزية التي كانت تتمدد أمام الحذاء كانت تحمل قصيدة . وكانت القصيدة تقول :

أحبك يا وطني !

احبك حبي لحذائي العتيق !

وعرفت أن النصب إنما اقيم تكريما للشاعر صاحب هذه الكلمات !

ولقد جرح خيالي أن يحفظ الكثيرون هناك القصيدة ، وأن يربط الشاعر بينهم وبين الوطن برباط من حذائه العتيق !!

على أني من يوم إلى يوم ، كنت ألقى هناك في العالم الجديد ، جراحا

العربي ـ العدد ٢٣٥ ـ يونيو (حزيران) ١٩٧٨ م .

اخرى على الخيال ، مناخا آخر ينداح امامي لم اعتده . كان المألوف الراكد وراء جلدي يهتز دوما بجديد وافد . كانت تثقبه حصاة هنا وحصاة هناك . وكنت أفتح يوما بعد يوم جانبا من نفسي لهذا الجديد ، يؤويه ويتمثله . ولابد أن ثمة معراجا مختلفا من المعارج نحو مصير مختلف !

العالم اللاتيني

وعن هذا الجديد - كما رأيته - سأتحدث . عن العالم الذي يدعونه باللاتيني ! هناك على بعد مائة كيلو متر من تمثال الحذاء يقوم تمثال آخر لكريستوفر كولمب . يزعمون أنه هناك حط قدمه ، أول ما حطها ، في القارة . وهناك وقف « الهنود » ، كتماثيل آلهتهم القزمة ، تستدير عيونهم ، على الجزر ، لمولد انسان آخر من الماء البعيد !

لم يصف الخيال الهندي تلك المفاجأة الخالصة ، لأن سيف ذلك الوافد الاول كان مختفيا وراء الشراع . وكانت يده أسرع الى السيف والبارود من الخيال . ظلت المفاجأة سؤالا مرعبا على جمجمة الهندي المتعفنة ... ماتت وجهة نظره معه .

أما الفاتح فركض وراءه كسيل الجبل ، ظامئون آخرون للذهب والدماء يتقدمهم على الشعاب والغابات ، جيش من الرعب !!

وأشهد لقد رأيت عينيْ تمثال كولمبوس فارغتين . فارغتين حتى العمى القاتل . بريق الذهب هو الذي اختطف البؤبؤين . فبقى في الآجام القريبة من ذلك التمثال الى اليوم أحفاد اولئك الهنود الذين رأوه : بقوا في العرى والنشاب وبدائية الخلق الأول لم يقربهم انسان من الانسان بعد !!..

لقد رأيت صورة لكولمبس تصوره على شاطىء الوصول : نصفه الايمن قسيس في المسوح يحمل الصليب ونصفه الايسر محارب فيّ الأمة السابقة يمد

السيف . كذلك ، في الواقع ، كان الفتح : سيفا يقتل وقسيسا يبارك . اما الانسان الذي يلتقي بالانسان فقد ضاع بين الاثنين لأنه لم يكن له وجود .

عصر الاكتشافات

وذلك اللقاء الذي نباركه نحن باسم (عصر الاكتشافات الكبرى) كان ملحمة دم واشلاء دامت أكثر من قرن ونصف القرن . وبينما كانت محاكم التفتيش تبيد الحضارة العربية في الأندلس كان أبناء تلك المحاكم يهجمون كالعلق الضخم على أطراف القارة المكتشفة : فهندى ذاب فيهم وهندي هرب الى الغابة !

وتهاوت امام الفرسان المباركين اضلاع الهنود الهمج ! . . تهاوت حضارة (الازتيك) [1] في المكسيك باهراماتها ومعابدها الذهبية . وداست الحوافر على شعوب (الشيبشا) في كولومبيا . ومسحت السيوف معابد (الانكا) في بيرو مع الرؤوس اليافعة . وأبادت هنود (الكانما هاناري) في البرازيل ، وما أثلوه من سور ومعبد . وشرب (الاراوكانيون) في شيلي الشوك والسل والصاب قبل أن يذوبوا . . يذوبوا في الفيض البشرى المنتصر !

ظلت انباء الملوك الصرعى والشعوب المسترقة تنهمر من كل الشعاب الجبلية وعبر السهول المديدة والمسالك الغابية المظلمة ، مائة سنة أو تزيد . (بيسارو) [2] ، (كورتيز) الرهيب ، (فالديفيا) الذي أكل المحاربون قلبه ، (ماك ليون) الايقوسى الذي مات مجنونا من الرعب . . اية أسماء من

---

(١) هذه أسماء أشهر الحضارات الهندية السابقة لكولومبوس في القارة اللاتينية .

(٢) هي أسماء المشاهير من الفاتحين الاسبان الذين اكتشفوا القارة !! ودمروا ما فيها من حضارة ومن فيها من بشر .

الجحيم تلك ؟ لقد طالما أرجفت الصخور من الرعب وأسكرت الارض دما وذهبا . .

السكان أخلاط

على ان هذا اللقاء المأساوي قد نُسى الآن هناك أو كاد . أما حضارات ما قبل كولومبس فبقيت تماثيل مصفوفة هنا وهناك !! آباء من حجر لأبناء مجهولين او عقوقين ! واذا كان الامريكي الشمالي ما يزال مؤرقا « بعقدة الهندي » يصوره في الأفلام وحشا ، غدارا ، في محاولة يائسة ، لتهدئة الوجدان الامريكي القلق ، وللهرب من ذلك الاتهام الداخلي الذي يقرضه ، فان احفاد الاسبان لم يحتاجوا الى مثل ذلك في القارة اللاتينية . لقد افتداهم بعض الاسبان المحرِّرين في القرن الماضي : (بوليفار) ، (سان مارتان) ، (كاريرا) ،



● كولمبس : مكتشف أمريكا

(مارتي) [٣] ، محوا ببطولاتهم أيام التحرر ، ذلك الحقد القديم ، بينما كان أحفاد الفاتحين قد اندمجوا في الخضم الهندي الذي افترسوه ، لأن الحضارة التي كانت تنمو وراءهم في اسبانيا كانت حضارة غير أصلية . كانت يقظة سيف لا يقظة فكر . تركتهم هناك للانحلال لأنها لا تستطيع ان تكون معهم . وهكذا ذابوا وذاب معهم ملايين الزنوج الذين كانت تقيئهم لهم مراكب النخاسين والقرصان على الشواطىء .

وهكذا ظل الهندي القديم سيد القارة اللاتينية ! إنه يظهر بنقائه المغولي النحاسي في أكثر من ١٥٪ من سكانها ، ويظهر مزيجا بالابيض او الزنجي في ٦٠٪ من السكان . وأما الابيض من سلالة الفاتحين او المهاجرين التالين فلا يحتل أكثر من ١٥٪ من الملايين المائتين والخمسين التي تعمر القارة ! والخلائط العرقية المهاجرة ما تزال واضحة الملامح ما بين (ريو كرانده) في المكسيك ، و(ارض النار) في الارجنتين . إنها تعيش على اطراف القارة ولما تندمج بعد في تكوين عرقي (لاتيني) جديد . فايطاليون ، وهنود أصليون ، والمان ، وعرب ، واسبان ، ويابانيون ، وزنوج ، مجموعة جنب مجموعة . وانما يجمع الناس على ارض القارة ، الولاء للثروة الهائلة في الارض ، لا الولاء للتراب . ولقاء الجشع والكسب لا اللقاء بين قلب وقلب !

وتمتد هذه القارة ، بعد ، كالكف المعطاء ، كالقلب البكر او على شاكلة القلب الكبير لهذه الملايين : عمود فقري في الغرب يتمرد جبلا وفوهات براكين وقمما تعممها الثلوج . سهول ترضعها الجبال نهرا بعد نهر من (الاورينوك) الى (الامازون) وهو « النهر الاب » ، الى (البارانا) . . . وطبيعة وحشية الجمال ، وحشية الجمال حتى الالم ! اتذكرون تلك الصفحات التي كتبها (شاتوبريان) ذات مرة في (آتالا) ، إذ قال : إني لفي ريب من أن يكون ،

---

[٣] اسماء كبار قواد الحركات التحريرية في القارة اللاتينية .

قد احسَّ حقا بذلك المحيط اللانهائي من الخضرة والحياة والصخر والمياه الراعشة فيها وهي تمور !

يقول شاعر شيلي (بابلونيرودا) :

يا امريكا ، يا معبرا من شجر
ايتها العليقة البرية بين البحار
انك ، من القطب ، الى القطب ، تهدهدين
الكنز الأخضر : غاباتك الكثيفة
إنها غابات حتى لتفنى النار والفأس ، وقمم زرق كأسنان التنين الحديدية .

وعصائب طير ملون ، كما لو جمدت قوس قزح على هذا الجناح أو ذاك ، ووحش يدب او يزحف وسط الدغل الأبكم ، ونجمة عارية مجنونة تتأمل أعماق الجلد ، وزهرة (كوبهو) أو (اوركيدة) نبيلة من ارستقراطية الزهر ، وجذور ملتفة باغصان كحقد قلب ، وخصب كما لو انهلت الدوالي زقاق خمر ، وشلالات كأسهم غاضبة تريد العودة الى الارض ، وسهول تلهث لتدركها الآفاق ، وبحار تجرى في الأنهار . . وعليق ، ومستنقعات ، وخلجان واودية . . كل ذلك فوق الكنز المرصود في الأرض ، من عروق فحم ، وزمرد كالحصى ، وطبقات فضة وذهب ، وأهوال من النحاس والقصدير والنترات ، والحديد والبلاتين .

الثروة البكر

وما عرفت هذا العالم بعد ، إن لم تعرف أن هذه الثروات لم تزل في عطائها الأول . لم تنفذ اصابع الانسان بعد الى قلب القارة فتستنزفه . وما عرفت هذا العالم بعد : ان لم تر قطعان البقر كالمد الاغبر في (بامبا) الارجنتين ، وعيون

عمال المناجم المنطفئة في شيلي وحبة البن السمراء تملأ هموم البرازيل وكولومبيا ، وغابات قصب السكر في كوبا ، ونزيف البترول في فنزويلا .

وما عرفت هذا العالم بعد ، إن لم تذكر أن الحضارة والناس إنما تطيف به من أطرافه فحسب ، وتتهيب حتى الآن اعماقه . تعيش على الشطئان البحرية الخارجة وتنقطع خطاها قبل الغابة العظيمة وعمالقة الجبال . ان أعظم مدن القارة انما تنتشر كالعقد المضيء على الحواشي المستحمة بالبحر ، أو التي تكاد : من « ريو » الى « بونس ايريس » الى « سنتياغو » الى ليما ، وكيتو ، وبوغوتا ، وكاراكاس . هنا كل ترف الحياة الحديثة وآلاؤها وألقها الماتع . وما من احد هناك في الأعماق الأمازونية أو على الوديان ، كهوى الجحيم ، في (الاند) . وحدها تجثم الاشجار ، والصخور ، والمياه ، والافاعي ، وعصائب الطير ، وقطعان الوحش ، ورهبة الخلق الاول !

بلى ، قد ينطلق سهم حديد بغتة ، أو تظهر عيون هندي بدائي ، كحقين من دم بين الأوراق المتكاثفة ، فثمة ينتهي مدى الانسان الذي هو نحن لتبدأ دنيا الانسان الذي هو جزء من الغاب . لقد كان بناء (برازيليا) مغامرة انطلاق ، رمز تغلغل نحو ما هو الامازون ! أما فيما بين الأعماق والشاطىء المجدود فان نشيج القناديل ما ينفك يسمع هناك ، وافتراس العجول على النار الضخمة ، وشرب الكحول الردىء وعصيات (كوخ) في الصدور ،وشحوب الملاريا في العيون !

ولا فرق بين المدثر (بالروانا) في كولومبيا أو (الفاودشو) على المهر في الارجنتين . كلهم اعطاه النحاس ، نحاس الارض ، لونه ، وراء العيون اللامبالية السوداء ، وان لم يعطهم مقاومته ، فمتوسط الأعمار هناك لا يزيد عن خمس وعشرين سنة ، ومعظمهم أعطته الأمية طمأنينتها الحيوانية ، فمتوسط من اتصل بالمدارس لا يزيد على ٤٠٪ .

رواق الكنيسة الكاثوليكية

وللكنيسة الكاثوليكية ، بعد ، الرواق الممدود هناك . واذا كان خليفة بطرس الرسول يحمل تاجه في روما فانه ينصب عرشه الحقيقي هناك فيما دون ارض المكسيك حتى سهوب (باتاغونيا) الحائرة في الجنوب ، أو ليس نصف كولومبس قسيسا ؟ اذن فلا فرنسا وايطاليا ولا اسبانيا في كثلكتها تعدل ركوع رؤساء الجمهوريات اللاتينية (عدا المكسيك) امام الاسقف الرسولي ! والمسوح السود في كل بيت تذكرنا برهبان اللاما الذين لا تخلو منهم عائلة في التيبت ! وللكنيسة أرض الاقطاع واليد السياسية التي ترتفع وتصنع ، وتكون العقول للغد . الله وقيصر يعيشان هناك على عرش معا . لا يأخذ قيصر ماله إلا في المكسيك أما ما وراء ذلك فالقداس يعيش في رئتي الدولة والشعوب جميعا . ففي كل نفس منهم ناقوس يدق وصلاة علوية ترتل !

واما الحكم فللديمراطية البرلمانية منه الاسم ، وللاوليغاركية أو البلوتوقراطية أو الأوتوقراطية ، وهذا المعجم من (القراطيات) ، الباقي كله . . . الاقلية هناك هي التي تصنع إرادتها في أفواه القضاة ، وعلى مكاتب الحاكمين ، ومنبر البرلمان ، لقد تكون عائلية أو مالية أو عسكرية ، ولكنها هي الفئة الحاكمة دوما ، عهدا بعد عهد . وهي هي في الزيف والاستغلال والدجل الشعبي . انهم يدورون في فراغ العقيدة . ما تزال الديمقراطية فيهم (ايديولوجية) مستعارة وغير مفهومة بالرغم من مائة وخمسين سنة من التبجح الديمقراطي ومن تاريخ استقلالي يرقى الى مائة ومائة وخمسين سنة . ان التكوين الاثنولوجي والاجتماعي - الاقتصادي يكشف هناك عن مساوىء الديمقراطية لا عن وجهها المشرق . يجعلها مزرعة استغلال لا وسيلة رفاه شعبي ! ويفسح المجال لزحف (البذلات الكاكية) باستمرار الى دست الحكم ، بدل ارادات الشعوب !

وتستريح الولايات المتحدة الى جاراتها اللاتينيات منذ نصبت بينهم وبين العالم ـ غير الامريكي ـ سدا من مبدأ (مونرو) الذي اضحى في آخر صور تطوره (منظمة الدول الامريكية) ، إن القارة اللاتينية مزرعة ضخمة ألقتها لعنة الجغرافيا لاستثمار (اليانكي) و(الغرينغو)[٤] . عشرة آلاف مليون دولار تبعثها الجارة الشمالية في عروق القارة لتنزف وتنزف ، من كل شيء !

إن امريكا (الشمالية) هناك في الجنوب هياكل المنيوم ممردة وسمفونيات من الاسمنت كالاطواد ، ومنجم يهترىء فيه الجسد ، ودولار رواغ ذو وجه أزرق ومصرف وشركة ومكتب وعملاء بعشرات الالوف . الامازون الحقيقي ليس ذلك النهر الذي يسيل في عرض القارة ولكنه ذلك الذي يتدفق ذهبا من عروقها الى (وول ستريت) !

منذ سنوات زار رئيس الجمهورية الكولومبية امريكا فأكرمه (نلسون روكفلر) حاكم نيويورك بأن اهداه خمسين الف هكتار في ارض كولومبيا !!

ان في تاريخ الفتوحات الاسبانية قصة رواها الشاعر (نيرودا) تذكر أن (بيسارو) الفاتح الوحش انتصر على ملك (بيرو) بسنابكه . وسيق الملك المغلوب (اتاهيالبا) اسيرا جريحا الى السجن . ودخل بيسارو عليه فوجد على الجدار خطا احمر من دمه . كان يحاول الهرب ! . . . اذن فعلى البيرونيين ان يملأوا ثلاث غرف بالذهب والفضة حتى ذلك الخط الاحمر ! وأخذت العربات تذهب وتجيء ، تحاول دون جدوى تغطية ذلك الخط ! . . . ويظهر ان هذه العربات ما تزال منذ اربعمائة سنة تذهب وتجيء محملة بالسكر والنحاس والبترول والنترات والقهوة والموز والمطاط والبلاتين ، دون ان تصل الى الخط الاحمر !

□□

---

[٤] لقبان يطلقان في القارة اللاتينية على ابناء الولايات المتحدة .

كولومبيا .. زهرة أوركيد وزمرّدة وحبّة بن سمراء

مساء ٦ يونيو (حزيران) من سنة ١٩٧٨ . على شاشة التلفاز ، وفي نشرة الاخبار ، مر خبر عابر لعله لم يجذب انتباه أي عربي . وكيف يفعل ؟ الخبر لم يأخذ سوى دقيقة من الوقت ، وكان عن بلد بعيد بعيد كأنما يعيش في عتمة الأحداث والناس . تدور الشمس في فلكها دورة السنة فلا تسمع عنه خبرا في سطر . حتى المذيع أخطأ في نطق الاسم الذي ورد في الخبر - هل تراني كنت الوحيد الذي غاص الخبر في قرارة صدره ، غاص كالنيزك اللامع ، كالاسهم النارية في الليل . فاذا سنوات كاملة من الماضي تبعث في جبيني ، تضج ، تحتشد ، تموج حية موارة على فم لحظة ؟

كان الخبر عن كولومبيا . . . وغام كل شيء أمام عيني المفتوحتين . عدت خمس عشرة سنة الى الوراء . هل تسمع بكولومبيا ؟

. . . زهرة (أوركيد) وحشية[1]

وزمردة كجنون الربيع .

وحبة بن سمراء ، سمراء . . . وقاسية

العربي - العدد ٢٣٧ - أغسطس (آب) ١٩٧٨ م .

(١) هي الزهرة الارستقراطية المعروفة . ومزارعها الواسعة في كولومبيا تحوي ما يزيد على ٤٠٠ نوع ولون منها . وكولومبيا هي الى ذلك أيضاً بلد الزمرد الأولى ، وبلد البن .

هذه هي كولومبيا . البلد الوحيد الذي وفى لكرستوف كولومب في العالم الجديد ، فأخذ اسمه بعد ان حملت عدة قرون اسم « غرناطة الجديدة » وان لم تكن من غرناطة الحمراء في شيء ، إنها مليون وربع مليون من الكيلومترات المربعة . مائة وعشرون مثل لبنان ، وألف مرة من غاباته وصخره المرد وثلجه وشطآنه المتطامنة للموج . وقبل أن تلتقي مياه المحيطين الاطلسي والهادي في قناة (باناما) فانها تصفع ، وتداعب ، وتركض ، ثم ترتد على شواطئها في الشمال والغرب .

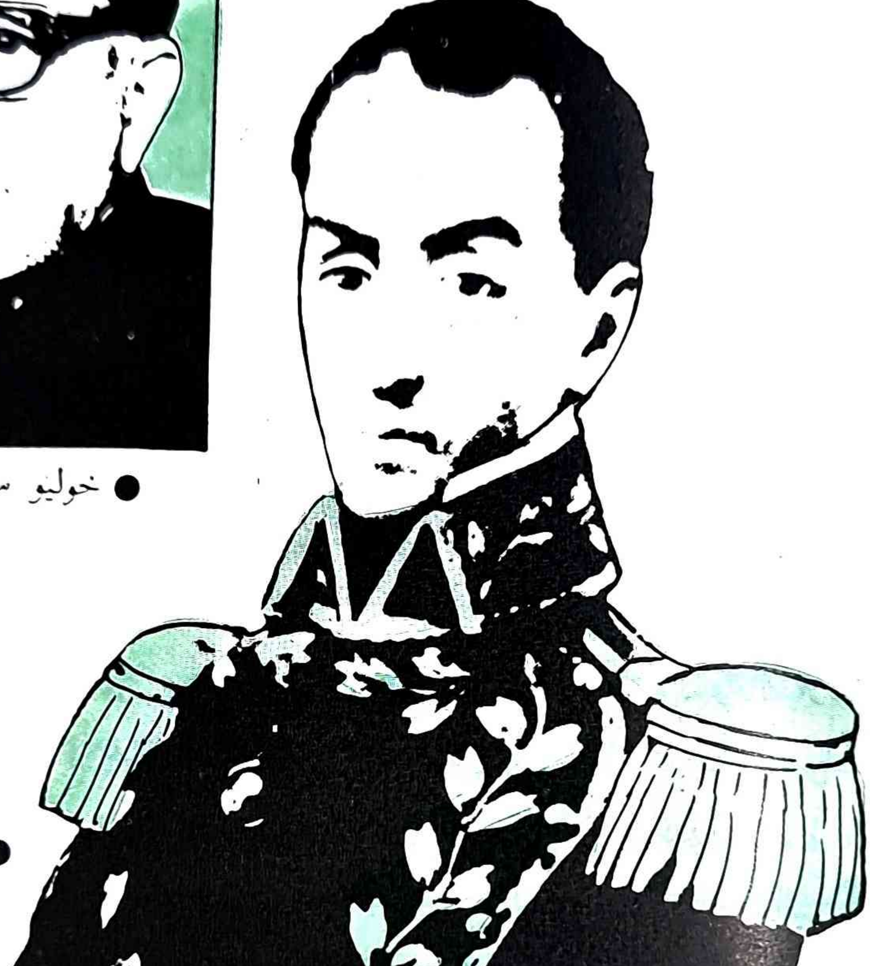
النيل ؟ اين النيل من نهرها العظيم (الماغدالينا) ؟ (ومون بلان) ؟ أين (مون بلان) من ثلوج (نيفادل رويس) ؟ والغابة الافريقية ؟ اين منها الادغال ؟ الادغال المظلمة التي ما تزال تحتضن الوحش ، والافعى ، والنسر ، وتلاوين الببغاء ، والانسان البدائي الاول ؟ هناك امريكا التي لم تتأمرك بعد ، ما يزال فيها الطعم الحريف المدهش لعصر ما قبل كولومبوس !

عالم مدهش

فمن الثمانية عشر مليون كولومبي لا يعيش في نصف كولومبيا الشرقي سوى عشرة آلاف انسان ! هناك اليانوس ، افق محدود ، اذا استغرقت فيه حسبت ان الله لم يخلق سوى السهل . واذا صعدت في النصف الغربي وتسلقت جبال الانډ ، العمود الفقري لكولومبيا (وللقارة) ، ولمست الصخور البنفسجية التي ما لمستها قبلك غير الثلوج ، او غرقت في الغاب البكر ، الذي تضيع فيه حتى اليوم بعثات الاسكتشاف بعثة بعد بعثة ـ وقفت كالمشدوه امام شلال الانتحارات (التكنداما) ، سهم الفضة الذي ينغرس ١٥٠ مترا في قلب الصخر ! ثم تهبط من جديد الى سيف البحر لتصبح ضبابا من (عرق) ولهاث قيظ استوائي عنيف ! هنا تجد الوجوه الأبنوسية التي لفظتها مراكب النخاسة ، منذ قرون معدودة ، آلات حرث وزرع في ذلك البر الأوسع .



● خوليو سيزار طورباي



● سيمون بوليفار

أما في قلب الغابة وعلى أطرافها المتصلة بالناس فثمة الهندي القديم ، الهندي الذي « رحب » بكريستوف كولومب وأعطاه ذهبه ، وما يزال يعطيه إلى اليوم هذا الذهب ! احفاد (الشيبشا) ما يزالون في العرى والنظرة المتكبرة والفم المنكمش ريبة ودهشة . و (الموتيلونز) ما يزالون الى اليوم على الشجر والسهم الحديد بأيديهم ، لا يتصلون بالناس ولا يصل اليهم الناس أو يحاولون ! في طائرة هيلوكوبتر منذ سنوات انتصرت عليهم الحضارة حين مرت الطائرة فوق غابهم ، وبيوتهم من ورق الغاب ، تصور من عل ، دهشتهم وقفزهم القردي نحوها !

ومع ذلك فاذا شق الفاتح الاسباني الابيض طريقه في كولومبيا وتوطن في وادي (الكاوكا) او في بعض نقاط الساحل ، او بعض الهضاب الجبلية العالية فقد القى الهندي ، فيها القى في جبينه ودمه ، بكل ملامحه . واذا وجدت ١٥٪ من الكولومبيين البيض ، و ١٠ بالمائة من الزنوج و ١٠ بالمائة من الهنود الاقحاح الخلص ، ففي كل منعطف من البلاد تقفز الى عينيك الملامح الخليطة من سمرة البحر المتوسط وخدود الهندي المغولية القاتمة . وتزهر الحضارة في كولومبيا ، في عدة نقاط مضيئة ضمن ظلام الغابة . فاذا تجاوزت الساحل ما بين (سانتامارتا) الى باراتكيا) الى (كارتاهنة) ، واستثنيت خط المدينة من وادي (الكاوكا) ما بين (بوبايان) و (كالي) الى (مانيزالس) و (مديين) واذا اضفت الى هذه المجموعة من المدن : العاصمة (بوغوتا) ثم بوكارامنفا) و (كوكوتا) فليس ثمة من جو مدني متحضر وراء ذلك . . بلى ! انك تدخل من(بوغوتا) في جو امريكي وتتمتع فيها بالتلفاز وبعشرين محطة اذاعية وبأنوار النيون وبالفيلات الحديثة والسيارات التي لم يحلم (خمنيزدي كيسارا) باني المدينة بأنها سوف تكون . . . وتعيش في (مديين) في مدينة لا اروع ولا ابهى ، كلها نشاط ، وجد ، ومصنع نيفة الدخان ،ويروقك الجو التاريخي والبحر المتداخل في البر ، كالبندقية ، في مدينة (كارتاهنة) وتعجبك كالي ، الجنة الصغيرة الخصبة ، و (بوكارامنفا) التي تطوقها الوديان . إنها مدن للحياة ، وللحضارة الرخية ، ولكن لا تجاوزها ! لا تجاوزها اذا اعجبتك . الى الريف او الى الغابة . إن التناقض ، رغم المنظر الوحشي الفاتن الهائل الفتنة ، كفيل بأن يفتح عينيك حتى آخر الآفاق .

ابنة البابوية المفضلة

والبلد غنى ، مذهل الغنى . بترول . اناناس . زمرد . موز . فحم . بلاتين . حديد . جوز هند . ومزارع من قصب السكر ومحيطات من الغابات

البكر . وقطعان السوائم بالملايين وسط الآجام البعيدة ، كل ذلك نهب لمن يستثمر او يطيق الاستثمار . اما القهوة ، هذه الحبة السمراء التي تقوم عليها كل الحياة الكولومبية والتي لو هبطت اسعارها في بورصة نيويورك سنتا واحدا لكان في ذلك الخراب ، ولو ارتفعت سنتا لكانت صيف لبنان الخصيب ، هذه الحبة تنمو ، وحشية كريمة ، وتعطي كولومبيا ستة ملايين كيس كل سنة !

والكنيسة هناك دنيا من الدنيا . يد عليا لا تنازع . إنها متغلغلة في النخاع الشوكي لكولومبيا . لها الكلمة الاولى في الدولة والتعليم والسياسة ولها الأديرة والكنائس والارض والمال والاحترام وصدر الحفلات . . . حتى العائلية . ما من أسرة إلا ومن افرادها قسيس على الاقل في الثياب السود . منذ قرنين كان ثلث السكان على الارجح قسيسين ورهبانا . كولومبيا هي الابنة المفضلة للبابوية في أمريكا اللاتينية ولهذا منح أسقفها لقب الكاردينال منذ ١٨ سنة ، وخرج رئيس الجمهورية لاستقباله يوم قلد ، وركع أمام الطائرة يقبل يده !

على أن بعض الكهان الصغار ثائرون على الفقر والظلم والاستغلال السياسي والكنسي والاقتصادي . السلطات كلها هناك تصفهم باليسارية والشيوعية وتتهمهم . . ولكنهم يتحدونها بالاعمال الاجتماعية الناجحة . ولا تجروء هي بالمقابل على ايقاف نشاطهم الذي يلبس الرداء الاسود . . .

كل شيء لبوليفار

وباسم (بوليفار) يبدأ كل شيء في تاريخ البلد وامجاده ، أتعرف هذا الاسم (سيمون بوليفار) ؟ انه حبيب (مانوليتا) ألا تعرفها ؟ كل عطر في مباديء كولومبيا انما يبدأ عند اكليل الغار المضفور لبوليفار ، هذا النبيل الاسباني الذي ثار على بلاده ليحرر - وهو على المهر - في ارض لم تخطط حتى الآن مسالكها في الشعاب والصخر ، ستة بلاد تزيد مساحتها على خمسة ملايين كيلو

متر مربع ، تزيد على نصف القارة الاوروبية . بوليفيا اشتقت اسمها من اسمه وبيرو ، والاكوادور ، وباناما وكولومبيا ، هي ضمن الدول (البوليفاريانية) اكراما له . وفنزويلا مسقط رأسه ما تزال تدل بأنه منها هذا الذي في كل مدينة ، وفي كل قرية ، له تمثال يركع امامه الاحترام ، والحب . لقد ترك في القمة ، أصدقاءه الآخرين الذين اعانوه ، ولكن كولومبيا لا تنسى منهم الجنرال (سانتاندر) الذي وضع لبنة القانون الاولى فيها ، كما لا تنسى الاكوادور المارشال (سوكره) .

وتاريخ الحكم والاحزاب ، في هذه البلاد جميعا يرقى في السنين الى (بوليفار) ايضا ، والى ايام الأمجاد ما بين سنة ١٨١٠ و ١٨٣٠ أيام التحرير .

هل قلت أحزاب؟ مهلاً انهما في كولومبيا ، حزبان وحيدان تقليديان ليس غير . منذ عشرين سنة (١٩٥٨) اضيف الى الدستور تعديل يحرم على أي سياسي أن يطل على الناس باسم حزب جديد ! ! كل كولومبي إنما هو أزرق او احمر ، محافظ او ليبرالي . . وليس بين اللونين من الوان وسيطة او وراءهما من قوس قزح . . . وان كان الواقع انهما يحويان في اجنحتهما الكثيرة جميع قائمة الالوان من الاحمر القاني حتى الاسود ، ومن الماركسية حتى اليمين القاتم !

وتاريخ الدماء بين الحزبين طويل . آخر المعارك بينهما بدأت في ٩ نيسان ١٩٤٨ حين قتل الزعيم الليبرالي (غايتان) ، فاستبيحت العاصمة من بعده عدة أيام : حرقا وقتلا ونهبا ! ثم انتشرت العصابات الحزبية على الصخور والغابات وما يزال بعضها الى اليوم ينشر الضحايا ، التي زاد تعدادها على مليون من الناس .

ومن لم يمت بالرصاص ، مات بغيره ! وغرابة الخلاف الحزبي هناك لا يعدلها او يفوقها سوى حب الشفاه للجعة ! تسعمائة مليون زجاجة تفرغ منها في الاجواف كل سنة ، والثمانية عشر مليون كولومبي يفرغون لها ولشركاتها الجيوب ايضا . ويمشي العامل ظهر السبت بأجره الى اول دكان ، فيبدأ الشرب

ليعدو مساء الاحد وهو يمشي (لأم الف) كما قال النواس . شعب (الروانا) المسكين ، هذه أجمل متعة ، طبعا ، بجانب الحب والرقص ! لا تكاد الموسيقا تعزف (الميريكومبه) او (التشاتشا) حتى تهتز كل الأوساط . اما اذا انتهى الرقص فان قطعة (البطانية) المربعة التي يبرز الرأس من شق في وسطها ، والتي يدعونها (الروانا) تستطيع أن تغطي الحبيبة الى أقرب عتمة لتتناجى الشفاه .

وأشياء قليلة هي التي بقيت من الاسبان هناك ، بجانب اللغة الاسبانية : هي المباني الأثرية من العهد الاستعماري (كولونيال) والحماسة لمصارعة الثيران . . وأهل مدينة مديين الكثيرو الاولاد !! وفيما عدا هذا فان كولومبيا تظل كولومبيا ، تظل زهرة اوركيد بطبيعتها الوحشية الرائعة ، وزمردة كجنون الربيع بما فيها من غنى وخصب وحبة بن سمراء سمراء بنكهتها الحلوة وبمن فيها من الناس !

هذا هو الخبر

وبعد . . . فلم تسألني ما الخبر الذي جاء مساء ٦ يونيو ، ففتح « قمقم » الذكريات وأوقد كل هذه الشموع ؟

كان الخبر ان مرشح حزب الاحرار (خوليو سيزار طورباي ابيلا) قد نجح في انتخابات رئاسة الجمهورية الكولومبية . نال مليونين وثلث مليون من الاصوات متخطيا منافسه (بليساريو بينانكو) بمائة الف صوت . والخبر حتى هنا عادي ليس من حقه أن يثير في غير كولومبيا أحدا . .

وحدي قفزت له هنا . . . ثلاثة امور جعلته خبرى المثير وجعلت له الطعم الخاص والمعنى الخاص : السنيور طورباي ليس صديقي فحسب ولكنه عربي من لبنان (ابوه من اسرة طربية والام ابيلا) . وهو ايضا اول رئيس جمهورية عربي ينتخب في القارة الامريكية . . المغتربون العرب في الامريكتين

يعيشون في عروقهما . يدورون في نسيج القارة كلها بين شمال وجنوب . منهم رجال المال والصناعة والزراعة والاعمال ومنهم الشعراء والكتاب . وكان منهم ، منذ زمن طويل ، النواب الكثيرون في مختلف الدول الامريكية والوزراء العديدون ، وقد وصل بعضهم الرئاسة الثانية،رئاسة السلطة التشريعية أما الآن فهذه أول مرة يقتعدون ارجوان الرئاسة الاولى .

الكولومبيون ، كل الكولومبيين ، سوف يعودون في هذه الايام الى ذكرى قديمة عمرها الآن ثلاثون سنة ، بطلها السنيور طورباي الاول ، عم هذا الرئيس الجديد . سيجدون في نجاح خوليو سيزار انتقاما لعمه ! ذلك العم كان سنة ١٩٤٨ نجم حزب الأحرار . كانوا يسمونه النمر ، وكان نمرا في الجرأة السياسية وفي سحر الجماهير بالبلاغة النارية ، وقد رشح نفسه للرئاسة . وكان الفوز في جيبه . كان مرشح حزب المحافظين اضعف بكثير منه . وفجأة ، خرج له من قلب حزبه منافس ألقى في وجهه بالشعار المقيت :

ـ توركو . . . لا ![٢] . توركو لا Turco,no! . حتى تحت قبة البرلمان دخل مرة فقابله انصار منافسه بهذا الشعار المنغم :

ـ توركو . . . لا ! توركو لا !

واضطر أن يقف متحديا بقوة الواثق من نفسه وبالاهانة المرة .

ـ بلى ! انا توركو لاني اعرف ابي . ولكن كم فيكم من توركو لا يعرف اباه ![٣]

---

(٢) كلمة توركو تطلق على كل عربي في امريكا اللاتينية . وهي من رواسب القرن الماضي ومطالع هذا القرن يوم كانت البلاد العربية تابعة للاتراك العثمانيين وكان المغتربون العرب يحملون الجنسية العثمانية . وتحمل الكلمة معنى الاحتقار والتحدي وفيها كل الرواسب في النفس الغربية ضد العرب والاسلام .

(٣) الاشارة هنا الى امر مألوف في كولومبيا . فالاطفال غير الشرعيين ، في الاحصائيات الرسمية كانوا يصلون في الستينيات الى حوالي ٤٢٪ من المواليد . وتعترف بهم الكنيسة وتنسبهم الى امهاتهم . وعدد من رؤساء ورجالات كولومبيا نفسها ابناء غير شرعيين .

على ان منافسه من قلب حزبه لعب نغمة « التوركو » على كل السلالم الموسيقية . وكانت النتيجة أن نجح حزب المحافظين . ولم يكن بينه وبين السنيور طورباي سوى بضعة وخمسين ألفا من الاصوات .

ذلك ان منافس طورباي الحزبي كان قد سلبه ربع اصوات الحزب .

وغضب الرجل وترك البلاد الى باريس . وهناك وفي السنة نفسها ١٩٤٨ مات كمدا .

يومذاك كان خوليو سيزار ، الرئيس المنتخب الجديد ، مندوبا لكولومبيا في الامم المتحدة وحضر هناك معركة تقسيم فلسطين وما تلاها . . ومنذ ذلك الوقت أخذ يتسلق الطريق الى القمة على مهل من النيابة ، الى الوزارة ، الى نيابة الرئاسة في الحزب ثم رئاسة الحزب فالرئاسة الكولومبية . . إنه لا يحمل جرأة عمه ولكنه قد يحمل بلاغته . وليس له تحديه المتكبر ولكنه يتمتع بالكياسة الدبلوماسية المناورة . . .

وضمن هذا الجو كان من أنجح وزراء الخارجية الذين عرفتهم كولومبيا سنين طويلة . وربما كان من النجاحات التي تسجل له انه تخطى عقدة (التوركو) . لم تستطع هذه العقدة التي قطعت الطريق على عمه أن تقطعه عليه . وليست جماهير « التوركو » في كولومبيا بالكثيرة لتكون قاعدة انطلاق او مساومة سياسية فيستند اليها . لعلها بالعكس كانت تستند اليه . . .

هؤلاء « التوركو »

هل احدثك بعض حديث هؤلاء « التوركو » هناك ؟ انهم ، حتى لو بقيت في الاحصاء لا يجاوزون الخمسين الى السبعين ألفا . وكلهم من بلاد الشام : من لبنان ثم من فلسطين ثم من سورية . وهم يتوزعون ما بين جزيرة سانتواندريه التي قضى على رملها بذبحة القلب الكاتب القصصي سعيد تقي

الدين سنة ١٩٦٠ وبين بارانيكاوكارتا هذه الى مدين وبوفوتا وكالي الى .. ليتيسيا في اقصى اقصى الجنوب . على أن هجرة الاوائل منهم قديمة . دروب كولومبيا الجبلية الحادة ، وسهولها الموحلة بالرطوبة والعرق عرفتهم منذ اكثر من مائة سنة على الأقل . ولكن كيف عرفتهم ؟ جاءوها يحملون المسابح وبعض الصلبان والتعاويذ ورموز البركة وزهرة الحبل[٤] ... يحملونها فيما يزعمون من بيت لحم والقدس في (الكشة = صندوق البضاعة) . انهم الباعة المتجولون « الماسكاته » الذين سجلوا بين من سجل اول ملحمة الاغتراب.. على انهم سرعان ما كانوا يتأقلمون في الملبس . يضعون « الروانا » والقبعة المتهدلة . وفي الاسماء ، يتحول احمد الى اماد وعيسى الى خيسوس وابراهيم الى ابران وفي اللقب ايضا : فابن اللحام : كارنيزو ، وحنا ديب هو خوان لوبو .. وينتهي التنكر اخيرا باصطناع الدين والمذهب ، فالكل على الكاثوليكية !

على ان القلة والغربة والتنكر وعواء (التوركو) كلها لم تمنع هذه الجماعة من التوسل الى احسن العيش بكل وسيلة . فلهم الآن النوادي الفخمة والمتاجر والوكالات والأبنية ، ومنهم الكتاب البارزون والسياسيون ، ومنهم من يعمل بالنقل والصناعة وفي تربية الابقار التي لا يعرف عددها في مزارعه الشاسعة .. بل قد زرت بعضهم ممن يعمل بالأفاعي الضخمة وتجارة القرود والطير الملون .

أليست لهم قمة في الفكر ؟ بلى ! احدى شاعرات امريكا اللاتينية البارزات هي غابرييل ميسترال ، شاعرة كولومبيا الاولى ، وما هي إلا أولغا شمس العربيةُ ، التي يضج في شعرها عطر الشرق وصوفيته ..

... وبعد هل كان من حق خبر التلفاز مساء ٦ حزيران ان يكون عندي الخبر المثير ؟ وهل عرفت معنى وصول واحد من « التوركو » إلى رئاسة الجمهورية الكولومبية ؟ ..

تحية على البعد ايها الصديق خوليو سيزار طورباي . □□

---

(٤) زهرة تنقع في الماء المغلي ويزعمون ان السيدة مريم وجدتها في صحراء سيناء وهي في طريقها مع يسوع الطفل الى مصر .

رَجعُ الذِّكرى .. عَن "بَلَدِ الغَدِ" !

أمام أجفاني تحوم على الدوام ، كطيور الجنة ذكريات خمس سنوات من عمري قضيتها في أمريكا اللاتينية ، وبخاصة في بلدين : أحدهما أسباني صميم والآخر برتغالي صميم . وقد وقفت في مقال سابق عند كولومبيا ، فهل ترى يسمح لي بوقفة ذكرى عند البلد الآخر ؟ من حق الوفاء لسنوات عمري تلك وللمئات العديدة من أصدقائي الأحباء هناك أن أفعل .

قد تعرف أن أمريكا اللاتينية هي « العالم الجديد » وأنها عشرون بلدا لكل منها طعمه ولونه وتاريخه وخلائطه العرقية ، وأنها ما تشاء من الجنات والقسوة والوحش والروعة . على أن البرازيل منها بلد متميز . .

إنها أرض الخشب الجمري[1] والببغاوات ، ومزارع البن ، وكوخ الزنجية راقصة السامبا ورحاب الامازون - الأب ، والغاب الذي لا ينتهي عند أفق ، وصحاري الجوع ، وملاعب الغاووشو . . البرازيل هي « بلد الغد » كذلك رآها ستيفان تزفايغ وكذلك يراها كل من يعبر اليها المحيط . كل شيء في

العربي - العدد ٢٤٠ - نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٨ م .

١ - معنى كلمة البرازيل (الخشب الوردي اللون) كأنه النار او الجمر . وقد اشتهرت بهذا الاسم لان البرتغاليين كانوا يأخذون هذا الخشب منها . وقد غطى هذا الاسم على الأسماء الدينية الاخرى التي منحت لتلك البلاد .

البرازيل يبرعم وينمو ويعد . إن أبرز ما فيها أنها إمكان ، وأنها وعد عريض ، ولا تسل عن الامس والماضي والتاريخ . إنها بنت الامس القريب . خلاصة كل أمرها كلمات :

الله خلقها . . .
كابرال اكتشفها
الزنجي عمَّرها
البرتغالي منحها الكنيسة واللغة
و « الغرينغو »[٢] احتكر الاستثمار ! !

والصدفة هي التي رسمت الخطوط الاولى في تاريخ البرازيل الذي نعرف . البرازيليون مثلا لا يعترفون بكريستوف كولومب . الذي كشف الدنيا البرازيلية هو القبطان بدرو افاريس كابرال ، آخر سنة من سنوات القرن الخامس عشر[٣]،كان يحاول الوصول الى الهند أرض التوابل والجوهر عن غير طريق افريقية فوقع على الشاطيء البرازيلي . ولم يأبه كثيرا له . كل ما فعله قداس ديني أعلن فيه امتلاك جزيرة (فيراكروس) ثم تابع الطريق الى الهند . . ومنذ ذلك الوقت يبدأ التاريخ ! تاريخ البرازيل !

الصدفة الاخرى كانت حين امسك البابا الكسندر بورجيا[٤] سنة ١٤٩٣ بقلم رسم به خطا اعتباطيا طولانيا ما بين القطبين الشمالي والجنوبي ، على الخريطة غير الدقيقة امامه للارض الحديثة الاكتشاف وحدد التوسع المسموح به لكل من البرتغاليين والأسبان . . . ومنذ ذلك الوقت كان قدر البرازيل ان تكون برتغالية وقدر أمريكا اللاتينية الباقية كلها أن تكون اسبانية !

---

٢ ـ لقب يطلق في أمريكا اللاتينية على ابناء الولايات المتحدة .

٣ ـ اكتشفت البرازيل سنة ١٤٩٩ ، وأمريكا سنة ١٤٩٢ .

٤ ـ كانت له البابوية ما بين سنتي ١٤٩١ ـ ١٥٠٣ ويعرف بلقب الكسندر السادس .

لكن البرتغال ، البلاد ـ الأم ، كانت أضال كثيرا في المساحة واقل كثيرا في عدد البشر من ان تبتلع هذه القارة وتبتلع معها المستعمرات الاخرى التي انفتحت على مراكبها وسيوفها في افريقيا ايضا وفي جنوب بلاد العرب وفي الهند ، في وقت واحد !! لم تستطع البرتغال ان تمنحها مع السكان الاوائل ، اكثر من اللغة التي يصر البرازيليون على انها لغة البرازيل لا البرتغال !

وقلائل هم الذين يذكرون ان فرنسا بعد ذلك ، اخذت تزاحم البرتغال على استعمار البرازيل . وكانت تصر على اقامة « فرنسا القطب الجنوبي » ما بين مصب نهر الامازون وخليج الريودي جانيرو . لكن البرتغاليين تشبثوا بالساحل كالسراطين . ولم يكن اندياحهم في البلاد صعبا . لم يجدوا أمامهم ما وجد الاسبان في المكسيك والبيرو من دول منظمة حربية ولكن وجدوا الارض الفضاء التي ينتشر فيها شعب التوبي البدائي ـ الذي كان يكفي واحد من مثل كارامورو(٥) خالق النار لكي يصعقه دهشة،ويكفي حصان عادي لان يذيبه رعبا . . .

كان اهم ما فعله الفاتح البرتغالي هو التوغل في الأرض الفضاء ووضع الحدود في الاعماق ، حيث خط المهر الحافر . ولم يستطع البرتغالي استئناس الهندي لتأهيل الأرض والتعدين فأتى لهذه المهمة بالرقيق الزنوج . الزنجي هو الذي صنع البرازيل ، في ظل المزارع الكبيرة : (الفازندة) والبيت الكبير (كازاكراندة) . هو الذي زرع فيها قصب السكر والقطن والطباق وصنع السكر لاوروبا ونقب المناجم كهوفا من الظلام الخانق واستخرج الذهب والماس

---

٥ ـ لقب اطلقه الهنود على الفاتح ، كان دييغو الفارليس الذي كفاه وهو محاصر من الهنود ان يطلق طلقة نارية واحدة لكي يأتيه الهنود ساجدين للرب خالق النار (وهذا معنى الكلمة) .

والاحجار الكريمة من مسيلة الأنهر . وهو اخيرا الذي اعطى البرازيل معظم السكان المولودين (الخلاسيين) والجذور الثقافية الاولى !

واذا كان التوازن في الخليطة الجنسية ما بين البرتغالي والهندي والزنجي هو الذي منح البرازيل سحنتها البرازيلية ، فان ثقافة الزنجي - وهي اسلامية في جذورها - قد اجتثت من الجذور . لم يبق منها الا الاهتمام العام بالثقافة الذي يلحظه المرء في ساحل باهيا حيث ظهر معظم الكتاب والخطباء والشعراء البرازيليون (بينما يسيطر على باقي البلاد الخمود الثقافي المطبق) والا الفولكلور الشعبي والمعتقدات الخرافية التي اضحت قوام الطابع الفني البرازيلي ، وجوهر التراث القصصي للأطفال هناك .

« برازيلات » عدة لا واحدة !

وظلت البرازيل فراغا أوسع حتى اواسط القرن الماضي . تشبث الناس أولا بالساحل . وفي القرن السابع عشر تجاوزوا نهر سان فراسيسكو[٦] ولم يأتلفوا مع سفوح جبال « الاند » في الغرب الا في اواخر القرن الماضي حين اخذت الهجرات تزحف الى البرازيل موجة بعد موجة ، تعطيها بعض التكاثر السكاني : واحدة المانية واخرى ايطالية وثالثة عربية ورابعة صينية ، وبين هذا وذلك يونان وأرمن واسبان وانكليز وهولنديون . . آخر الهجرات هجرة اليابانيين المنظمة التي ترعاها اليابان ، والتي تمسك مزرعة الخضار البرازيلية .

أغريب بعد هذا أن تظل البرازيل إلى الآن طفلة الروح ، لا شخصية واحدة فيها ؟ وهل ننسى انها قارة من ٨,٥ مليون كم ٢ تقرب من مساحة اوروبا،وأنها تزيد على مائة مليون من البشر . وان التفاعل الحي الخلاق بين

---

٦ - هو أحد أنهار البرازيل الضخمة في الشمال الشرقي .

الأرض البـرازيلية ومن عليهـا لم يتعمق بعد ليتكـون من غد الكـروم النبيـذ الحضاري العتيق ؟

ما تزال أمشاجا من العروق والعادات والاقاليم والشجر والنهر والبركان والهجرة . خامات بجانب خامات من الأرض والبشر . شلالهـا الوحشي لم يـروض بعد ، وعـروقها المعـدنية مـا تزال تـرابا من التـراب ، وأهلها حتى الاقدمون ، ما تنفك تنبض فيهم روح الفاتح المستثمر ، أو كبر الهندي البديء او أشجان الزنجي الأسير !

وهناك برازيلات عدة لا برازيل واحدة : هناك برازيل الغاووشو على الخيـل في الجنوب وبـرازيل الألمـان في سانتـا كاتـرينا ، وبـرازيل الغـابة في (ماتوغروسو) ، وبرازيل الزنجي (الكاندومبلية)[7] في (باهيا) ، وبرازيل الجوع والفيافي الممزقة في الشمـال ، وبرازيـل الريـودي جانيـرو ، عروس عواصم الدنيـا ، وبرازيـل سان بـاولو الآلـة القاسيـة الضخمة ، وبـرازيل الامـازون والادغال الاستـوائية والـزورق المسكين والـدابة المـرخيـة الآذان والشجرة الشيطانية ! . . وبرازيلات اخرى بين هذه وتلك واولئك . . . إنها حتى في الاسم الـرسمي « الولايـات المتحدة البـرازيلية » ولايـاتهـا الاحـدى والعشرون ، كل ولاية منها هي في شأن . إنها نموذج فريد من التباين المتحد أو الاتحـاد المتباين . وليس يـرجع ذلـك الى صدف التـاريخ وتـلاوينه ، ولكن لدكتاتورية الجغرافية واستبدادها ايضا .

الأرض البرازيلية ، بعد خمسة قرون من الكشف ، ما تزال على روعة الخلق الأول . نصف البرازيل الغربي كله غاب متصل لا أرهب ولا أبعد . هو اكبر بحر من الشجر في الدنيا . لا الشجر الرومانتيكي ولكن العملاق الملتف المفترس الذي اعطاه لدى الناس اسم « جهنم الخضراء » . إنه ادغال مظلمة ،

---

٧ ـ هي رقصة العبادة والسحر لدى زنوج البرازيل .

ساكتة حتى الفزع والياس والجنون ، متلبدة بأنواع من الشجر لم يخلق مثلها في البلاد جمة وتخترقها كالرصاص تارة بعد اخرى اصوات القردة العداءة ونعيق النسر الأسود والببغاء الامريكي والقطط الوحشية والفهود تلمع عيونها الحمراء بين الاغصان كأثمار الجحيم . . . اما الصمت فاكثر رهبة . إنـه دنيا الافعى القماطة ، والاناكوُندا ، حية الماء الضخمة ، والوطواط المصاص ، عفريت الخرافات والفراش العملاق ، والنمل الوحشي والحشرات سيدة الغاب .

نهر الامازون

أما الامازون ـ الاب فيملك سعيدا ذلك الغاب كله . كالوريد المتشعب الرهيب يجري ، تهوي إليه عشرات الأنهار الضخمة ، بعضها اسود كما لو كان من جبال الحبر ، وبعض في صفرة الرمـال ، وبعض اخضر ازرق ، وبعض كأصفى ما يكون الماء . ؤتتحرك قوارب الشجر المحفور ، كما تدب (الفايولا) السفينة النهرية في العرض المائي الذي يجاوز العشرات من الكيلومترات . . . اما اذا فاض فالويل للضفاف . في مثل هزيم الرعود والعصف تنهار غابـات كاملة وتطوي بوحشها وارضها فيه . او تسير معه جزيرة طافية بأشجارها عليها القردة والطيور . . .

والامـازون فراغ سكـاني رهيب . الرحـالة والمبشـر وطريـد المجتمع والباحث عن ارض الذهب (الدورادو) هم وحدهم الذين اغراهم النهر الاب والغابة التي تحتضنه ، فلم يجدوا هناك سوى المـطر والافعي والحشرة والحـر القاتل ، وأسنان السمك القزم المفترس[8] ! وفي مطلع القرن الحـالي ، حين

---

٨ ـ نوع من السمك الصغير (بطول ٢ ـ ٣ سم) يهاجم الجثث بعشرات الالوف مرة واحدة فيغادرها عظاما بعد دقائق .

صار حوض الامازون ارض المطاط الشيطانية ، صار ايضا ارض الموت الاخضر . . . جزيرة (ماراباتا) عند (مناوس) على مدخل نهر نفرو (النهر الاسود) كانت تسمى (محجر النفوس) . الداخلون الى الغابة كانوا يودعون هناك ضمائرهم وانانيتهم ويتحولون بعدها الى وحوش . . .

وتنتقل الى شرقي البلاد فاذا التنوع الغريب . الشمال الشرقي ، برازيل الرقيق والسكر القديمة ، فضاء بري هو تارة الصحراء بكل ملامحها وجفافها القاتل وتارة للكاتنفا (الاشجار القزمة) والعشب والنخيل[٩] . . . وللنزوح البشري ايضا ! النورديستينو[١٠] زاحف دوما الى الجنوب . انه في (سييرا) ! و (سرتون) فقير ، فقير حتى الجوع أيام الجفاف ، مهووس التعصب . والعصاة ، في عرفه أبطال شعبيون . أليس (لامبيون او البرق) قاطع الطريق بطلا هناك ؟

إن تحركت نحو الجنوب قليلا الى (باهيا) فاجأتك دنيا اخرى كانما قطعة من افريقية قد هربت فالتصقت هناك . اللون الزنجي ، على درجاته ، هو السيد في باهيا ، هذه المدينة التي يتجمع فيها كل تاريخ البرازيل ، وتمتد حولها غابات الكاكاو وتخطر في ممراتها وفي سوقها الواطيء المرأة - الزرزور[١١] ريا القرفة والقرنفل » كما تعشعش عبادات الجن والارواح .

وتمشي جنوبا الى ارض المعادن والمزارع الجبلية (ميناس جيرايس) . قراها المرتفعة مزارع منظمة تهرب تحتها الأصداء في الوديان العتمة ، واعطاف

---

٩ - في مناطق النخيل هذه (بالميراس Palmeiras قامت اول جمهورية زنجية مسلمة في امريكا من العبيد الآبقين ، في اواسط القرن السابع عشر .

١٠ - هو ساكن الشمال الشرقي ومنطقة السرتون Sertao

١١ - اسم مينا (Mina، أو Mynah) يعطى في البرازيل للمرأة السودانية وتعني الكلمة في الاصل طائر الزرزور الاسود الرشيق . واما ريا القرنفل والقرفة (الدرسين) فمن عنوان رواية للروائي البرازيلي جورج ، امادو عن خلاسية من باهيا اسمها غابرييلا ، ريا القرنفل والقرفة .

الجبال ومجاري الأنهر مناجم للذهب والماس والحديد والمنغنيز والميكا والاحجار نصف الكريمة . اما السكان (المينيروس) فحياة محافظة جادة ، وانتاج يمسك عجلة البرازيل .

إن مضيت جنوبا بعد ذلك فانتبه ! إنك اذن في ميناء الفردوس ، وعند اجمل مدن الأرض بحرا ووديانا وخلجانا وجبالا غابية ومتعة . انك في « الريودي جانيرو » ، القصيدة الالهية الفاتنة . تمثال السيد المسيح يطل عليها بارتفاع ٤٠ مترا فوق قمة كوركوفادو (الاحدب) باسط اليدين يتأمل . ولكن الكاريوكا [١٢] لا يدعونه يبعث الشجن في نفوسهم فتحت اقدامه غابات (تيجوكا) او (الترادابوافيستا) للراحة والمتعة ، وعن بعد تزلق العين من مرتفعات (اكابولكو) ومن جبل السكر لتغرق في الغابات قبل الغرق في البيوت ثم زرقة البحر ولتضيع في الخليج الهلالي الأوسع (كوباكابانا) الذي : « حف من انجم الثرى بنطاق » حتى لتحسب ان جنيات الماء فيه :

سرن والموج في جرار من النو
ر تناقلنها على الأعناق[١٣]

وبين هذا وذاك تلعب الغابة السوداء والبحر اللازوردي والشوارع والأبنية والكعوب الراقصة الرشيقة لعبة العناق والتداخل . ويلهو الناس ما شاء اللهو . إنها المدينة الابيقورية بامتياز ، هذه المدينة الوثنية الروح التي تعبد اللذة والمباهج وتدعى أن الله برازيلي لأنه يحميها دوما ولأنه غفور رحيم ! وعلى الرغم من الفقر الساحق وكثرة الشحاذين الذين حاول حاكم المدينة (سردا) ذات يوم ان ينظف وجه المدينة السياحي منهم باغراقهم في البحر ، ورغم أحياء

---

١٢ ـ الكاريوكا هو الاسم الذي يطلق في البرازيل على سكان الريو .

١٣ ـ البيت للشاعر المهجري شفيق المعلوف .

التنك (الفافلا) التي تنتشر على سفوح المدينة كالجدري الاسود تضج بالزخم والبؤس ، رغم كل اولئك فان للريو كل سنة ثلاثة ايام بلياليها من اللهو المجنون . في اواخر شباط (فبراير) يجب ان تكون هناك لتحضر الكرنفال ، لترى المدينة كلها ترقص (السامبا) و (المرشا) و (الفريفو) وتغني الاغاني المرحة التي يؤلفها لها سكان (الفافلا) المعدمون ، وتسيل في الشوارع مواكب صاخبة لا تنقطع . الزنجية تعمل سنتها بكاملها لتشتري ثوب الكرنفال ، وتعيش ايامه الثلاثة خارج الزمن .

قلبها الحديدي النابض

ولم تفقد الريو شيئا بانتقال مقر الحكم الرسمي منها الى برازيليا ، مدينة الخطوط الهندسية العملاقة والابعاد الواسعة التي نبتت غريبة وحيدة في اعماق البر البرازيلي وفضائه الأرحب . بقيت الريو هي عاصمة الحياة الكاملة الرخية في نظر البرازيليين . اما الزهرة الحجرية ـ الفولاذية المبتكرة الخطوط فلها الله ، وان تنتظر . . .

ولا تغادر الريو الى الجنوب ، مرة اخرى الا اذا اردت ان ترى القلب الحديدي النابض للبرازيل : مدينة سان باولو . إنها تلال من المصانع والأبنية والمداخن والاحياء والشوارع يتكوم فيها عشر سكان البرازيل كلها ، في مسطح متموج من الارض يزيد قطره على ١٢٠ كليومتراً . (الباوليستا) جعلوا مدينتهم التي كانت للبن من قبل مدينة كوزموبوليت بدون لون . مدينة للمال وللمصنع ولركض اللقمة وللجشع القاتل . هي وحدها كل ديناميكية البرازيل وكل رجال اعمالها . التمثال الضخم العظيم فيها لمن يسمونهم بالرواد

(الباندیرانتة)[١٤] يمثل طموحها وغرورها .

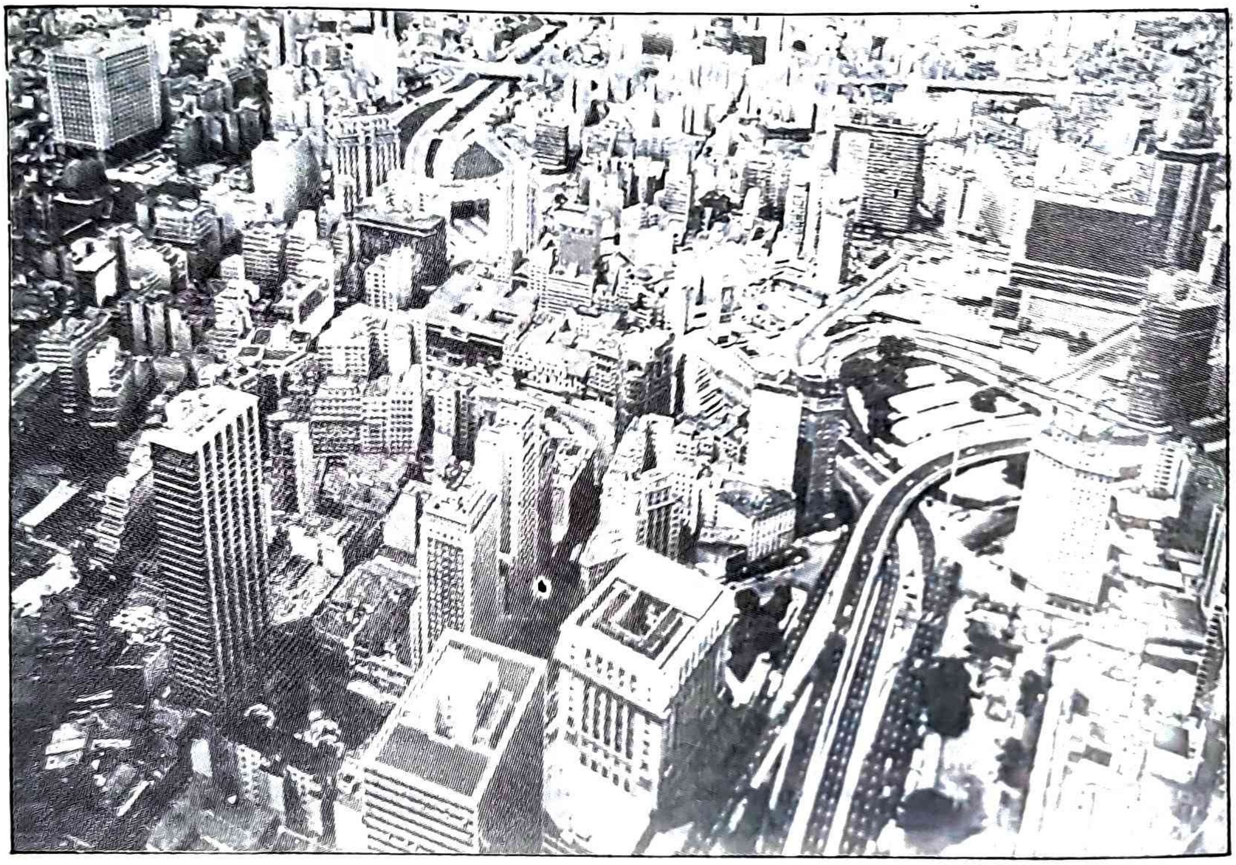
انها القاطرة التي تجر القطار البرازيلي كله وتعرف ذلك وتتعامل مع البلاد كلها على انها كذلك ، وعلى أنها صاحبة القوة المحركة والزعيق ! وحلم الباوليستا هو الثروة السريعة السريعة . واذا كان الحيتان الكبار يحصلون عليها دوما ولو عن طريق الاحتيال الذي يعتبر هناك ذكاء ومهارة . فان المعدمين ذوي الافلاس المزمن ، وهم ملايين ، يحلمون بالثروة المفاجئة عن طريق الحظ الذي يؤمن به الجميع . المقامرة هي الطريق . وينتظر كل واحد منهم أن يربح (البريميو) في اليانصيب او في لعبة البرغوث (البيشو) - رغم مكافحة السلطة لها أو في سباق الخيل الذي لا ضرورة للزحام الشديد على ميدانه المكتظ فكل بار وكل دكان يقوم بمهمة الرهان ، والبركة في الاذاعة التي تعلن النتائج !

ولكي تعبر من سان باولو الى اقصى جنوب البرازيل عليك أن تمر بسانتا كاتارينا ، المقاطعة الالمانية الشقراء . حتى سجلات بلديتها كانت تكتب بالالمانية وحتى الزنج فيها لا يتكلمون البرتغالية ولكن لغة غوته وفخته . . إنها برازيل الالمان الذين لم يصلوا بعد الى وادي نهر البارانا الاعظم في الغرب . لم يذللوا الغاب هناك ولا جبروت شلال (ايفواسو) المندفع خمسة كيلو مترات من الماء الهاوي . . مسكينة نياغارا أمامه . « بلعوم الشيطان » في وسطه بئر هائلة من الرعب والدوار والماء الابيض ، يهوى تسعين مترا ، صخرا على صخر ، ليثير ألف قوس قزح ! . . .

أما أقصى الجنوب ، أرض النهر الكبير الجنوبي (ريو غراندة دوسول) فمسطح لا نهائي المدى والاستواء . عالم من الخضرة بلا وجهة ولا علامات ولا

---

١٤ - كلمة أباندیرانته (banderiates) ترجمتها الحرفية حملة الاعلام ويعنون بهم رجال الحدود ، وهم مجموعة الرواد والمحاربين الذين توغلوا في الأرض البرازيلية ، وثبتوا حدود البرازيل الغربية خاصة . ويعتز (الباوليستا) وهم سكان باولوبان بأن الباندیرانته كانوا منهم !



● مدينة سان باولو

ابعاد . انها « البامبا » : عشب وسماء ثم عشب وسماء حتى لتحسب أن الله مسح من الكون كل شيء غير العشب والسماء ! السادة الاولون الذين نزلوها كانوا يسمون « سادة الارض الفضاء » . وحصانهم الذي اطلقوه في الارض سرعان ما أضحى قطعانا من الحصان الوحشي وزاحم اللاما البرية (الجواناكو) تماما كما زاحمتها قطعان البقر التي تكاثرت وتكاثرت فلا اصحابها يحيطون بالآلاف المؤلفة من اعدادها ولا الادغال التي تنطلق فيها تعرف الأبعاد .

من أصل عربي ؟

وهكذا ركب السكان هناك الخيل . اصبحت حياتهم كلها على ظهورها وعلى السنابك . وشيئا فشيئا صاروا معها قطعة واحدة . وظهر بذلك نموذج

(الغاووشو)[١٥] الراعي الخيال الذي يميز الجنوب والذي اضحى (وان كان الآن في طريق الاضمحلال) جزءا من قصص الناس ومن اساطير الصغار . فرسان « الغاووشو » هم رجال العراء والارض الفضاء هناك . رعاة البقر الذين يبدون وكانهم شعب من السنتور[١٦] قدنسي المشي على الأقدام .

اما اذا دققت ملامحهم السمراء الجديدة وعيون الصقور التي يحملون وعرفت كرمهم الحاتمي ، وحسهم المرهف وصمتهم المتكبر وقيم الشرف والمروءة وعادات الثأر لديهم ، وشدة الحذر والحنق على القيود واحتقار المدينة ، وشاركت في حلقاتهم المسائية حول نار الشواء ، يشربون الماته[١٧] في كؤوسها الخشبية الشبيهة بالنراجيل الصغيرة ويستعيدون ذكريات الغزو والقتال القديم فيما بينهم . . . فهل تراه يداخلك الريب في أصلهم العربي ؟

اني لم آقصد من هذا لا الى التاريخ ولا الى الجغرافيا ولا الدراسة الاجتماعية ـ الانسانية وانما هو رجع الذكرى ، فهل وفيت حق الذكرى ؟ اعرف اني لم افعل !

ليس كل الذي تسطر في قلبي هذا الذي تخط يميني . □□

---

١٥ ـ يسمونه ايضا الماراغاتو وقد حار البرازيليون في اصل هذه الكلمة وبعضهم ينسبها الى بلد في البرتغال وآخرون الى بلدة في مصر . والأرجح انها آتية من كلمة مراكش ،لا سيما وان هناك دراسات تكشف ان اجداد هذه الجماعات التي تسكن تلك الارض قد اتوا عبر الجزر الخالدات من المغرب .

١٦ ـ السنتور كائن خرافي كان اليونان يزعمون ان نصفه حصان ونصفه الاعلى بشر .

١٧ ـ اوراق نبات كالشاي تغلى مثله وتشرب . وقد اضحى هذا الشراب معروفا في المشرق العربي ايضا عن طريق المغتربين العرب والدعاية التجارية .

الانتخابات أم البركان ؟

كان يوما كيوم القيامة . .

« يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » آية ٢ سورة الحج .

قد تكون سمعت بخبر « بومبي » المدينة الايطالية التي قبرت في شواظ من نار ودخان فما يبرحان . إن لم تكن سمعت فالناس يروون لك أنه قبل ألف وتسعمائة سنة ثار البركان الهادىء الذي يجاور هذه المدينة ، بركان « فيزوف » ، فأرسل عليها سحبا من الرماد الناري غطتها بمن فيها وما فيها . فاجأها القدر بغتة . فما تزال على الجثث المتفحمة آثار المفاجأة واضحة متجمدة . ذاعت القصة وشاعت ، والمدينة الملعونة اليوم من موارد السياحة الايطالية . والناس يشهدون من أمر بشرها المتفحم وتماثيلها الهاوية وحماماتها ومسارحها ومركباتها واعلاناتها الانتخابية ما يشهدون . . ولكن ما سمع أحد بالقصة المماثلة المنسية ، التي حدثت في العهد القريب ، قصة مدينة « سان بيير » .

العربي ـ العدد ٢٥٩ ـ يونيو (حزيران) ١٩٨٠م .

كان ذلك منذ ٨٨ سنة . وإن شئت الدقة في مايو ١٩٠٢ . كل شيء كان هادئا في « سان بيير » النائمة على ساحل البحر الكاريبي في جزيرة المارتنيك* الفرنسية ماعدا الجو السياسي . المدينة الممدودة على الشاطيء بسكانها الثلاثين ألفا ، كانت قد خاضت الانتخابات لاختيار نائبها للمجلس التشريعي . وقصر المرشحان : مرشح الأكثرية ومرشح الأقلية عن الوصول الى الحد القانوني من الأصوات للنجاح فكان على الاثنين خوض المعركة مرة أخرى بعد اثنى عشر يوما ، معركة « البالوتاج » !

لا وقت للحديث

واحتدم الزحام العنيف المحموم بين أنصار الطرفين ، وشارك في ذلك كل من في البلد ، رئيس البلدية وأستاذ الفيزياء في المدرسة الثانوية وصاحب مصنع السكر الوحيد في المدينة ، وأسقف الكنيسة وصاحب الصحيفة الوحيدة في سان بيير ، كانوا هم أبرز الوجوه في الحملة الانتخابية وفي حلبة الصراع . ولكن جميع السكان كانوا غارقين فيها ، أي غرق . حتى الرحلات التي كانت تنظم كل يوم أحد للصعود الى قمة بركان بيليه* العجوز فوق جبل البلدة للإطلال على فوهته التي لم تتنفس منذ خمسين سنة الى أن نبت عليها بعض الشجر وزحف عليها العشب الأخضر ، حتى هذه الرحلات تعطلت ذلك الأسبوع بسبب الانتخابات . البيانات الانتخابية والمجادلات لم تسمح للناس أن يأبهوا كثيرا لبعض الدخان الذي أخذ يتسلل منذ أسبوعين من الفوهة البركانية المشرفة بهدوء العجائز على المدينة .

---

* هي احدي جزر الانتيل في البحر الكاريبي مساحتها ١١٠٠ كم^2 وسكانها ٣٠٠ ألف تقريبا .
* بركان Pelee هو اسم هذا البركان في جزيرة المارتنيك .

وحين قام أستاذ الفيزياء ، أثناء اجتماع المجلس البلدي صباح يوم ٢٨ ابريل (نيسان) يلفت نظر المحافظ الى ما يخامره من القلق لهذا الدخان أسرع المحافظ يعاتبه :

- أهذا وقت مثل هذا الحديث ونحن نكاد نخسر الانتخابات ؟

إن البركان في مكانه هذا منذ آلاف السنين ولا يتحرك . دعه ينفس عن نفسه باطلاق بعض الدخان ! القضية الملحة الآن هي أن بيننا وبين المرشح المعارض ٣٠٠ صوت فقط ، ويجب أن نبذل الجهد لكسب المستقلين فلديهم ٨٠٣ أصوات ! وإلا كان للمعارضة نائب يوم ١١ مايو . . . هل هناك من اقتراح ؟ .

في يوم ٢٨ ابريل نفسه جاءت راهبات الدير القائم على السفح كالعصفور المعلق ، الى الأسقف : أبانا نحن قلقات . . . ديرنا منذ عدة أيام لم ير عصفورا واحدا . هربت العصافير وكثرت الأفاعي فوق الأرض .

- أعلم ! أعلم ! إن البركان يطلق بعض الدخان . والدخان أزعج العصافير هذا كل شيء ، والأفاعي دوما موجودة . انصرفن الآن الى الصلاة .

في ذلك اليوم نفسه على بعد كيلو متر من شمال المدينة كان صاحب معمل السكر يستقبل وفدا من عماله :

- إننا نسمع هزيما مخنوقا وهديرا كأنه في الأعماق والمصنع تماما على مسيلة القمة ! . .

- يا أصدقائي هذا البركان منذ خمسين سنة أطلق بعض الدخان بل أخرج بعض اللهب ثم عاد من نفسه الى الصمت والهدوء . . إنه عجوز . سوف أصعد بنفسي الى القمة لأرى وأرجو أن يطمئنكم ذلك ! وبالرغم من انه لاحظ ان ماء السيل الجاري في الوادي أضحى فاترا إلا أنه -حين عاد من القمة- قال لعماله :

- الى العمل أيها الجبناء . . لا شيء هناك !

شخص واحد فقط في المدينة كان لا يأبه للانتخابات ولا لدخان البركان ،

ذلك الشخص هو النزيل الوحيد في السجن : زنجي محكوم بالحبس منذ شهرين في بعض السرقة ! كان همه أن يشتم الحارس السجان لأنه قد أودع في قاع غرفة من الحجر شديدة الرطوبة والعمق والظلمة ! في اليوم التالي لاحظ بعض الذين صعدوا القمة أن الفوهة قد امتلأت بالماء الساخن وكانت من قبل لا تحتفظ إلا ببعض الماء في القاع ، وسحب من البخار كانت تنعقد فوق الفوهة ولم يكن فوقها من قبل سحب ولا بخار .

مصادفة سيئة

« إننا نشهد انفجارين بركانيين . واحد في الرؤوس والثاني في الجبل . واحد من الخطب والأموال وأوراق الاقتراع ، والثاني من الدخان والرماد الساخن ، إن البركان الانتخابي يدخن بدوره ولن يهدأ قبل ١١ مايو المقبل ، أما الثاني فمتى يهدأ يا ترى ؟ » .

وحين بدأ البركان يقذف بعض الحجارة مع الدخان رأى الأسقف ان مقاعد المصلين بالكنيسة قد امتلأت ، وان صف المنتظرين أمام كوة الاعتراف يطول ، أما البحر فكان هادئا ، وأولئك الذين كانوا يمتلكون بعض القوارب ركبوها ليتأملوا صورة البركان من بعيد وهو يزفر كالحوت العظيم ، المنظر شديد الروعة من البحر .

السجين وحده كان في السجن لا يدري بشيء ولا يأبه لشيء !! ومثله كان حاكم المدينة لأنه كان غائبا في العاصمة تلك الأيام .

بعد يومين تغير الوضع قليلا : اشتدت نيران المعركة الانتخابية مع اقتراب يوم الاقتراع ، ولكن القلق البركاني كان بدوره قد اشتد في تصاعد متواز . كانا يشتدان ، كل الناس قد أخذوا بسحب الدخان التي راحت تتكاثف . ببعض البروق النارية التي تنطلق برائحة الكبريت التي جعلت

تفوح ، بالرماد الذي بات يتطاير في الجو ويتساقط على الأرض . كان الناس قد أخذوا إلا أصحاب المعركة الانتخابية . كانوا يخشون ان يؤثر ذلك كله على النتائج التي يرجونها ، كانوا يلعنون هذه المصادفة السيئة ويصرون على ضرورة تهدئة الخواطر ، فلا شيء هناك !

في ليلة ٣ مايو لم ينم الزنجي السجين . كانت زمجرة أقسى من الغضب الذي في صدره تملأ الأرض من تحته . صرخ وصرخ . ضرب الباب بيديه ورجليه . لم يرد عليه أحد . وفي الصباح كانت المدينة كلها قد وقعت في بحر من الرعب ، الذعر المجنون أخذ يتجول في العيون وعلى الدروب .

ولكن القسيس كان يأمر المصلين في الكنيسة بتلاوة صلاة « أومن بالله » بينما كانت ارتال طويلة من طالبي الاعتراف تتزاحم أمامه ، وكان صاحب المصنع يطمئن امرأته :

- ان اشتدت الحال فليس أمامنا سوى مائة متر نقطعها ونصل المركب في المرفأ ونبحر ! لا تتركي الصغير يبكي . هدئيه .

وكان رئيس البلدية يستيقظ مبكرا ليبرق الى الحاكم النائب .

- وضع البركان يزداد خطرا . الناس في ذعر . نطلب تعليماتكم ! وجاء اليوم التالي ولم يصل أي رد . وفي اجتماع طارىء بالمحافظة وقف أستاذ الفيزياء يقول :

- أعتقد أننا يجب ألا ننتهي نهاية بومبي . يجب أن نخلي المدينة .

وصاح به رئيس البلدية :

- هل تدرك ما تقول ؟ هل نعلن : من استطاع النجاة فلينج لاثنين وثلاثين ألف ساكن ؟ وفي قلب المعركة الانتخابية ؟ وبيننا وبين الاقتراع أسبوع ؟ أنا لن أحمل هذه المسئولية ! ليحملها الحاكم إذا شاء . . . » .

ولكن الحاكم لم يشأ حملها بدوره . أبرق لهم يقول : « ألا تدركون

الوضع الانتخابي الخطر ؟ طمئنوا الجميع وليبق كل في عمله . سأطلب التعليمات من باريس* »

كان الرجل بعيد النظر ، يدرك أن في القضية خسارة الحكومة لمقعد في المجلس النيابي ، وجاءت برقية الوزير متأخرة ولكنها تؤيد رأي الحاكم : « نذكركم بأهمية الانتخابات . نعتمد عليكم بأن تفعلوا المستحيل لادارة الأمور بشكل طبيعي ريثما ينتهي الدور الثاني من الاقتراع . ثم لكم مطلق الحرية في اتخاذ ما ترون من التدابير لمواجهة الموقف . . . » .

السباق اذن كان بين البركان وبين موعد الاقتراع بعد أسبوع ! في ذلك اليوم تجمع عمال مصنع السكر أمام أبوابه عند الظهر بظاهر المدينة يتوجسون خيفة . قال لهم صاحب المصنع :

ـ تستطيعون الانصراف إن كنتم مذعورين وتعودون للعمل يوم الاثنين ! سأقضي عطلة الأسبوع على المركب . كان المركب على بعد مائة متر ، وكانت زوجته وابنته على باب المنزل حين صاح أحد العمال :

ـ الجبل ينهار . . الجبل ينـ . . . . . .

ولكن الصيحة لم تتم لأن جدارا من الصهير الناري يزيد في الارتفاع على ثلاثين مترا كان قد طوى المصنع والعمال وصاحب المصنع وأسرته واستقر عند الشاطيء يغلي . . ربوة من الصخر الأحمر المسود تفور بما حوت من الأجساد وتصعد الدخان والأبخرة والشرر كعاصفة من عواصف الجحيم !

أخذ ذلك كله ثواني معدودات .

قضي الأمر كله في ثوان !

ثم عاد البركان بغتة الى الهدوء . كأن شيئا لم يكن !

في المدينة على بعد كيلومترين ، كان أستاذ الفيزياء قد شهد دفعة اللهب

---

* كانت جزر المارتينيك هذه تابعة لفرنسا ، وما تزال .

الصخري تندفع وعرف انها لابد أخذت المصنع وتفحم فيها ٣٥ جثة على الأقل ! . . ركض الى رئيس البلدية . . القسيس الذي كانت الراهبات قد جئن اليه وتغدين عنده رأى سيل النار المنقض فقال لهن :

- لاشك ان الله الهمكن ترك الدير اليوم . لقد طوى كطي السجل للكتب . رحم الله الدير . . لقد قبر في النار !

الصحفي الذي كان يجهل ما جرى للمصنع كتب لجريدته : لقد انفجرت دفقة من الحمم وثمة تلاطم في موج البحر يزيد على ثلاثين مترا لابد أنها هزة أرضية تحت قاع البحر . . .

أما السجين في قاع زنزانته فقد شعر بالأرض تضطرب تحت أقدامه وضرب الباب بكلتا يديه ولكن احدا لم يسمعه . الحراس كانوا في شغل عنه . يجمعون حوائجهم احتياطا للأحداث . المدينة كلها استبد بها ذعر الفرار .

واجتمع في المحافظة أركان الانتخابات : ماذا نفعل ؟

وقال رئيس البلدية :

- التعليمات واضحة لا سماح بأي اضطراب قبل أن يجرى الدور الانتخابي الثاني . وقال أستاذ الفيزياء : ولكننا نهزأ من تعليمات الحاكم . إنه على بعد ٣٠ كيلو مترا منا ، إنه في مأمن ، والبركان فوقنا يهدد . فوقنا نحن . يجب اخلاء المدينة .

- ليست هي تعليماته ولكنها تعليمات الوزير ، من باريس ، وزير المستعمرات .

وقال الصحفي : - لابد أن تعطيني تصريحا للجريدة .

- انه جاهز . اكتب : لاتدعوا الذعر يستبد بكم بدون مبرر ، تابعوا أعمالكم المعتادة ، الانتخابات قائمة .

وجاء الحاكم يوم الاثنين ٥ مايو .

أخذ البركان يطلق الزمجرة التي تفتت الأعصاب ويبصق غيوما من الأبخرة والدخان .

وجاء أستاذ الفيزياء الى رئيس البلدية يرجوه :

ـ يجب أن نخلي المدينة في نظام . أن نغلق الادارات والبنوك .

ـ لامجال لذلك . الحاكم لم يأمر به . . .

ـ ولكن قل له ان يأتي البلد ليرى اين هي انتخاباته ؟ . . ألست ترى ان بعض الناس يهربون وبعضهم بدأ النهب ؟

ـ صحيح . . . ولكن . . . .

الثلاثاء ٦ مايو . . .

الزحام والخصام أمام كاهن الاعتراف بالكنيسة يبلغان الأوج . قدموا النساء والأطفال أولا . بعض الناس يتدافعون على الشاطيء لركوب المراكب الموجودة . شيخ شهد حادث المصنع عن قرب وفقد ابنه فيه، كان يصيح في صوت النذير : ،

ـ غادروا هذه المدينة الملعونة . غادروا سدوم !

أما الحاكم البعيد ثلاثين كيلومترا عن سان بيير فتلقى برقيتين : الأولى من باخرة كانت في عرض الميناء بالمدينة تقول : لقد انتهينا من تحقيق مكان انقطاع الخط التلغرافي البحري . خرائط الأعماق تحدد انه كان على بعد ٢٦٦٠ مترا من هنا . من الواجب ان نشير الى انه الآن على بعد ٣٠٠٠ متر . . .

الثانية من رئيس البلدية :

أضحينا عاجزين عن امتلاك زمام المدينة ، حالة الذعر والفوضى تستبد بالأهلين . عجلوا بعمل شيء . . . »

وأراد الحاكم أن يفعل شيئا فأبرق « إني قادم »

وقال لزوجته : تذهبين معي . إن ذلك من شأنه أن يهدىء المدينة ويبعث الاطمئنان في الناس .

وأبحر مركب الحاكم وزوجته نحو سان بيير وعليه أيضا لجنة علمية من بعض الأساتذة بوصفهم خبراء ، وضابط كبير ، فانه قد يكون ثمة ضرورة

لوجوده لكبح جماح الفوضى ! إن وضع الانتخابات أضحى في خطر إن نقصت أصوات مدينة سان بيير .

تصريح صحفي

وهدأت المدينة بالفعل حين وصل هذا الوفد . الذين كانوا يسرعون الى المراكب تباطأوا . الجامعون لحاجاتهم على عجل توقفوا . الراكضون في الأزقة أخذوا يتساءلون : إن كان الحاكم وزوجته قد حضرا وحضر هؤلاء العلماء فلابد ان الأمر ليس بتلك الخطورة . وسرى في الدروب تيار الاطمئنان ، كما لو أطلقت تيارا من الهواء البارد في أفواه جهنم . وكتب الصحفى في جريدته البلاغ الرسمي التالي : « إن المدينة وما حولها في أتم السلامة . واللجنة العلمية سوف تتابع الدراسة للأحداث وتبلغ الأهلين بما تراه أولا بأول . والأمر لا يتعدى أن البركان أطلق ما يحويه من الرماد . . » .

وحده البركان كان لا يأبه لكل ذلك . . . والسجين الوحيد في السجن ! أما أستاذ الفيزياء فكان يهمهم بينه وبين نفسه :

- إنهم لا يرون إلا يوم « البالوتاج » يريدون إبقاء الناس بأى شكل في المدينة حتى ذلك اليوم .

في المساء كان الحاكم وأصحابه ضيوفا على رئيس البلدية في العشاء . وكان الصحفي يدبج مقالا في تهدئة الناس ويتهجى أسماء أعضاء اللجنة العلمية المجهولين ، وقسيس الكنيسة يصلى بالراهبات بعد يومه المرهق من الاعترافات . وأستاذ الفيزياء مثقوب الفؤاد يتساءل : أليست ٣٢ ضحية بالكافية لإنذار هؤلاء العميان ؟

أما السجين في قاع الزنزانة السوداء فكانت عيناه فقط هما اللتان تلمعان في العتمة .

شهران قد قضى هناك في انتظار باقي المدة . . . لا يعلم شيئا عما يجري ، أيهم أن يعلم ؟

صباح الخميس ٨ مايو سنة ١٩٠٢ قبيل الساعة الثامنة بدقائق استيقظ السجين على تيار محرق من الهواء نفذ من كوة زنزانته . لقد أحرق البخار الساخن أطرافه ووجهه وأخذت رائحة أخاذة عنيفة من الكبريت تدمر أنفه . . فأقبل يضرب بكل قوته على الباب : افتحوا لي إني اختنق ! استجار . صاح ، زمجر . عوى . زفر . خار . نبح . . . ليس من جواب . ظل يفعل ذلك ثلاثة أيام . . .

أخيرا في اليوم الرابع أجابوه ، جاء بعض الجنود فكسروا الباب وأخرجوه الى سطح الأرض الى النور ، الذي أعشى عينيه فترة من الوقت ! . حين استطاع أن يرى ، لم ير شيئا ، لم يكن ثمة مدينة ، كان ثمة فقط جثث متفحمة بكل مكان . الأستاذ والصحفي ورئيس البلدية ، والقسيس ، ومرشح الحكومة ، ومرشح المعارضة ، والحاكم وزوجته واللجنة العلمية كانوا كلهم في المصير سواء ، لا يتميزون عن ٣٢ ألف جثة أخرى . . . سوداء حتى العظم ! موزعة بين البيوت المدمرة والطرق المغمورة بالمهل والرماد .

لم يكن الناس قد قرأوا بعد ما كتبه الصحفي في تطمينهم صباح الخميس الفاجع ، وخلال ثوان لا تجاوز الخمس . قبيل الساعة الثامنة ، كانت أبواب جهنم تفتح . تتفجر قمة البركان . تتحول الفوهة الى مجموعة من الفوهات النارية . وسيل جبار من الحمم واللهب يهوى بعرض السفوح كلها وبارتفاع عشرات الأمتار ، فالمدينة كلها بما فيها ومن فيها كتلة من اللهيب الأحمر ومن سحب الضباب ، حتى المراكب في الشاطيء احترق بعضها وغرق الآخر .

انمحت مدينة سان بيير بسكانها الـ ٣٢ ألفا٠ احترقت ما بين انتخابين . وحين جاءت فرق الانقاذ بعد ثلاثة أيام سمعت في غرفة السجن طرقا شديدا وما يشبه العواء . إنه السارق الثائر سجين المدينة الوحيد . . كان الناجي الوحيد من المدينة التي ذهبت ، وذهب معها الانتخاب ، وأمل الحكومة في الأصوات ، وكان هذا الناجي هو الوحيد الذي لا يحق له الانتخاب ! □□

الزّنجيّ الثّائر

وتنقل الحديث ، دون نظام ، من شفة الى شفة ، في حلقة الأصحاب وقد انتهى مسلسل « الجذور »[1] على التلفاز ، قال أحدهم :

- لقد طرح اليكس هالى المشكلة . طرحها من زاوية ولكنها قديمة ، هذه المأساة الزنجية قديمة .

وعلقت شفة متعالمة تحت نظارة سميكة :

- منذ سبارتاكوس وثورته في صقلية إلى ثورة الزنج ضد العباسيين في البصرة !

فقالت سيدة تقرض الشعر وهي تنفث دخان لفافتها حلقات وتتعمد انتقاء الكلمة :

- كانت افريقيا دوما البئر الحارّة التي يغرف منها النخاسون الدماء السوداء .

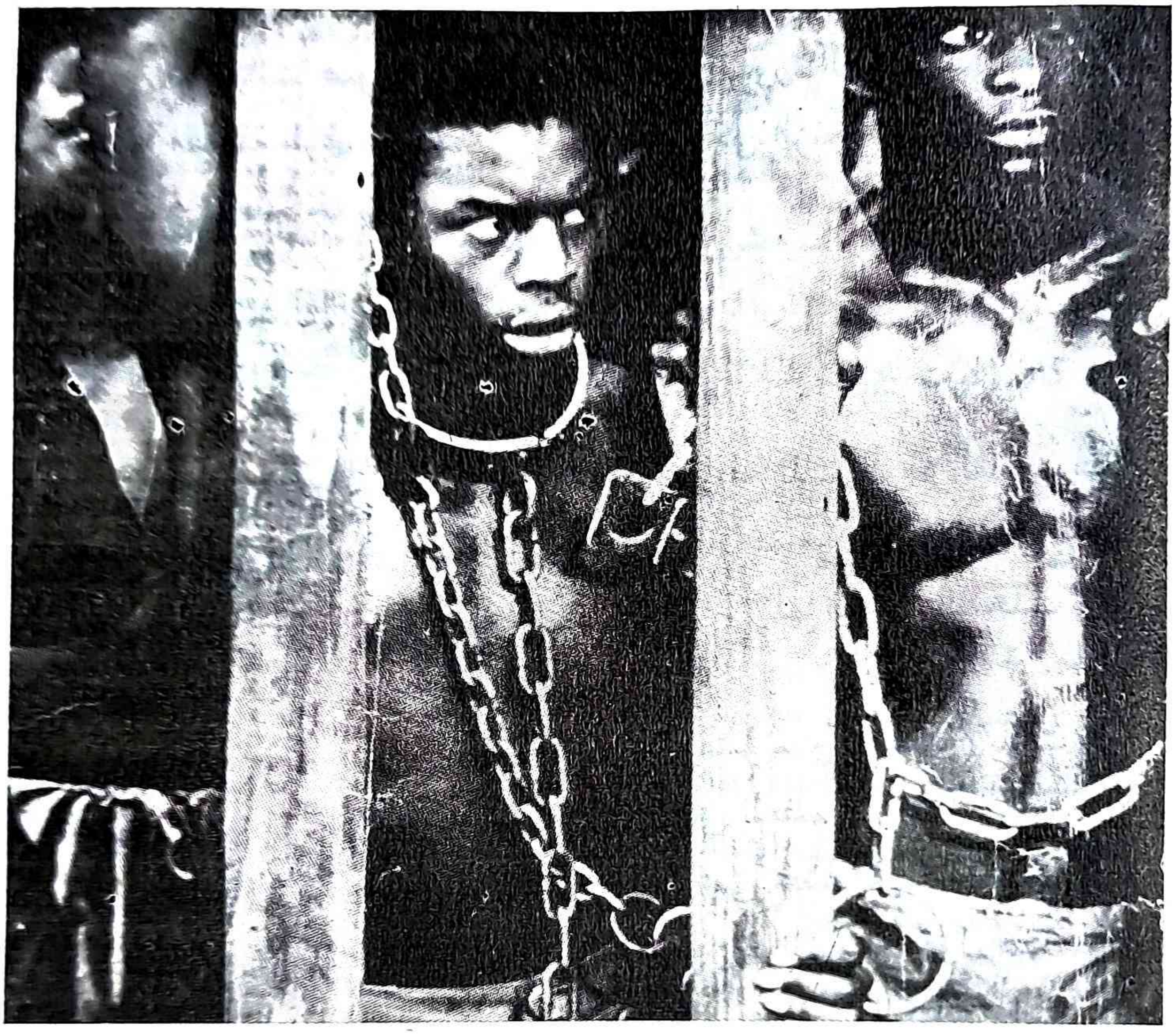
العربي - العدد ٢٣٤ - مايو (آيار) ١٩٧٨ م .

(١) مسلسل تلفزيوني اشتهر كثيرا في الولايات المتحدة وغيرها يعرض قصة زنجي افريقي مسلم ، اسمهُ (كونتا كنتي) ، اصطاده النخاسون في غامبيا حوالي سنة ١٧٥٠ ، ونقل الى الولايات المتحدة حيث فشل في الهرب مرات ، وجوزي في احداها بقطع نصف قدمه . ثم تزوج وكان له الأولاد الأحفاد ثم احفادهم ومن الأحفاد الأخيرين كان « اليكس هالي » الذي نبش القصة كلها ، وكتبها .

عتمة أدغالها تدفقت في كل دروب الأرض سواقي من الحزن . إنها قمرنا الأسود . سارتر كتب : « هل كانوا يتوقعون حين رفعت الكمامات عن تلك الأفواه السوداء أن تتغنى بمديحهم ؟ وتلك الرؤوس التي أحناها آباؤنا البيض بالقوة حتى مست الأرض ، هل كانوا يظنون أنهم سيقرءون في عيونها علامات التعبد حين تنهض من جديد ؟ . الأبيض تمتع ثلاثة آلاف عام بامتياز أن يرى الآخرين دون أن يروه . . . » واليوم ينظر اليه البشر السود . ينظرون في عينيه . « إن ثمة شعلا سوداء تضيء بدورها العالم ! . . . » عالم الكهرمان الأسود استيقظ . الضوء الزنجي انفجر . اكتشف نفسه . الابنوس العتيق أخذ يصرخ « حرروني من ليل دمي ! . . . »

وقال صديق قابع في الركن مع الصمت العنكبوتي :
* من قرأ منكم أشعار (سيزير) الشاعر الهاييتي :

« أيها الزنجي ، يا بائع التمرد المتجول
أنت تعرف طرقات العالم كلها
منذ أن باعوك في غينيا . . .
* لأنه ما من أرض لم يسل فيها دمك
ما من لغة لم يشتم فيها لونك
أنت تبتسم أيها الصبى الأسود
ترقص . تهدهد الأجيال
لتكتب في جميع اللغات
اعلان حقوقك المنكورة
منذ أكثر من خمسة قرون
* خمسة قرون شهدتكم وأنتم تشهرون السلاح ولقد علمتكم العروق المستغلة هدى الحرية . . . »



وأضاف صديق صحفي وجهة نظر :

ـ الأمريكيون ، بمثل هذا المسلسل يهدهدون وجدانهم القلق ، يحاولون به التحرر من « الخطيئة » ومن « القصة السوداء »[2] يحسبون أنه يدخلهم « المطهر » وعتبة التكفير . أليسوا كذلك يفعلون منذ زمن طويل بمذابح « الهندي الأحمر » ؟

وغرق الحديث فجأة في نكتة عابرة مزقت أجواء الجد فيه ، قبل أن

(٢) « القصة السوداء » هو الاسم الأدبي الذي يطلق على مجموع الفظائع التي ارتكبها الفاتحون الاسبان وغيرهم في أمريكا .

يتساءل أحدهم :

هل كانت صورة الاضطهاد الفردي والثورة الفردية التي طرحت من خلالها مشكلة الرق في قصة « الجذور » هي كل الزنجي الثائر ؟ هل كانت مأساته في العالم الجديد ؟

قبل فتح أمريكا

بعيدا ، بعيدا ، في الماضي كان للزنجي مع تلك الأرض لقاءات مأساوية أفجع ، وثورة أشد كبرا . ثمة في لقائه معها ملاحم من الملاحم ، يمتزج فيها مع الهلع والعذاب اللابشري ، الصدور الممزقة قد أكلها الذعر والطحلب ، غضبة العين الحمراء قد استحالت دما جديدا !

منذ ١٥٠٢ (أي بعد كشف أمريكا بعشر سنوات فقط) بدأت المراكب تحمل اللحم الأحمر المحروق ، المحروق حتى العظم الى العالم الجديد . وبعد خمس عشرة سنة أخرى فتحت الأبواب على مصاريعها . كانت أفريقيا « السوداء » في تلك الفترة قد قضت أكثر من قرنين وهي دول مسلمة وسط الأدغال القبلية ، وقد تحول بعضها مثل مالي والكانم والبورنو الى امبراطوريات واسعة الأبعاد ، فيها الغنى والحضارة ، ولها المدن والحركة التجارية ، والتعدين والزراعة والعمران ومراكز العلم والتأليف والقضاء . ولبس الحرير والديباج ، وتقاليد البلاط والحكم . لم تكن دغلا أسود ولا مجاهل للقرود ، والفهد ذي العين المنطفئة ، والغاب الشيطاني ، والطبل يدمدم في لا نهائية الليل . ومع ذلك غزتها البندقية الاوربية على كل السواحل ومصبات الأنهر تشرب حتى الثمالة من دمائها المذعورة ! البندقية نفسها التي سحقت الهندي في أمريكا المكتشفة هي التي ساقت الافريقي في قاع مراكب الاستكشاف الى الأرض الجديدة . أسبان ، برتغاليون ، انكليز ، هولنديون ، فرنسيون - كلهم كانوا هناك قراصنة بعيون مقلوعة ، ونخاسين يأكلون لحم البشر !!

مراكبهم ، لو نطقت المراكب ، لم تكن فقط جحيم السياط والعفن والسل والجرذان والقمل ، وأغلال الحديد تسيل في اللحم الأسود ، ولكنها كانت أيضا بحيرات طافية من الدم والصديد والوحل واللعنة ، أشرعة لقهقهات الشيطان ، ولسادية الوحش الأبيض . وللغضب كالنحاس المصهور ، وللافتراس البهيمي له الجؤار المزلزل . . أرحم الزوار لتلك البضاعة من الجلود الحية ، كان الموت يجرف ثلاثة أرباعها الى سمك اليم أو يعيدها الى أمها الكبرى : الأرض !

في سنة ١٥١٧ ، سنة كانت مصر والشام تدخل الفلك العثماني على يد السلطان سليم ، وصل البرازيل أربعة آلاف قيد . ثلثها كان في أعناق الجواري ، ومنذ ذلك الوقت أقبل الدم الأسود يملأ « الخوابي » في مزارع السكر والقطن والطباق فيما بين جزر أرض النار ووادي المسيسيبي . زرائبها أفعمت حتى الطفح بالدم والسياط والحقد وأغنية الزنجي الحزين . بالآلاف المتزايدة بعد الآلاف كانت مراكب النخاسين تتقيؤهم على الشواطىء . وتسترد قيود الحديد الصدئة لعبيد جدد !

في سنة ١٥٨٥ كان قد تجمع في البرازيل وحدها ١٤ ألف عبد (كم عبد مات حتى وصل هؤلاء ؟) بينما لم يكن « المكتشفون » البيض فيها أكثر من ٥٧ ألفا فقط . في الاقليم الحار الضيق من غواتيمالا كان هناك في الوقت نفسه عشرون ألف عبد يرعبون الناس بكثرتهم ! في السنوات الأربعين الممتدة بين سنتي ١٧٥٩ و١٨٠٣ وصل من أنغولا وحدها الى البرازيل وحدها ٦٤٣ ألفا من الأرقام . .

هل لغة الأرقام رهيبة ؟ في تلك الفترة نفسها ـ وهي أيام الثورة الفرنسية في الغرب ـ كان عدد الرؤوس الزنجية في البرازيل فقط ثلاثة ملايين وربع المليون ، نصفهم من الأرقاء مع أولادهم . وبعد ذلك بعشرين سنة صار الأرقاء مليونين ! في فنزويلا بلغ العدد ٧٢ ألفا من العبيد . يعدلون ٧٤٪ من السكان البيض ! في جزر الهند الغربية كان العدد مليونا ومائة وخمسين ألفا .

منهم في كوبا وحدها ربع مليون من حملة السلاسل في الأعناق . . كان العبيد الزنج قد أضحوا - منذ مطلع القرن السابع عشر - المحرك الأساسي للاقتصادالاستعماري في القارة الجديدة كلها . في كل مكان . في وديان « البيرو » المروية بالانهار ، أو في هضبة المكسيك الحارة ، في سانتو دومينو الرطبة أو في اليانوس الكولومبي . أو سهول القطن وقصب السكر البرازيلية ، أو جبال ميناس جيرايس أو البامبا الأرجنتينية ، أو الجنوب الامريكي - كانت الآلات البشرية المتحركة في المناجم الحالكة كقلب الشيطان ، أو في خضرة المزارع الممدودة ما شاء الله ، كانت سوداء كالفحم قد انطفأ فيها على الأسى المكبوت ، حتى بياض العيون ولكنها كانت مع ذلك تعمل وتغني وترقص ، وتثور وتثور !

من سلالة البانتو

المورد الأساسي لهذه الدماء كان سلالة البانتو المنتشرة في الكونغو وانغولا حتى موزامبيق . ثم كانت تأتي قبائل السودان الغربي والأوسط . ولأن هؤلاء كانوا أكثر ملاحة وذكاء ويحملون في أعماقهم حضارة اسلامية قوية - فقد كانوا أصعب انقيادا وأشد مراسا وثورة . كان رأس الحربة في التحرك الزنجي الثوري وفي التعالي أيضا هؤلاء المختطفون من قبائل الفولاني الحامية ومن الهوسا في نيجيريا وقبائل اليوروبا السودانية والماندنغو وأبناء الاشانتي وداهومي . . هذه الدماء « السوداء » كانت سماد الحضارة الامريكية . كانت غذاءها المقيت الحزين . كانت الصانع الحقيقي للعالم الامريكي . وما انسكبت في لحم الأرض الجديدة فقط ، ولكنها انسكبت أيضا في الشرايين الزرقاء الارستقراطية ، فالمولدون منها ملايين بعد الملايين . ثقافتها الزنجية الخاصة انتقلت معها : آلهة ، وأغانٍ ، وأساطير ، وعادات رقص ، وحياة . المسلمون منهم لحق بهم مشايخهم يعلمون القراءة والكتابة والقرآن والصلاة والتسبيح لله في ليل

الزرائب ، بينما كان أسيادهم من برتغال وأسبان أميين أميين . . كان السيد اذا شاء مخاطبة زميله في المزرعة الأخرى كتب له كاتبه باللغة العربية ما يريد . ويقرأ الرسالة للسيد الآخر كاتبه . . الذي ينقل له عن العربية . .

هل مضت الملحمة كلها في الصمت المقهور وقوافل اليأس الأبكم ؟ هل نامت على الحقد الفردي والتمرد الأعزل والغضب ، ثم شربها الصمت واليأس ؟ أبدا . إنها في حاجة إلى ألف هوميروس زنجي يحكي ، على الطبل الشجي لا القيثارة ، فصولها الطويلة وعضة المآسي المذهلة ودبيب الهول في العروق . وماذا أستطيع هاهنا أن أفتح من مصاريع تلك الأبواب العتيقة التي تصر صريرا تحسبه بكاء الدهور وعويل ألف جحيم ؟ الزنجي لم يكن أقداما مغروسة في الوحل وعينا « كسراج كوخ نصف متقد » ولكنه كان خنجرا أيضا وجنون تحرر جماعي !

أول الثورات الزنجية

أول ثورة زنجية نعرفها للزنوج هناك في المستعمرات الاسبانية وقعت مبكرة جدا سنة ١٥٢٢ . بدأها الأرقاء التابعون لدييفو كولومبوس (ابن المستكشف الأول) الذي كان يومئذ حاكم سانتو دومينغو . وانضم للثورة زنوج آخرون . . ولكن السلاح أخمد أنفاس الثائرين في مذبحة فاجعة ! في سنة ١٥٥٠ أحرق الزنج المتعبدون بلدة « سانتا ماريا » على الساحل الشمالي من أمريكا اللاتينية ، وسحقوا المنطقة بالارهاب ودفقة الغضب ! وفي تلك الفترة نفسها فر زنجي (اسمه مفل) من ليل المناجم التي كان يعمل فيها في « فنزويلا » الى التلال ، واجتمعت اليه الأعداد الكبيرة من الزنج ، فاذا هو ينظم الدولة سلاحا وقانونا وحقوقا وأرضا ويتوج نفسه ملكا ، ثم يهاجم بلدة نوبغا سيفوفيا مع جماعة من جيشه ، قبل أن تصده القوى الاسبانية ويقتل ، وبينما ذابت الدولة وضاع الملك والتاج تحت السنابك كان أتباعه يعادون الى عبودية لدى أسيادهم

أهون منها الموت . وصدرت عن نائب الملك الأسباني القوانين الوحشية التي تمحق حتى التفكير بأي تمرد !

وبالرغم من ذلك فقد دمر الزنوج النظام كله في « بيرو » في أعقاب الحرب الأهلية هناك أواخر القرن السادس عشر .

وفي كولومبيا ١٥٩٨ اندفع آلاف الزنوج الحفاة . من مناجم « ساراكوزا » فجأة . تدفقوا كحمم البراكين المباغتة ، فدمروا المناجم ، بعد أن قتلوا المدير وأعوانه الأسبان ، ثم كان الملجأ الوحيد أمامهم أن يقيموا سياجا مرتجلا يحتمون به . ولكن الحوافر داستهم وراء السياج وعلى الطرقات ، مخلفة بدلا منهم بحيرة من الدم والأشلاء .

ومع ذلك فقد كان الرعب من الزنج يرى كأشباح الجحيم في القارة كلها . كانوا قطعا من الغضب الكبيت ، تنتقل في المناجم والأزقة والمزارع . كل آمالهم بالخلاص كانت تموت على شواطىء المحيط الذي لا يمكن اجتيازه . وما دام بحر الظلمات يضرب شهرين بينهم وبين أفريقية ـ الأم ، فقد تحولت أمريكا كلها الى قفص كبير صارت أشبه بميدان عملاق من ميادين الملاعب الرومانية لصراع الوحوش ، تهزها بكل مكان زمجرة الحقد والرعب . وماذا يخسر الزنوج بالثورة سوى العذاب والقيود ؟ . وذات يوم في مطلع القرن



السابع عشر سرت في مدينة « المكسيك » شائعة بأن العبيد سيقومون بالثورة ويذبحون الاسبان . ثم كان شرود قطيع من الخنازير في بعض الطرقات في الليل كافيا لكي تزلزل المدينة موجة من جنون الذعر المطبق والفوضى والهلع . . ودفع السود ثمن ذلك في اليوم التالي ثلاثين جثة بريئة معلقة على الشجر ! لكنهم عرفوا بذلك أن الجلد الأسود قد أصبح رعباً .

وأول جمهورية زنجية

وفي أواسط القرن السابع عشر ، تجمع العبيد الآبقون في (بالماريس) أراضي النخيل الخلفية من شمال البرازيل . وأقاموا لأنفسهم جمهورية زنجية بعيدة عن صيادي العبيد . . جهزوها بجميع أجهزة الدولة ذات السيادة السياسية والدينية الاسلامية . لكن قربها الزائد الذي كان يغري العبيد بالهرب اليها هو نفسه الذي دعا الملاكين الكبار والأسياد للاستنجاد بكل القوى العسكرية ومن كل مكان لحربها . . ولم تدمر جمهورية « بالماريس » الا بعد مقاومة عنيفة مُرة طويلة المراحل ، انتهت يوم جاءت مجموعة المحاربين الجنوبيين من سان باولو (البانديرانته) رجال الفتح والحدود ، هؤلاء هم الذين اندفعوا أمام المتاريس وخنقوا الدولة .

في تلك الفترة نفسها كان قائد اسباني غاضب في « البيرو » اسمه « هزناندز جيرون » يتزعم « ثورة الغاضبين » هناك . وكان معه بجانب العبيد السود فرقة من العرافين ، والمنجمين ، وقارئي الكف ، ومحضري الأرواح ، ولم ينفع كل أولئك ولا الغضب في حماية الثورة من المصير المحتوم !

على أن بعض الحركات الصامتة كانت تنجح مع ذلك في تجاوز هذا المصير ، باللجوء الى بعض مناطق العزلة في الجبال .

ذات يوم ، من أواخر القرن السابع عشر (سنة ١٦٩٨) وقع صيدلي ايطالي ، وهو راحل بين مدينة المكسيك وفيراكروث على بلد من الآبقين

يعيشون على النظام والسلام الوادع والعزلة . كتب يقول : « يبدو هذا المكان وكأنه جزء من غينيا ، إذ لا يقطنه جميعا سوى السود . ولكنهم وجهاء . ويعملون في فلاحة الأرض . . »

وقد عرف المكان باسم (سان لورنسو الزنوج) وكانت ثمة بضع مستعمرات أخرى لمثل هؤلاء في منطقة « باناما » بقيت ذكرياتها في الأذهان حتى تلقفها المغتربون العرب في أيامنا هذه فهم يحدثونك عن جماعات مسلمة تعيش لوحدها في جبال المكسيك . .

واحدة نجحت وأخرى سحقت

وعرفت أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ثورتين واسعتين نجحت احداهما وسحقت الأخرى .

الناجحة : وهي الناجحة الوحيدة في السلسلة كلها وإلى اليوم كانت في هاييتي[٣] . زنوج أفريقيا كانوا هم الكثرة العددية الطاغية . وثار الزنج سنة ١٧٩١ ولم تستطع اسبانيا الحاكمة اخماد الثورة . وبالرغم من أنها تنازلت عن المنطقة لفرنسا لكن ظروف الثورة الفرنسية يومذاك لم تسمح لها بدورها أن تتمتع بهذه الهدية الزنجية . . وتزعم الثوار زنجي ذو مقدرة خارقة على الزعامة اسمه « توسان لوفرتوذ » . ولم يستطع الفرنسيون رغم الغدر الذي عاملوه به إلا الانسحاب من الجزيرة التي قاد ثورتها بعد ذلك زعيم آخر اسمه « دوسالين » . وأعلنت سنة ١٨٠٤ ولادة جمهورية هاييتي التي مشت خطواتها الأولى على نهر من دماء البيض ، وأقامت أول مجتمع زنجي حر في العالم الجديد . .

---

(٣) هي النصف الغربي من الجزيرة التي سماها كريستوف كولومب « هسبانيولا » أو « اسبانيا الجديدة » في البحر الكاريبي . وأما النصف الشرقي منها فنعرفه باسم « سانتو دومنغو » وهو اليوم « جمهورية الدومينيكان » .

وأمـا الفاشلة : فكـانت سلسلة ثورات المسلمـين السود في السـواحل الشرقية من البرازيل . وفي منطقة « باهيا » بالذات ، المنطقة لا تزال هناك حتى اليوم سوداء . . لا تزال الماكمبا والكاندومبلة الأفريقية هي أشكال ارتباطاتها ، بالقوى الخارقة وبما وراء الطبيعة . ولا يزال الاله « اوريشا » الأفريقي القديم يتصدر حلقات الـرقص الجماعي ، ولا يـزال الزنـج فيها يخلعـون أحذيتهم لدخول الكنائس ويسبحون بمسابح قد نزعوا منها إشارة الصليب !

قيادة تلك الثورات كانت ، كما هي العـادة ، في أيدي رجـال الهوسـا واليـوروبا المسلمـين وشيوخهم حفـظة الدين . كـانوا يعتـدون بـانفسهم ، وبدينهم ، وثقافتهم ، وأصلهم الزنجي ، وقومهم الأول ، فكانوا يحـرجون حتى أسيادهم بصعوبة المراس وبـالغطرسـة . كانـوا يعتبرون « ارستقـراطية الزرائب » (السنزالا)[٤] . وفي ظلال « السنزالا » انتشرت الثقافة الاسلامية بين العبيد وأولادهم العبيد أيضا . . معلمو الكتاتيب والمشايخ كانوا يعملون على ذلك ، حتى عند جدران الكنائس ،وفي زوايا الساحة العامة من « باهيا » وقرب الطرقات .

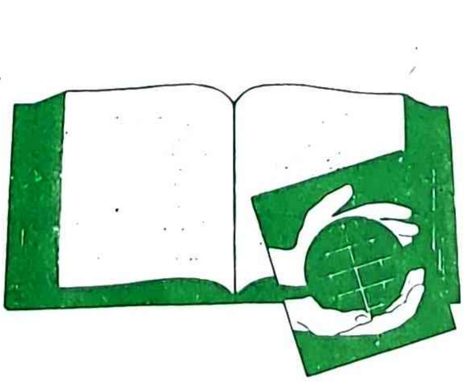
وبعد عدة ثورات فاشلة جاءت المعركة الحاسمة النهائية مع الأسياد سنة ١٨٣٥ . سبق الثورة ارتفاع عنيف في الروح المعنوية الاسلامية وفي الحماسة الدينية . المسابح ذات الـ ٩٩ حبة انتشرت . كانوا يخطبون بالعربية . وآيات القرآن كانت تتلى بكل مكان . وصيام ، ورفض للخمر وأضاح في العيـد ، وعمائم بيضاء ، وكتابة حجب وتعاويذ ، ثم وقعت الواقعة . ولم تكن أسلحة الثائرين ـ فيما عدا الايمان ـ بالتي تقف لأسلحـة السلطات ، ولجند كـزبانيـة الجحيم ، دمر الزرائب الزنجية وزرع الطرقات جثثا وحرائق ولحما أسود . .

---

(٤) Senzala بالبرتغالية تعني بيت العبد وهو كوخ تافه أشبه بالزريبة بينما كان مسكن الأسياد يدعى البيت الكبير .

كانت هذه آخر الثورات في البرازيل وفي القارة . . استقلال دولها ، ثم تحرر الرقيق في النصف الثاني من القرن الماضي غير المسيرة كلها ، وأخذ يمسح على العقد كلها بالتسامح البطيء والاندماج التدريجي . ولم يختلف الأمر كثيرا في الولايات المتحدة ، وان عجلت فيه حرب الانفصال وموقف لنكولن الصلب . . فهل المسلمون السود فيها اليوم يمثلون عودة الروح ؟ وهل كان مسلسل « الجذور » نوعا من الجواب على الغطرسة البيضاء ؟ أو نوعا من الاعتذار وامتصاص النغمة ؟ (سنغور) شاعر الزنوجة كتب مرة :

« نيويورك » اسمعي
اسمعي أقل لك يا نيويورك
دعي الدم الأسود ينساب انسيابا في عروقك
دعيه ينصب انصبابا في دمك .
في كل جارحة .
صدئت جوارحك . أصبحت حديدا
دمنا زيت الحياة !
أما كان دوما زيت الحياة هذا الزنجي الثائر !» □□

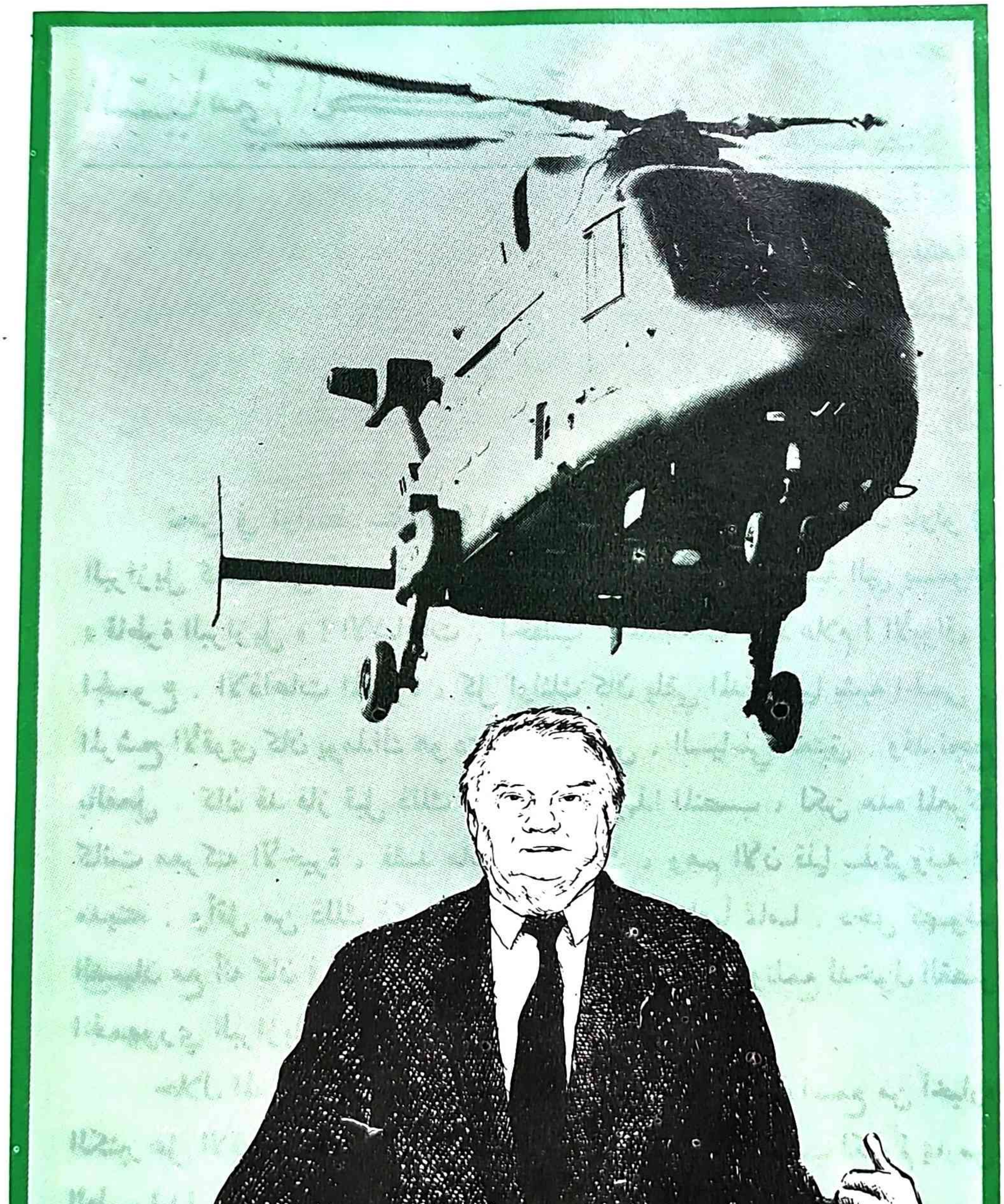


السِّيَاسِيُّ الكَبِيرُ

نحن في اواسط سنة ١٩٦٢م، المعركة الانتخابية لحاكمية سان باولو في البرازيل كانت على أشدها ، في تلك المدينة الديناميكية العجيبة التي يسمونها « قاطرة البرازيل » ! الاشاعات . الخطب . الملصقات . الاعلام ! الأبواق . الجموع . الاذاعات المثرثرة ، كل اولئك كان يلقي المدينة فيها يشبه الحمى . المرشح الأقوى كان يومذاك هو ديماردي باروس ، السياسي العتيق . وقد نجح بالفعل . كان قد فاز قبل ذلك اكثر من مرة بهذا المنصب ، لكن هذه المعركة كانت معركته الأخيرة ، فقد مات بعد ذلك ، وهم الآن قلما يذكرونه في مدينته . وأقل من ذلك ذكره في البرازيل . . . انطفأ تماما . دخل كهوف النسيان مع أنه كان في الخمسينيات من الأسماء التي تصقل وتلمع لدخول القصر الجمهوري البرازيلي .

خلال المعركة الانتخابية سنة ١٩٦٢ كنت هناك وكنت اسمع من أخباره الكثير على الافواه . كان طبيبا وعضوا في الاكاديمية الوطنية للطب لكنه لم يمارس الطب ابدا . وكان صاحب مصانع للاحذية وللمحفوظات ويشترك في تهريب البن وألاعيب المقاولات والبنوك ولكنه لا يهتم لا بالصناعة ولا بالبن . ، كان للسياسة فقط . والسياسة عنده ليست مغامرة مما يغامرون ولكنها عمل . مهنة .

العربي ـ العدد ٢٥٨ ـ مايو (آيار) ١٩٨٠ م .



مصدر للأرباح والمال . شركته الكبرى كانت الحزب السياسي الذي أسسه وحده باسم حزب البرازيل الديمقراطي !

ومن أجل هذه الشركة وتلك المهنة أتقن اللعبة الانتخابية وما قبلها وما بعدها وأتقن فن جمع الأنصار ، ولملمة المؤيدين واتقن عملية تجنيدهم حتى الهوس الأعمى .

تساقطوا على الطريق

أحد انصاره القدامى ، وهو مغترب عربي ، روى لي في دكانه الذي يبيع به التبغ المفتول ـ وهناك يفتلون التبغ كالحبال ـ روى لي حكايته مع السياسي الكبير :

ـ أنا احدثك عن دي باروس ! قال ، هذه الهياكل السياسية الضخمة نحن صنعناها بأيدينا لتسحقنا . بنيناها حجرا حجراً فوق اكتافنا لتخنق انفاسنا حتى النفس الأخير . نعرف كل فراغها . كل أنانيتها . نعرف أنها تئن دون قلب . انها « دراكولا » مصاص الدماء . ومع ذلك نعجز عن تحطيمها . بمجرد أن تكبر تصبح اعظم من أن تحيط بها ايدينا . هل تعرف البالونات الضخمة التي اذا طارت لا تطال ؟

ماذا تريد ؟ . . .

لست إلا واحدا من المنسيين على طريق دي باروس السياسي . هناك المئات والالوف مثلي تساقطوا على طريقه وطريق غيره كورق الشجر الخريفي . . . هل يذكر احد اولئك الذين صنعوا للاسكندر مجد الاسكندر ، او اولئك الذين ذبحوا تحت السنابك ليكون نابليون هو نابليون ؟ التاريخ كله مزروع (بالديماغوجيين) الذين يقال إنهم كتبوا التاريخ ، وإنما كتبه بالفعل مئات الالوف بل الملايين الذين ماتوا تحت اقدامهم ، الذين صاغوا أساطيرهم .

مهمة خاصة !

قطع محدثي الحديث ليقطع بعض التبغ ويلفه في ورقة من أوراق الذرة الرقيقة المجففة وليبدأ التدخين وينفخ الدخان بعيدا بعيدا ، كأنه يغرق عيونه في بحر الذكريات الضبابي . عاود الحديث كأنه يتحدث من قعر بئر :

ـ أنا احبه ولا أكرهه هذا الـ (دي باروس) لقد تجاوزت ذلك بعد أن وصلت في خدمته حافة الموت الاخضر ! سأروي لك القصة في منتهى الحياد كما لو كانت قصة شخص آخر . ولم لا أقول إني الآن شخص آخر ولد بعد قصة الموت في الغابة الامازونية سنة ١٩٥٠ ؟ .

عاد الرجل مرة اخرى إلى الصمت كأنه يستعيد الذكرى على عينيه . قال :

ـ أنت تعرف أن السنيور دي باروس متزوج من واحدة منا . زوجته عربية . وقد اخذتُ به في اوائل الأربعينيات . كنت مفتونا بإطلالته الوسيمة . بوادعته مع هذا وذاك . مفتونا بخاصة بتدفقه الخطابي الممتلىء بالكلمات الضخمة والمثاليات ! ودخلت من أجله اكثر من معركة بالكلام ، وبالأيدي وأحيانا بالرصاص ، وكنت أمتلىء زهوا حين تمتد يده فتخرجني من السجن الذي إنما دخلته من اجله !!

وذات يوم من اوائل مايو سنة ١٩٥٠ استدعاني مع بعض المقربين . . . استدعانا جميعا في مهمة خاصة ! ما ازال أذكر تلك التواريخ بوضوح مؤلم .

كانت محطات الاذاعة الثلاثون في البرازيل قد اذاعت بعد ظهر ٢٩ ابريل (نيسان) سنة ١٩٥٠ ان طائرة البوينغ « بريزيدانت » التي تعمل على خط ريودي جانيرو ـ نيويورك تركت الريو عند منتصف الليل الماضي وفقد الاتصال معها ، وعلى الطائرة واحد واربعون مسافرا وتسعة ملاحين . كان هذا الخط يعتبر أهم وأغلى وآنق خطوط الطيران الدولي يومذاك . نصف المسافرين على الطائرة كانوا من اصحاب الملايين ، والسيجار الكوبي في اطراف الشفاه ! وآخر

اتصال مع الطائرة كان قبل طيرانها فوق الغابة الأمازونية قرب مدينة (بيليم) (على اسم بيت لحم) بالبرتغالية ، الموجودة في اقصى شمال البلاد على احد فروع مصب الامازون ، النهر الاعظم !

الحكومة . دنيا رجال الأعمال . الصحافة . الاذاعات ، الناس كلهم اهتزوا للخبر . فالذين كانوا في الطائرة هم شيء كبير في البرازيل . ارقام في البنوك وأسماء في السياسة ، وجسور في التجمعات الاحتكارية .

في المساء اذاعت الأنباء أن القائد العام للطيران كلف العقيد الطيار خوزيه كارلوس دي سوزا أن يطير الى مدينة بيليم يبحث عن الطائرة حتى اذا وجدت نظّم عمليات الانقاذ . . . اربعون طائرة طارت بعد ذلك فوق المنطقة الامازونية تبحث . ولكن الطيارين يعرفون أنهم إنما يبحثون عن إبرة في اكوام من القش ! يعرفون انها « جهنم الخضراء » هذه المجاهل الغابية . هم يسمونها كذلك ! انها محيط لا نهائي من الخضرة ، من رؤوس الاشجار المتراصة المتشابهة ، بساط من الجلد المتجعد يملأ الارض وما بعد الافق ! لا يلتمع هناك إلا الامازون وروافده الثلاثة آلاف في ادغال كأنها عرفت الخلق الاول تزيد على نصف مساحة اوروبا .

ولا بد من العمل السريع جدا لاكتشاف مكان الطائرة ان كانت قد سقطت في ذلك البحر الغابي ، وإلا فان الركاب إن كانوا قد نجوا من الموت فانهم ليسوا بناجين من ألف خطر وخطر هناك . اقل الأخطار أن تغطي النباتات والاشجار السريعة النمو والسريعة الالتفاف كنبت الشياطين ، كل أثر للطائرة ! . . .

لا أحياء . لا أمل

فالاشجار الامازونية ترتفع أربعين وخمسين مترا ، ولا تترك اي منفذ للشمس الى الأرض المغطاة بدورها بالادغال المتلبدة وبآلاف الزواحف الضخمة

والنمل المفترس والحشرات الوحشية وعمالقة الخفافيش وقرود الليل ، ودبيب الفهود والعفاريت . . . وسهام الهنود كل نفس منها ذائقة الموت !

بعد ثلاثة ايام من طواف الطائرات كالنحل في اجواء المنطقة ، جاءت من احد الطيارين اشارة تلقاها فريق الانقاذ المتجمع في مطار بيليم المتواضع باللهفة:

ـ كأني وجدت بقايا الطائرة . بلى هذه هي البقايا ، بعض الحطام . البقايا مبعثرة على الاشجار في نطاق مساحة تبلغ الكيلومتر المربع . هذا يعني انها لم تهبط بالغابة ولكنها انفجرت في الجو . لا امل في العثور على ركاب احياء ، لا استطيع ان ارى ما تحت الاشجار ابدا لكني اعتقد انه ليس ثمة احياء . . . لا يمكن أن يكون !

كانت البقايا على بعد ١٢٠٠ كم من بيليم في منطقة من أعسر المناطق في الغابة العذراء ، واكثرها كثافة وخطرا ودغلا رهيبا !

الصحفيون المتجمعون في مطار البلدة الشمالية بيليم والذين اسرعت بارسالهم صحفهم لتغطية الاخبار نسجوا حول بقايا الطائرة الأقاصيص . . أليس ذلك دأب الصحفيين ؟ كتب المراسلون ما يحلو لهم وخرجت كل جريدة برواية : بعضها يؤكد أن الطائرة كانت تحمل شحنة كبيرة من الذهب . اخرى تجزم انه كان عليها حقيبة من الماس ثمنها اكثر من ثلاثة ملايين كروزيرو (٣٠ مليون دولار في ذلك الوقت) ثالثة تعلن ان الطائرة كانت تحمل شحنة من اليورانيوم . وبعض الصحف ذكرت انها ضحية قنبلة شيوعية موقوتة .

وبالرغم من أن بعثة من المظليين الامريكيين جاءت على عجل للمعونة ثم امتنعت عن الهبوط في الموقع واعلنت انه ليس ثمة من احياء لانقاذهم ولا حاجة للمغامرة من اجل دفن الموتى . . . ثم من الذي يستطيع اخراج المظليين من الغابة بعد النزول ؟ . . . بالرغم من ذلك فان الصحف ظلت تردد ان الركاب احياء وانهم لا بد تائهون في الغابة وانهم ينتظرون الانقاذ وعلى الحكومة ان تنقذهم ، وصدق الشعب ذلك . « ديموس » الملك هو اكبر الحمقى والاسطورة هي خبزه المفضل فلماذا لا يصدق الاساطير ؟

قائد حملة الانقاذ (خوزيه كارلوس) هو الذي اتخذ قرار عدم هبوط المظليين . لهذا اضطر ان يقرر ارضاء للضجيج ارسال طائرة مائية الى اقرب موضع من المكان ثم اختراق الغابة الى حطام الطائرة ولم يرض ذلك الناس . اعتبروه هربا من الانقاذ . تباطوءاً ضحكا على المنكوبين واسر المفقودين . وهم من هم في المجتمع البرازيلي ، اعتبروا هذا القرار اهانة . قالت صحيفة (الكوريو) « من هو ذلك العاقل الذي يستطيع بمثل هذه الاعصاب الباردة ان يجزم بعدم وجود احياء ، معرضا الناجين بذلك الى الموت من الجوع او من الاخطار ؟ . . . وكان العديد من الأهواء والدسائس وراء مثل هذه الكلمات .

وسافر الكثيرون الى بيليم يحلمون بان يظفروا بالذهب او الماس واليورانيوم المهجور ! . . هنا جاء دور الاستغلال السياسي ، ودخل في القضية صاحبنا دي باروس . كانت معركة رئاسة الجمهورية البرازيلية على الأبواب . وكانت احلامها تملأ عينيه فدخلها وكان الشعار الذي طرحه ان البلاد بحاجة الى مدير يدير امورها . وهذا هو المدير !

وبينما كانت جموع من الناخبين والطامعين تهاجم مطار بيليم في الشمال صائحة اعطونا طائرات ، متهمة خوزي كارلوس بانه « قاتل » ، كان السياسي الكبير دي باروس يعقد مؤتمرا صحفيا في منزله الباذخ في سان باولو ويؤكد ضرورة انقاذ الأحياء الشاردين في الغابة ، ويوقع امام الصحفيين عقد شراء طائرة هليكوبتر واستئجار طائرتين صغيرتين وارسال حملة انقاذ من الرجال على حسابه الخاص سماها « قافلة التضامن » لانقاذ اولئك الاحياء ولم ينس تزويدها برشاش ، وقنابل يدوية « خوفا من الهنود » !

كان المشروع مشروعا احمق دبر في ليل ، لان التحضير له كان تحضيرا بدائيا يهدد باضاعة مجموعة من الناس في مجاهل الادغال دون اي امل بالعودة ، ولكن البرازيل كلها صفقت لدى باروس . إنها صفقة دعاية ضخمة !

وحاول خوزيه كارلوس ان يثني السياسي الكبير عن هذا العزم . قال له على الهاتف : إن حملتنا للانقاذ جاهزة للمسير .

فاجاب : ولكنها حين تصل يكون قد قضي الامر . . . واستغرب ان لا يستطيع جيش البرازيل كله ان يعمل اكثر من هذه المساعدة التافهة لاولئك التعسين الشاردين في الغابة.وقال العقيد : ولكن ليس هناك من احياء . واجاب السياسي الكبير : اثبت لي ذلك !

وإتماما للعملية الدعائية اعطى هذا الحديث للصحف !!

واضاف محدثي وهو يرى انتظار النهاية في عيوني : كنت واحدا من الرجال الخمسة عشر الذين ذهبوا في تلك القافلة يقودنا احد رجال دي باروس الموثوقين . الطائرة كانت مهترئة . اشتريت من بقايا الحرب . وقائد « قافلة التضامن » كان واعيا كل الوعي أنه إنما يقود عملية دعائية ضخمة ، دبرت لها كل وسائل الدعاية . اما الأمور اللازمة لعملية الإنقاذ فعلى الله !

وسط الأدغال

خرجنا من الريودي جانيرو في احتفال من احتفالات النصر والأعلام والخطب والاغاني المزغردة . وأخذنا ننتقل من مطار الى مطار باتجاه الشمال وفي كل بلد احتفال واعلام وخطب وزغاريد . . وشرب انخاب ! لكن ما ان غادرنا المطار الأخير الى الغابة حتى بدأ الرعب . الطائرة المهترئة نفسها كانت مهددة بالانفجار ، واخبار الحملة الحكومية كانت تشير الى أنها سوف تسبقنا الى الموقع ، واللعبة الدعائية كلها كانت مهددة بان ينقلب السحر على الساحر !

وأمرنا دي باروس ، باللآسلكي الذي كان يحمل اليه اخبارنا ، أن نهبط ، ولكن لا منبسط للهبوط ، وجاءت التعليمات بان نقفز بالمظلات ، وقفزنا على بعد كيلومترات طويلة من الحطام . مات واحد منا وجرح ثلاثة بسبب الارتطام بالشجر فترك قائد القافلة خمسة منا لرعايتهم ولتمهيد منبسط من

الأرض لهبوط الهليكوبتر ، وسيلتنا الوحيدة للعودة الى عالم البشر ! وانطلق مع السبعة الباقين في الأرض المظلمة ذات الدغل المستنقعي . كان تقدمنا في الغابة مرعبا مرعبا . كان علينا ان نشق بسكاكين « الماشيت » ما يشبه الانفاق للمرور في قلب هذه الجدران المتماسكة من النبت الوحشي الكثيف بينما نغوص حتى اوساطنا احيانا في الوحول . وفي الليل كان الوهم يصور لنا عيونا من الاف الهنود ترمقنا . كنا بدون طعام كاف ولا ماء سوى وحل المطر ، وعلى حافة الانفجار من التوتر والرعب ولأقل صوت نسمعه كنا نلقي قنبلة يدوية . . . تؤنسنا وتشعرنا بالقوة ! حين وصلنا الحطام بعد خمسة ايام لم نجد سوى الجثث معظمها متفحم وبعض قد التهمه النمل المفترس ! ولكن كيف نعود ؟ الهليكوبتر التي جئنا بها تعطلت تماما عند الهبوط . وحاولنا الاتصال بصاحبنا دي باروس ولكن عبثا .

لا رد من أي مكان ! لا رد من اي مكان . الصمت الكوني كله كان يخنق اجسادنا بينما كانت الصدور ملآى بالعويل . . . العويل !

ومضت ايام احلى منها الموت .

عندما فشلت الحملة

وفي ١٤ مايو ، عند العصر ، ما ازال أذكر الوقت والمنظر .

حين وصل خوزيه كارلوس الى الموقع مع المدير الامريكي ! وجدنا اشباحا ممزقة الروح والاجسام والملابس . . . الحشرات والجوع حولتنا بشرا آخرين . . . معهم رشاش وقنابل ولكن ليس فيهم شيء آخر من البشر . بلى كنا نحمل ايضا ما وجدناه من الاوراق النقدية والاشياء الثمينة على الجثث . وسأل خوزيه كارلوس قائد حملتنا بتهكم :

ـ ماذا وجدت ؟ هل تأكدت انه ليس ثمة احياء ؟ واضطر قائدنا للاعتراف انهم موتى .

ـ ماذا وجدت ايضا ؟ هات المنهوبات .

واضطر لاعطائه ٢٠٠ الف دولار من النقود وستة عقود من اللؤلؤ والماس وبعض الاحجار الثمينة الاخرى .

قضينا يومين آخرين في الدفن ونصب الصلبان ، وانتهى عمل البعثة الرسمية ، واخذت تتأهب للمسير على الهيلوكوبتر الضخمة التي جاءت عليها ، كان واضحا انها لا تستطيع حملنا جميعا وقال قائدنا للطيار :

ـ ونحن ؟ هل يمكن ان تأخذونا ؟ هل تعودون لأخذنا ؟

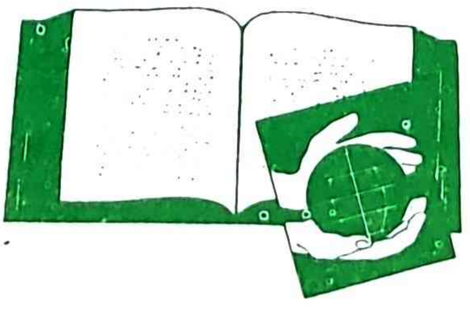
ـ لست ادري . . .

وعوى القائد بالأمر ، فطوقنا الطائرة واختطفنا خوزيه كارلوس والمدير الامريكي : وقدناهما تحت الاشجار : حياة هؤلاء مقابل إعادتنا . . . نحن قبلكم في السفر ! وفي المعركة تعطلت الهيلكوبتر برصاص الرشاش . ايام الرعب والجوع عادت اذن . . . والصمت القاتل . جهاز الاتصال نفسه تعطل ودامت هذه المسرحية يومين ، ريثما تم الاتصال بالحكومة ووصلت جماعة اخرى وفرجت بعد أن تركنا هناك قتيلين ، وثالثا اخذته الحمى . . ! اما ديمار دي باروس فانقطع عنا خبره كله . . اختفى تماما . . . بدون اي احتفال عدنا الى (سان باولو) وحين رحنا نسأل عنه عرفنا انه منذ وصلنا الغابة كان قد يئس من معركة الرئاسة ، وتبين فشل محاولته الدعائية حول الأحياء في الغابة فسافر ، بكل بساطة سافر الى اوروبا للاستجمام !

لم يضف صاحب الحديث الى حديثه سوى كلمة :

ـ قافلة التضامن بقيت من الضربات اللامعة في تاريخ دي باروس السياسي . اما الذين ماتوا وأما نحن ؟ . .

يا حسرتا على المنسيين !! □□



كتاب العربي

تاريخنا .. وبقايا صور

الكتاب الخامس والعشرون
١٥ أكتوبر ١٩٨٩

الفهرس

الفهرس

صدر من

كتاب العربي *

- الكتاب الأول

الحرية . . . . د . أحمد زكي (يناير ١٩٨٤)

- الكتاب الثاني

العلم في حياة الإنسان . . . . د . عبدالحليم منتصر (أبريل ١٩٨٤)

- الكتاب الثالث

المجلات الثقافية والتحديات المعاصرة . . . . (مجموعة كتّاب) (يوليو ١٩٨٤)

- الكتاب الرابع

مراجعات حول :

العروبة والإسلام وأوروبا . . . . د . محمود السمرة (أكتوبر ١٩٨٤)

- الكتاب الخامس

العربي ومسيرة ربع قرن مع :

الحياة . . والناس . . والوحدة

في دول الخليج العربي . . . . (مجموعة كتّاب) (نوفمبر ١٩٨٤)

---

* تطلب من موزعي العربي

صـــــدر مــــن

كتاب العربي

● الكتاب السادس

طبائع البشر ..

دراسات نفسية واجتماعية .... د. فاخر عاقل (يناير ١٩٨٥)

● الكتاب السابع

حوار .. لا مواجهة .. دراسات حول

الإسلام والعصر .... د. أحمد كمال أبو المجد (أبريل ١٩٨٥)

● الكتاب الثامن

آراء ودراسات في الفكر القومي .... (مجموعة كتّاب) (يوليو ١٩٨٥)

● الكتاب التاسع

أضواء على لغتنا السمحة .... محمد خليفة التونسي (أكتوبر ١٩٨٥)

● الكتاب العاشر

الكويت ربع قرن من الاستقلال .... (مجموعة كتّاب) (يناير ١٩٨٦)

● الكتاب الحادي عشر

نظرات في الواقع الاقتصادي المعاصر .. د. حازم الببلاوي (أبريل ١٩٨٦)

● الكتاب الثاني عشر

السلوك الإنساني الحقيقة والخيال .... د. فخري الدباغ (يوليو ١٩٨٦)

● الكتاب الثالث عشر

آراء حول قديم الشعر وجديده .... (مجموعة كتّاب) (أكتوبر ١٩٨٦)

● الكتاب الرابع عشر

المسلمون والعصر .... (مجموعة كتّاب) (يناير ١٩٨٧)

● الكتاب الخامس عشر

من أسرار الحياة والكون . . . . د. عبدالمحسن صالح (أبريل ١٩٨٧)

● الكتاب السادس عشر

دراسات حول الطب الوقائي . . . . (مجموعة كتّاب) (يوليو ١٩٨٧)

● الكتاب السابع عشر

خطاب الى العقل العربي . . . . د. فؤاد زكريا (أكتوبر ١٩٨٧)

● الكتاب الثامن عشر

المسرح العربي بين النقل والتأصيل . . . . (مجموعة كتّاب) (يناير ١٩٨٨)

● الكتاب التاسع عشر

الفلسطينيون من الاقتلاع الى المقاومة . . . (مجموعة كتّاب) (أبريل ١٩٨٨)

● الكتاب العشرون

أندلسيات . . . . محمد عبدالله عنان (يوليو ١٩٨٨)

● الكتاب الحادي والعشرون

ماذا في العلم والطب من جديد ؟ . . . . (مجموعة كتّاب) (أكتوبر ١٩٨٨)

● الكتاب الثاني والعشرون

الاسلام والعروبة في عالم متغير . . . . د. عبدالعزيز كامل (يناير ١٩٨٩)

● الكتاب الثالث والعشرون

الطفل العربي والمستقبل ! . . . . (مجموعة كتّاب) (أبريل ١٩٨٩)

● الكتاب الرابع والعشرون

القصة العربية أجيال .. وآفاق .. (مجموعة كتّاب) (يوليو ١٩٨٩)

● الكتاب الخامس والعشرون

تاريخنا .. وبقايا صور . . . . د . شاكر مصطفى (اكتوبر ١٩٨٩)

الكتاب القادم

الكتاب السادس والعشرون

١٥ يناير ١٩٩٠

الإنسان والبيئة

صراع أو توافق ؟!

بقلم مجموعة من الكتاب

كتاب العربي

هذا الكتاب

« إن الكتاب الموسوعيين في زماننا قلة ، ومن هؤلاء القلة كاتبنا هذا ، فعندما تقرأ له فأنت بالجديد مزود ، وعلى الطريف مطلع ، وبالأسلوب السلس متمتع ، ولعل دراسة التاريخ قد أعطت كاتبنا ذاك البعد الذي سماه هو غبار الماضي (الذي لا يفارقه) ، ذاك البعد جعل عيني مؤلفنا تتثبت على المستقبل ، وعندما يتناول قضايا العرب المعاصرة ، فانه يجسد من التاريخ أمثلة وهو الى المستقبل طامح » .

كتاب العربي

مرآة العقل العربي

طبع في
مطبعة حكومة الكويت